موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

أحاديث رمضان

أحاديث رمضان ١٤٢٦ هـ

الفوائد لابن القيم الجوزية

الجزء الأول

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٠١-٣٦) : حلاوة القرب من الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حكماً من كتاب الفوائد لابن القيم الجوزية:

أيها الأخوة الكرام، لأحد كبار العلماء مقولة هي: " في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة " .

جنة الدنيا هي القرب من الله عز وجل، ففي الدنيا جنة هي جنة القرب، من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة .

لذلك أيها الأخوة، اخترت لكم حكماً من كتاب الفوائد لابن القيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لعلي ظننت أن هذه الفوائد تزيد القرب من الله .

١ ـ من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه:

أولى هذه الفوائد: يقول هذا العالم الجليل: " من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه " . ذلك لأن الإنسان مجبول على حبّ وجوده، وعلى حبّ كمال وجده، وعلى حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده، هذه جبلة في الإنسان، قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧))

(سورة الشمس)

ما معنى:

(سَوَّاهَا)

أي جبلها على خصائص .

" يا داوود ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها"

هذه النفس البشرية لا تزال سراً في هذا العالم، كل الحضارة الغربية تفوقت في معرفة أسرار هذا الجسد، أما طبيعة هذه النفس فلا تزال سراً من الأسرار، ففي قوله تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

كيف سواها ؟ أي فطرها فطرة عالية، فطرها على حبّ ذاتها ، فطرها على حبّ سلامتها، فطرها على حبّ كمالها، فطرها على استمرار وجودها، فلذلك العجب من أين يأتي ؟ أنت لا تعجب إن جاءت المقدمات مطابقة للنتائج، لا تعجب إذا درس الطالب دراسة رائعة جداً، ثم نال الدرجة الأولى، لكن تعجب من طالب لم يدرس، ونال الدرجة الأولى، تقول: هناك سر، إما سرّ طبيعي بإمكاناته العالية، أو سرّ احتيالي، متى تعجب ؟ إن لم تأتِ النتائج وفق المقدمات، إذاً العجب أن تخالف النتائج المقدمات، يقول هذا العالم الجليل: " من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه "، تحب أنت الكمال، والكمال المطلق عند الله عز وجل، تحب الجمال، وفي المؤمن حالات لا توصف، عبّر عنها أحد العارفين بالله، وكان ملكاً ـ إبراهيم بن الأدهم ـ ترك الملك، وتفرغ لمعرفة الله، فقال: " والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " .

المؤمن سرّ من أسرار الله لا تنظر إلى شكله الخارجي لكن انظر إلى قلبه الموصول بالله:

أقول لكم أيها الأخوة، وأرجو الله أن نكون جميعاً كذلك: في نفس المؤمن من السكينة، ومن الراحة، ومن التوازن، ومن الرضا، ومن التفاؤل، ومن الثقة، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، المؤمن سرّ من أسرار الله، لا تنظر إلى شكله الخارجي، شكله الخارجي كأي إنسان، لكنه ينطوي على قلب موصول بالله عز وجل .

لذلك قالوا: مقولة ألف في واحد، مقولة ألف رجل، فصحاء، بلغاء، على ثقافة عالية جداً، على حنكة، على قدرة بيانية، على قوة بالمنطق، لا يؤثرون كواحد موصول بالله في ألف، ألف في واحد ليسوا في مستوى واحد في ألف

هناك موضوعات كثيرة في الدين، رائعة، قضايا العلم، قضايا الفقه، قضايا **!** لكن قضايا القرب، أن تذوق طعم القرب منه، أن تذوق حلاوة مناجاته، أن تذوق الإنابة إليه، فلذلك الشيء العجيب أن تأتي النتائج مخالفة للمقدمات، تعرفه ثم لا تحبه .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيعُ

لو كان حبك صادقاً لأطـعته إن المحب لمن يحب يطيـعُ

***

النفس البشرية مجبولة على حبّ الكمال و الجمال و النوال:

لذلك النفس البشرية أيها الأخوة مجبولة على حبّ الكمال، والكمال المطلق عند الله، ومجبولة على حبّ الجمال، وكل ما في الكون من جمال مسحة من جمال الله، يتجلى الله على بعض الأزهار بالجمال، تجد وردة، اللون، والرائحة، والنعومة، شيء لا يصدق، الله عز وجل تجلى باسم الجميل

على هذه الوردة، وقد تجد طفلاً صغيراً له وجه يأخذ بالألباب، وتجلى الله على هذا الطفل بمسحة من جماله، وقد تجد جبلاً أخضر بعده بحر صافٍ، وقد تجلى الله على هذه الأماكن باسم الجميل، فأنت حينما ترتعش إذا واجهت جمالاً فكيف اتصلت بأصل الجميل ؟ فالإنسان مفطور على حبّ الكمال، وحبّ الجمال، وحبّ النوال ، منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد، خلقك وأمدك بما تحتاج، بالهواء، بالماء، بزوجة، بأولاد، بذاكرة، بخبرة، بقدرات، بمهارات، لك حرفة ترتزق بها، لو أن هذا الفكر تعطل، لو أن هذه الذاكرة فقدتها، لو أن هذه الحركة حُرمت منها، لو أن هاتين العينين فقدتا الرؤية، فالله عز وجل يجب أن نحبه لأنه أوجدنا من عدم .

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١))

(سورة الإنسان)

ويجب أن نحبه، لأنه كمال مطلق، ويجب أن نحبه، لأنه جمال مطلق، فمن أعجب العجب أن تعرفه، ثم لا تحبه، هناك تناقض تأتي النتيجة مناقضة للمقدمة، لكن الأشياء التي تدعو إلى العجب كثيرة.

بطولة الإنسان أن يستجيب لله إذا دعاه لما يحييه:

أن تسمع داعية، ثم تتأخر عن الإجابة، الله عز وجل يدعونا دعوة بيانية ألطف دعوة، وأنت معافى صحيح، في أهلك، في أولادك، تستمع إلى خطبة، إلى درس، تقرأ كتاباً، تقرأ موضوعاً، تفتح المصحف، تقرأ كتاب سيرة، أو كتاب حديث شريف، الله عز وجل يدعوك دعوة بيانية، وينبغي أن تستجيب .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤))

(سورة الأنفال)

فإن لم تستجب فهناك دعوة أخرى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١))

(سورة السجدة)

إما أن تستجيب وأنت معافى في أهلك وأولادك، وإما أن تخضع لأسلوب أشد، الطبيب يقول أحياناً: هذا الالتهاب في المعدة قضية خطيرة، لكن يمكن أن تشفى بالحمية، وإلا بعملية جراحية، أنت مخير، فإما أن نستجيب طواعية، وإما أن نخضع لمعالجة قاسية،

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

وهناك حالة ثالثة النجاح فيها نسبته قليلة جداً، الإكرام الاستدراجي:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية: ٤٤)

وحالة رابعة، والعياذ بالله القصم:

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

فبين الدعوة البيانية، وبين التأديب التربوي، وبين الإكرام الاستدراجي، وبين القصم، فالبطولة أن نستجيب لله إذا دعانا لما يحيينا .

٢ ـ من أعجب العجب أن تسمع داعية ثم تتأخر عن الإجابة:

إذاً: ومن العجب أيضاً أن تسمع داعية، المؤذن يدعو إلى الصلاة، والخطيب يدعو إلى طاعة الله، وأي مدرس ديني في الجامع يدعوك إلى الصلح مع الله، وأن تسمع داعية، ثم تتأخر عن الإجابة، لذلك ورد في بعض الآثار: " هلك المسوفون " .

غداً وبعد غدٍ ، حتى أنهي الدراسة، حتى أؤسس هذا العمل، حتى أتزوج، وهناك آمال تلو آمال لا تنتهي، تنتهي الحياة ولا تنتهي، اذهب إلى مقبرة، صدق أن كل هؤلاء الذين في القبور هناك أعمال كبيرة جداً ماتوا ولم يحققوها أبداً، الإنسان يحقق كل شيء مستحيل .

٣ ـ من أعجب العجب أن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له:

الآن: وأن تعرف قدر غضبه، ثم تتعرض له، يا رب، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ الله عز وجل أحياناً يغضب، وغضب الله مخيف، كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك))

[أخرجه مسلم من حديث ابن عمر]

يكون الإنسان بأعلى درجة من الصحة والقوة، فجأة خثرة بالدماغ، أصبح مشلولاً، قد يأتي التأديب فوري،

((أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك))

وأن تعرف قدر غضبه، ثم تتعرض له، أنت في بحبوحة مادمت في طاعة الله .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ (٣٣))

(سورة الأنفال)

وأنت في بحبوحة إذا استغفرت، أنت في بحبوحتين، أنت في مأمنين، أنت في فرصتين ذهبيتين، إما أن تكون مطبقاً لمنهج الله، وإما أن تستغفر، وتعود إلى الله عز وجل.

٤ ـ من أعجب العجب أن تذوق ألم الوحشة في معصيته:

ومن أعجب العجب أيضاً أن تذوق ألم الوحشة في معصيته، زلت قدمك ، أخطأت، تشعر بالبعد، بالجفاء، بالحجاب، أثقل شيء عليك الصلاة .

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥))

(سورة البقرة)

فحينما يقع الحجاب بينك وبين الله تتألم ألماً لا يوصف، ولا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول، لذلك قال شاب سمع من شيخه أن لكل سيئة عقاباً، زلت قدمه، أخطأ، فشعر بالبعد، وطال هذا البعد، ثم ناجى ربه، قال: يا رب ـ هو سمع من شيخه أن لكل معصية عقاباً، فبحسب كلام الشيخ هو ينتظر العقاب، انتظر يوماً، يومين، أسبوعاً، أسبوعين، لا شيء، لا بصحته، ولا بأولاده، ولا بزوجته، ولا بسيارته، ففي أثناء المناجاة ـ لقد عصيتك فلم تعاقبنِي، فوقع في قلبه: أن يا عبدي، لقد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ فهذا الذي يدعو للعجب أيضاً، أن تذوق ألم الوحشة في معصيته، ثم لا تطلب الأنس بطاعته .

٥ ـ من أعجب العجب أن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه:

وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه، أحياناً يجلس أناس يتحدثون في أمور الدنيا، ما من خبر سار، ينتهي المجلس، ولا يستطيع الحاضرون أن يقفوا، أخبار كلها سيئة، ما من أمل بحسب المنظور البشري، الأمور كلها لغير صالح المسلمين، الأمور على أشد، ما من يوم إلا والذي بعده أشر، فإذا لم تتحدث عن ربك، ولم تنقل اهتماماتك إلى الآخرة، الدنيا تغر وتضر وتمر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((بادروا بالأعمال الصالحة، ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غِنَىً مُطْغِياً، أو فقْراً مُنْسِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً أو هَرَماً مُقَيِّداً، أو مَوْتاً مُجْهِزاً ؛ أو الدجال، فالدجال شرُّ غائِبٍ يُنْتَظر ؛ أو السَّاعَةُ والساعة أدهى وأمَرّ))

[رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه، والحديث عنه، ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لمــــا وليت عنا لغيرنا

و لـــو سمعت أذناك حسن خطابنا خلـعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولـــو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الـذي أضحى قتيلاً بحبنا

***

٦ ـ من أعجب العجب أن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره:

وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه، إذا تعلقت بغيره شعرت بالوحشة، ما سوى الله لا يعطيك شيئاً، ما سوى الله لا يمدك بالسعادة، لا يمدك بالأمن، لا يمدك بالراحة، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه، والإنابة إليه، لكن أعجب العجب في هذه الأشياء التي تدعو إلى العجب، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه، وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب، أن ترى طريق السعادة، وتسلك طريقاً آخر، أن ترى طريق الأمن وتسلك طريق الخوف، أن ترى طريق السلامة وتسلك طريق العذاب، أن ترى طريق الراحة وتسلك طريق الشقاء، هذا من أعجب العجب . فيا أيها الأخوة الكرام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على الإقبال عليه، والصلح معه، والإنابة إليه .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٠٢-٣٦) : سلامة الإنسان وسعادته في معرفة خالقه وربه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

للأنسان قوتان:قوة علمية نظرية وقوة عملية إرادية:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة ثانية من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، هذه الفائدة أقدم لها بمقدمة. الإنسان ميزه الله على بقية المخلوقات بقوة إدراكية، وقوة بيانية، والحقيقة أنك إذا أردت أن تقرأ ما يطبع في اليوم الواحد تحتاج إلى مئتي عام، لو أردت أن تقرأ ما يطبع في اليوم الواحد بلغة واحدة تحتاج إلى مئتي عام، لا بدّ من أن تصطفي، وإلا وقع الإنسان في الهلاك والضياع. تماماً لو كنت في مكتبة فيها ألف كتاب، وبعد يومين هناك امتحان مصيري بأحد هذه الكتب، فالعقل كل العقل، والنجاح كل النجاح، في قراءة هذا الكتاب المقرر.

يقول هذا العالم الجليل: " للإنسان قوتان، قوة علمية نظرية ـ أي قوةٌ إدراكية، إمكانية التعلم ـ وقوة عملية إرادية ".

الإنسان بإمكانه أن يتعلم، وبإمكانه أن يتحرك، فيه قوة علمية، وفيه قوة عملية، له إدراك، وله حركة، له قناعات، وله تصرفات، له فهم ، وله عمل.

يقول هذا العالم الجليل: سلامة الإنسان وسعادته في معرفة خالقه ومربيه ، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفات هذه الطريق العقبات والصوارف، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها، وأسباب سلامتها وسعادتها، لا يعلو على هذه المعارف معرفة، لأن الحقيقة الدقيقة ـ وما كل ذكي بعاقل ـ أنك قد تحمل أعلى شهادة باختصاص نادر، ولك دخل فلكي، وقد لا تكون عاقلاً، العاقل من عرف الله، والعاقل من عرف منهجه، والعاقل من عمل لما بعد الموت، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني))

[أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن شداد بن أوس]

إذاً أنت لك قدرة إدراكية، قوة علمية، قوة نظرية، قوة تعلم، قوة إدراك، قوة تلقٍّ، ومعك قوة حركية، عملية، سلوكية، فكمال سلامتك، وكمال سعادتك، بمعرفة خالقك ومربيك، ومعرفة أسمائه

الحسنى وصفاته الفضلى، ومعرفة الطريق إلى الله، والعقبات التي تكون فيها، والصوارف التي يمكن أن تنصرف عن الله بها، ومعرفة النفس وخصائصها وآفاتها، وهذه المعارف الخمس هي كمال القوة العلمية النظرية.

خيارات مع الحقيقة خيار وقت فقط:

أيها الأخوة، الآن معرفة حقوق الله سبحانه وتعالى عليك، والقيام بهذه الحقوق إخلاصاً وصدقاً، ونصحاً وإحساناً، ومتابعة وشهوداً، لمنته عليك، وتقصيرك في أداء هذا الحق عليك.

إذاً كمال النجاح، وكمال الفوز، وكمال التفوق، وكمال الفلاح، وكمال العقل، وكمال الذكاء، أن تعرف خالقك، ومربيك، وأن تعرف أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، وأن تعرف الطريق إليه، والعقبات على هذا الطريق، والصوارف التي تصرفك عن هذا الطريق، ومعرفة النفس البشرية، وخصائصها، وآفاتها، وعيوبها، وأي وقت تمضيه في غير هذه المعارف فهو مضيعة للوقت، ولا تعرف هذه الحقيقة إلا عند الموت.

أساساً فرعون أكفر كفار الأرض الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية: ٣٨)

فرعون نفسه حينما أدركه الموت قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

إذاً الحقيقة التي ينبغي أن تعرفها قبل أن تموت لا بدّ من أن تعرفها عند الموت ، إذاً خيارك مع الحقيقة خيار وقت، خيار وقت ليس غير.

علة وجود الإنسان في هذه الحياة الدنياأن يعبد الله:

الآن المعرفة الثانية: الحركية، العملية التي لا تعدو عليها معرفة، أن تعرف حق الله عليك:

((يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن معاذ]

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

علة وجودك في هذه الحياة الدنيا أن تعبد الله، والعبادة واسعة جداً، إياكم أن تظنوا أن العبادة أداء العبادات الشعائرية أداء شكلياً ليس غير، العبادة تطبيق منهج الله عز وجل بكل تفاصيله، ومنهج الله يبدأ من أشد الحالات خصوصية من فراش الزوجية، وينتهي بالعلاقات الدولية، كسب مالك، إنفاق مالك، كيف تمضي وقت الفراغ، كيف تفرح، كيف تحزن، كيف تنفق المال، منهج الله عز وجل فيه كل شيء، أكاد أقول: إن منهج الله للتقريب قد يتجاوز خمسمئة ألف بند، والعبادات الخمس خمسة بنود من هذا المنهج، لذلك هناك عبادات تعاملية، وهناك عبادات شعائرية، فمثلاً:الذي يَنمُ بين اثنين لا يدخل الجنة، كأن عباداته الشعائرية هُدرت:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّور وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة أحمد في مسنده عن أبي هريرة]

((من حج بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك ؛ قال الله عز وجل: لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك))

[رواه الشيرازي في الألقاب وأبو مطيع في أماليه عن عمر]

حتى الإنفاق:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

حتى الصلاة:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عَنْ ثَوْبَانَ]

أسماء الله الحسنى كلها تدور بين الربوبية والألوهية والإحسان:

هل تصدقون أيها الأخوة أن كل هذه المعاني مجموعة في الفاتحة، القوة الإدراكية العلمية النظرية:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة)

مقام الربوبية، مقام الإمداد،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

الإله مقام الألوهية، مقام الخلق والتسيير،

(رَبِّ الْعَالَمِينَ)

مقام الربوبية، الإمداد والرعاية،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(سورة الفاتحة)

مقام الإحسان، كل أسماء الله الحسنى تدور بين الربوبية والألوهية والإحسان.

كل إنسان بأمس الحاجة إلى هداية الله عز وجل:

الآن العبادة العملية، الإدراك النظري:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيم)
(مَالِكِ يَوْمِ الدِّين)

(سورة الفاتحة)

الآن السلوك العملي، الحركة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

لا تستطيع أن تعبده بقوتك الذاتية، لا بدّ من أن تستعين به على عبادته،

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)
(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الفاتحة)

((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

نحن بأمسّ الحاجة إلى هداية الله عز وجل.

((يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

لا حول عن معصية الله به ولا قوة على طاعته إلا به:

الآن:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)
(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)

(سورة الفاتحة)

هؤلاء الذين أنعمت عليهم بنعمة الهدى، و بنعمة الإيجاد، وبنعمة الإمداد، وبنعمة الهدى والرشاد، هؤلاء النبيون قمم البشر، والصديقون، والشهداء، والصالحون،

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)
(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة)

الإنسان إذا قصر في قوته العلمية، في قوة التلقي، في قوة المعرفة، في قوة العلم فهو الضال، والإنسان الذي ضعفت إرادته عن أن يفعل ما يعتقد فهو المغضوب عليه، فالإنسان إذا عرف الحق وفعله فهو من الذين أنعم الله عليهم، أما إذا عرف الحق، وضعف عن أن يفعله فهو المغضوب عليه، والذي لم يعرف الحق، ولم يفعله فهو الضال.

هذا الدرس كله مجموع في الفاتحة، هناك قوة علمية، وقوة عملية، أنت لك قناعة، لك فهم، ولك حركة، أحياناً تفكر أن الله عز وجل بيده كل شيء، هذا جانب نظري، يسمى الآن منطلقات نظرية، الجانب العملي التطبيقات العملية، أن تتحرك، أن تقوم وتصلي، أن تنفق من مالك، أن تقرأ كتاب الله عز وجل، أن تصلح بين اثنين، أن ترحم من حولك، أن تنصف من حولك.

إذاً أيها الأخوة،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

هذا الجانب النظري في الدين.

الجانب العملي،

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

أنت ضعيف، لا حول ولا قوة إلا بالله، ورد في بعض الآثار أن :"لا حول عن معصيته إلا به، ولا قوة على طاعته إلا به ".

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف الآية: ٣٣)

سيدنا يوسف:

(وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

العبادة تحتاج الى استعانة بلله عز وجل:

إذاً، العبادة تحتاج إلى استعانة،

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

وهناك تقريباً مئة درس عنوانها مدارج السالكين في منازل

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

معنى ذلك أن البشر يمكن أن يقسموا إلى ثلاث فئات، الذين أنعم الله عليهم بالقوة الإدراكية والقوة العملية، بقوة الفهم وقوة التطبيق، بصحة المعتقد وسلامة السلوك، هؤلاء قمم البشر، على رأسهم النبي عليه الصلاة والسلام ومن دونه من الأنبياء، ثم:

(وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أولَئِكَ رَفِيقاً)

(سورة النساء الآية: ٦٩)

أما القوة العملية

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

وحدك لا تستطيع، هناك شهوات،

(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

حتى القوة على الحركة تحتاج إلى هداية من الله،

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

أي افعل ولا تفعل، القرآن الكريم بأكمله تحت قوله تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور الآية: ٣٠)

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

(سورة البقرة الآية: ٨٣)

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)

(سورة الإسراء الآية: ٢٩)

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

وأنت إذا تعمقت في الصلاة أنت حينما تقول :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

على الإنسان أن يكون في جماعة لأن الجماعة رحمة والفرقة عذاب:

الآن الله عز وجل يخاطبك:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

إذاً الله عز وجل أجابك بعد أن طلبت منه، لكن ما قال لك: اهدني الصراط المستقيم، قال:

(اهْدِنَا)

ينبغي أن تكون في جماعة:

((وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عن النعمان بن بشير]

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

ليس صراط الذي أنعمت عليه،

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

الآن تقرأ القرآن بعد الفاتحة في الصلاة، هذه إجابة الله لك، ألم تقل له:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

يقول: يا عبدي افعل كذا، ولا تفعل كذا.

الآن تركع، ما معنى الركوع ؟ الخضوع إلى الرب، لكن قد تجد نفسك ضعيفاً، تسجد، يا رب أمدني بقوة منك كي أطيعك، حال الركوع حال الخضوع، وحال السجود حال طلب العون من الله، فأنت باليوم في كل صلاة عندك قوة إدراكية نظرية،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّين)

ما من ركنين من أركان الإيمان إقترنا في القرآن الكريم كركني الإيمان با لله واليوم الآخر:

بالمناسبة، ما من ركنين من أركان الإيمان اقترنا في القرآن الكريم كركني الإيمان بالله واليوم الآخر،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الإيمان بالألوهية والربوبية.

(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

مقام الإحسان.

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

الدار الآخرة.

هذه المعركة النظرية،

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

الحركة، السلوك، لكنك ضعيف.

((اللهم إني ضعيف فقوِّ في رضاك ضعفي))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو، وأبو يعلى في مسنده والحاكم في المستدرك عن بريدة]

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

الآن:

(اهْدِنَا)

هناك ثلاث مستويات، قمم البشر،

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)

وهناك فريقان: فريق ملحد، ما عرف الله أصلاً، وفريق عرف وانحرف، فالذي ما عرف الله أصلاً هو الضال، والذي عرف وانحرف هو المغضوب عليه،

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

من أجل سلامتك لا بد من أن تستكمل قوتك العلمية النظرية وقوتك الإرادية الحركية:

إذاً أيها الأخوة، حكمة اليوم لا بد من أجل سلامتك وسعادتك أن تستكمل قوتك العلمية النظرية، وقوتك الإرادية الحركية، فأنت بين قناعة وحركة، بين فهم وسلوك، بين إيمان وعمل، والله عز وجل في أكثر من مئتي آية قرن الإيمان مع العمل الصالح، قوة علمية، وقوة حركية:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة محمد الآية: ١٢)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٠٣-٣٦) : إذا أصبح العبد و أمسى و ليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان إما أن يكون عبداً لله و إما أن يكون عبداً لعبد لئيم:

فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى: إذا أصبح العبد و أمسى و ليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، و حمل عنه كل ما أهمه، و فرّغ قلبه لمحبته، و لسانه لذكره، و جوارحه لطاعته، و إن أصبح و أمسى و الدنيا همه حمله الله همومها، و غمومها، و أنكادها، و وكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، و شغل لسانه عن ذكره بذكرهم، و جوارحه عن طاعته بخدمتهم و أشغالهم، فهو يكدح كدح الوحوش في خدمة غيره كالكير ينفخ بطنه، و يعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله، و طاعته، و محبته بلي بعبودية المخلوق، و محبته، و خدمته " قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦))

(سورة الزخرف: الآية ٣٦)

أي إما أن تكون عبداً لله، و إما أن تكون عبداً لعبد لئيم.

من كان همّه الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها:

أيها الأخوة الكرام، أن تكون أنت لغير الله هذا احتقار لنفسك، و الإنسان حينما يكون تابعاً لغير الله أو حينما يكون محسوباً على جهة أرضية، يكون بهذا قد احتقر نفسه، قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (١٣٠))

(سورة البقرة: الآية ١٣٠)

أشياء كثيرة ترفضها احتقاراً لها، لكنك إذا رفضت الحق تحتقر نفسك، إما أن تكون في خدمة الخلق ابتغاء وجه الحق، و إما أن تكون عبداً لعبد لئيم.

أيها الأخوة الكرام، ورد في بعض الآثار القدسية: "من أصبح و أكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، و شتت عليه شمله، و لم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة."

" إذا أصبح العبد و أمسى و ليس همه إلا الله تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد و لا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد و أنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، و إن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي و جلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً ".

إذاً إذا أصبح العبد و أمسى و ليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، عبدي كن لي كما أريد و لا تعلمني بما يصلحك، أنا أعرف ما يصلحك، أعلم ما يصلحك، تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، و حمل عنه كل ما أهمّه، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، اعمل لوجه واحد يكفك الهموم كلها.

التوحيد أحد أكبر أسباب سعادة المؤمن:

المؤمن موحد أحد أكبر أسباب سعادته التوحيد، علاقته بالله وحده، الآن تخرج مع إنسان يكاد يخرج من جلده ناقماً، و ساخطاً، و يائساً، و محبطاً، و مقموعاً، و يقول: أمامنا ظلام بظلام، لا يوجد خبر سار ، إذا كنت مع الخلق هذا شأنك، إذا كنت بعيداً عن التوحيد هذا شأنك، إذا رأيت أن هناك أقوياء يتحركون في الحياة، و يتصرفون من دون توجيه الله عز وجل، فهذا أيضاً نوع من الشرك، بل هو أخطر أنواع الشرك، إنه الشرك الخفي.

إذاً: " تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، و حمل عنه كل ما أهمه، و فرغ قلبه لمحبته، و لسانه لذكره، و جوارحه لطاعته "

من كان مع الله كان الله معه:

لذلك أنت حينما تكون مع الله يكون الله معك، و حينما تذكر الله في نفسك، أو في ملأ، يذكرك الله في ملأ خير منهم، و إذا تقربت إلى الله شبراً تقرب الإله منك ذراعاً، و إذا أتيته مشياً أتاك هرولة، و إن أصبح و أمسى و الدنيا همه حمله الله همومها، خذ من الدنيا ما شئت و خذ بقدرها هماً، من أخذ من الدنيا فوق ما يستطيع أخذ من حتفه و هو لا يشعر، حمله الله همومها، تجده محطماً.

و الله أخ كريم دخل على رجل ـ و الكلام دقيق و فيه تحقيق ـ قال لي: حجمه المالي يقترب من أربعة آلاف مليون، قال لي: شكا لي همومه و متاعبه، شكا لي أهله و أولاده، شكا لي أموره المعسرة، قال لي: بعد حديثه لا أقوى أن أقف على قدمي:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤))

(سورة طه: الآية ١٢٤)

أحد أكبر أغنياء اليهود في بريطانيا عنده غرفة يضع فيها أمواله، صندوق حديدي على شكل غرفة، فدخل إلى هذه الغرفة، و أغلق الباب خطأ عليه، و هي في مكان ناء من قصره، فوجدوه بعد حين قد جرح إصبعه، و كتب على الحائط: أغنى إنسان يموت جوعاً و عطشاً.

كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، هذا الذي أصبح و همه الدنيا حمله الله همومها، و غمومها، و أنكادها، و وكله إلى نفسه فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، عبد للناس، إنسان يقدم شيئاً بسيطاً تجده يثني عليه، و يلهج بذكره، و بحمده، و الذي منحه نعمة الإيجاد، و نعمة الإمداد، و نعمة الهدى و الرشاد، غافل عنه.

من أعرض عن عبودية الله عز وجل و محبته بُلي بعبودية مخلوق لئيم:

قال:" شغل الله قلبه عن محبته بمحبة الخلق، و شغل لسانه عن ذكره بذكرهم، و جوارحه عن طاعته بخدمتهم و أشغالهم، فهو يكدح كدح الوحوش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه، و يعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله عز وجل و محبته بلي بعبودية مخلوق لئيم".

احفظوا هذه العبارة: إما أن تكون عبداً لله فعبد الله حر، و إما أن تكون عبداً لعبد لئيم، إن أحسنت لم يقبل، و إن أسأت لم يغفر، إن رأى خيراً كتمه، و إن رأى شراً أذاعه، قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦))

(سورة الزخرف: الآية ٣٦)

الناس ثلاثة ؛ عالم و متعلم على سبيل نجاة و همج رعاع:

أيها الأخوة الكرام، سمعت كلمة لبعض المنشدين يقول:

ما الناس سوى قوم عرفوك و غيرهم همج همج

***

رهذا القول ذكرني بقول للإمام علي ـ رضي الله عنه ـ قال: " يا بني ـ يخاطب ابنه ـ الناس ثلاثة ؛ عالم، و متعلم على سبيل نجاة، و همج رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم، و لم يلجؤوا إلى ركن وثيق فاحذر أن تكون منهم ".

أقول لكم هذه الكلمة و أنا أعني ما أقول: لو أنك تحمل أعلى شهادة في العالم و ما عرفت الله ـ سامحني بهذه الكلمة ـ فأنت مع الهمج، أي يمكن أن نقصف غرفة نوم بقصر بالعراق من إيطاليا،

تصور صاروخ يخرج من بارجة في إيطاليا أين هدفه ؟ غرفة نوم بقصر، و تأتي الإصابة دقيقة، و الذين فعلوا هذا همج همج.

يمكن أن تخترع قمراً صناعياً، عندي مجلة الأرض بكاملها من القمر و فيها البحار و القارات و الغيوم، مربع ميليمتر، هذا كُبّر صار منطقة في أمريكا الشمالية، عليه مربع ميليمتر كُبّر فلوريدا، مربع كبر ساحل بفلوريدا، مربع كبر مرج بجانب الساحل، المربع كبر ثم كبر إلى أن أصبحت الصورة إنساناً يستلقي على ظهره، و يقرأ قصة، و بإمكانك أن تقرأ عنوان القصة، و إلى جانبه صحن فيه تفاحات ثلاث، يمكن أن تقرأ عنوان القصة و ساعته في يده اليسرى، و هؤلاء الذين وصلوا إلى هذا التقدم المذهل العلمي همج همج.

ما جرى في سجن أبو غريب همج همج، بقدر التفوق التقني في العالم بقدر الهمجية التي نراها.

الإنسان إما أن يعرف الله فيرقى و إما أن يعيش على أنقاض الشعوب:

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء " لم يستضيئوا بنور العلم، و لم يلجؤوا إلى ركن وثيق، قال: فاحذر أن تكون منهم ".

الآن يوجد قنابل تميت البشر فقط، الأبنية كما هي لا تصاب بأي أذى، الإنسان هش كقميص اللوكس، هناك قنابل تعطل الاتصالات، هناك قنابل تعطل الطاقات، هناك قنابل يمكن أن تدخل إلى ملجأ ثخن سقفه متر إسمنت مع حديد مسلح، متى تنفجر ؟ بعد أن تخرق هذه المسافة المذهلة تنفجر في داخل الملجأ، اسمها الخارقة الحارقة، هناك قنابل انشطارية، هناك قنابل عنقودية، هناك قنابل ذكية، و الذين فعلوا كل هذه الأسلحة همج همج.

ما الناس سوى قوم عرفوك و غيرهم همج همج

****

و قد يحمل الإنسان أعلى شهادة في العالم ما كل ذكي بعاقل، ترى بعينك شيئاً لا يصدق، قد يملك عشرة بالمئة من سكان الأرض تسعين بالمئة من ثروات العالم، لا يوجد رحمة بقلبهم، في أستراليا تمّ إعدام عشرين مليون رأس غنم قبل أعوام، و دفنوا حفاظاً على أسعار اللحم المرتفع، و أمم تموت من الجوع، أمم في إفريقيا تموت من الجوع، و أمم في شرق آسيا تموت من الجوع، و يتم إعدام عشرين مليون رأس غنم و غيرهم همج همج.

أحياناً محصول الحمضيات بأكمله يتلف في أمريكا، حفاظاً على أسعار الحمضيات، فأصبح الفقراء الزنوج يتسللون إلى مكان تخزين هذه البضاعة التي ينبغي أن تتلف فيأكلون، في العام القادم سمم هذا المحصول حتى لا يدخل زنجي يأكل برتقالة من دون مقابل، حتى يبقى السعر مرتفعاً، بعض

السنوات السابقة أتلف محصول الزبدة بما يساري حجم أهرامات مصر، و أتلف للحفاظ على السعر المرتفع، أما أن تقدم هذه الأغذية لشعوب تموت من الجوع، لا، و غيرهم همج همج صدقوا هذه الكلمة مؤثرة.

الإنسان إذا ما عرف الله همج وحش، وحش كاسر، ذئب، ضبع، إما أن تعرف الله فترقى، ترقى بمشاعرك، نرقى بإنصافك، ترقى برحمتك، ترقى بعدلك، ترقى بعفوك، ترقى بإنسانيتك، فإذا ما عرفت الله و لو بلغت أعلى منصب في الأرض، الدول العظمى ماذا تفعل ؟ تعيش على أنقاض الشعوب، تلغي وجود الشعوب، تلغي ثقافة الشعوب، تلغي خصوصيات الشعوب.

لذلك أيها الأخوة الكرام، كما قال بعض المؤرخين المنصفين: "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب ".

عندما فتحوا البلاد، سيدنا صلاح الدين عندما فتح القدس ما أراق قطرة دم واحدة، بينما الفرنجة عندما فتحوا القدس ذبحوا سبعين ألفاً في يومين.

ما الناس سوى قوم عرفوك و غيرهم همج همج

****

" يا بني الناس ثلاثة ؛ عالم، و متعلم على سبيل نجاة، و همج رعاع، لم يستضيئوا بنور العلم، و لم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر أن تكون منهم ".

من رأى أن الأمور ترجع إلى الله وحده فهذا فهم صائب و سعادة كبيرة:

و الكلمة الأخيرة: إن لم تكن لله عبداً فأنت عبد لعبد لئيم:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

(سورة الشعراء: الآية ٢١٣)

تكون من المعذبين، أحد أكبر أسباب العذاب في الدنيا أن ترى الأمر بيد غير الله، و الله أيها الأخوة الكرام، الأخبار السيئة أحياناً أنه لك عدو قوي، معه سلاح فتاك، لا يرحمك، يتمنى إبادتك، هذا الخبر وحده يسبب أزمة قلبية، أما حينما تشعر أنك عبد لله و أن الله لن يتخلى عنك، و لن يسلمك إلى غيره، و أن سعادتك بيده، و شقاءك بيده، و أن رزقك بيده، و حياتك بيده، و موتك بيده، حينما ترى أن الأمور ترجع إليه فهذا فهم صائب و سعادة كبيرة.

نعيد الفائدة: " إذا أصبح العبد و أمسى و ليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، و حمل عنه كل ما أهمه، و فرّغ قلبه لمحبته، و لسانه لذكره، و جوارحه لطاعته، و إن أصبح و أمسى و الدنيا همه حمله الله همومها، و غمومها، و أنكادها، و وكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن

محبته بمحبة الخلق، و شغل لسانه عن ذكره بذكرهم، و جوارحه عن طاعته بخدمتهم، و أشغالهم، فهو يكدح كدح الوحوش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه، و يعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله، و طاعته، و محبته، بلي بعبودية لمخلوق لئيم، قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦))

(سورة الزخرف: الآية ٣٦)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٠٤-٣٦) : للعبد ستر بينه وبين الله - للعبد ستر بينه وبين الناس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

للعبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس فمن هتك هذا الستر هتك الله ستره:

أيها الأخوة الكرام، مع عدد من فوائد جليلة للعالم الجليل ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من كتاب الفوائد، إحدى هذه الفوائد: " للعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس ".
الله عز وجل من أسمائه أنه ستار، وقد يظهر الله محاسنك، ويستر عن الناس عيوبك، فما دمت تحتمي بهذا الستر، وتقدر هذا الستر، وما دمت تخاف أن تسوء العلاقة بينك وبين الله، فالله سبحانه وتعالى بتكرم منه يبقي الستر الذي بينك وبين الناس قائماً، يحفظك، ويسترك، و يخفي عن الناس ما أنت عليه، وهذا من أسماء الله الحسنى.
والمؤمن الصادق له من هذا الاسم نصيب، المؤمن الصادق ليس فضاحاً، بل يستر على الناس عيوبهم وأخطاءهم.

لا تستطيع أن تُقبل على الذات الإلهية الكاملة إلا بكمال مشتق منها وهذا هو الكمال الأصيل:

قال عز وجل:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (١٨٠))

(سورة الأعراف)

من معاني هذه الآية: أنك لا تستطيع أن تتقرب إلى الله إلا إذا اشتققت من أسمائه الحسنى أخلاقاً تتعامل بها مع الناس، فإذا كان الله ستيراً ينبغي أن تتخلق أنت بهذا الخلق، فإذا تخلقت بهذا الخلق كان هذا الخلق باباً لك إلى الله، ووسيلةً تقبل بها على الله، هذه قاعدة عامة تؤخذ من هذه الآية، الله عز وجل رحيم، فإذا رحمت الخلق تستطيع برحمتك للخلق أن تُقبل على الله الرحيم، فأنت لا تستطيع أن تُقبل على الذات الإلهية الكاملة إلا بكمال مشتق من الذات الإلهية، وهذا الكمال المشتق من الذات الإلهية هو الكمال الأصيل، هي الأخلاق الصحيحة التي لا تتبدل، ولا تتغير، ولا تتأثر.

الأخلاق التي لم يكن مصدرها اتصالاً بالله عز وجل تنهار وتتبدل وتتغير عند أي استفزاز:

لا بد من التنويه هنا إلى أن الإنسان أحياناً بذكائه يعامل الناس معاملة طيبة، هذه الأخلاق التي لم يكن مصدرها اتصالاً بالله عز وجل، ولا صبغة من الله عز وجل، هذه أخلاق الأذكياء، تنهار، وتتبدل، وتتغير عند أي استفزاز، أو عند أي خطر يهدد مصالح الإنسان، ولو وسعنا هذا الموضوع لوجدنا أن العالم الغربي استطاع بطرح قيم رائعة جداً أن يخطف أبصار أهل الأرض، لكن حينما هددت مصالحه انقلب إلى وحش كاسر، والله سبحانه وتعالى متكفل ألا يغش أحداً بأحد.

فالذي بينه وبين الله ستر حافظ عليه، وقدره، وشكر الله على أن ستره، ما كان الله ليفضح هذا الإنسان في عقر داره.

لكن من هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس:

((اعمل لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها))

[ابن عدي في الكامل والديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

الأمر كله بيد الله، والإنسان مهما يكن ذكياً، وقد أحكم أموره، وقد سدّ كل الثغرات، وقد هيأ لكل الاحتمالات، لا يستطيع أن يحمي نفسه من فضيحة، لأن الأمر بيد الله وحده، يؤتى الحذر من مأمنه:

((ولا ينفع ذا الجد منك الجد))

[مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس]

صاحب الحيلة، والذكاء، وقوة الإدراك، صاحب المكر والكياسة، لا يستطيع أن يحول بينه وبين أن يفعل الله معه ما يريد.

من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس:

بالمناسبة:

((إن الله إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

[الحاكم عن ابن عباس]

هذا الكلام يقود إلى التوحيد، من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وللعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس، وما دمنا في هذا الموضوع فهناك بعض الأحاديث.

حديث يشير إلى أنه:

((...... ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته))

[ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد]

هناك إنسان قناص، همه أن يثير الفضائح، وكل إنسان يدقق في خصوصياته ويفضحه، فعقابه من الله عز وجل أن يفضحه في عقر داره، ولا تستطيع مهما كنت كيساً، وذكياً، وعاقلاً، أن تحول بين الله وبين أن يكشف سترك.

للعبد رب هو ملاقيه وبيت هو ساكنه:

فلذلك أيها الأخوة، لن تستطيع أن تتقرب من الله بقربة أبلغ من أن تشتق كمالاً منه، بهذا الكمال الذي تشتقه منه يمكن أن يكون وسيلة لك إلى الله، وهذا فحوى قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

هذه فائدة.

للعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل الانتقال إليه.

لا بد من توضيح هذه الفائدة بمثل: لو تصورنا أن بلداً فيه نظام إيجارات عجيب، يستطيع مالك البيت أن يطرد المستأجر في أية لحظة، من ليل أو نهار، بل في أية ثانية، ولا يستطيع المستأجر أن يأخذ من أغراضه شيئاً إطلاقاً، وبلا سابق إنذار، وبلا قاعدة، هذا المستأجر له دخل كبير، هل من العقل أن يضع كل دخله في هذا البيت الذي هو مستأجر له، وقد يطرد منه بأية ثانية، وكل شيء اشتراه لهذا البيت يبقى في هذا البيت، حتى متاعه الشخصي ؟ هكذا النظام، افترضوا نظام إيجار هكذا، هل من العقل أن تضع كل مالك في هذا البيت ؟ لأنه في ثانية واحدة تطرد منه، لكن لك بيت بعيد وهو ملكك، وهو على الهيكل، أليس العقل كل العقل أن تنفق مالك في كسوة ذلك البيت، وفي تأسيس ذلك البيت، وفي إعمار ذلك البيت، لأن مصيرك إليه.

هذا هو الذي أتمنى أن يكون واضحاً، هذه الدنيا كل شيء تملكه فيها منوط بدقات قلبك، منوط بشرايينك، منوط بسيولة دمك، منوط بنمو خلاياك، لو أن هذه الخلايا نمت نمواً عشوائياً انتهى كل شيء، أصبح الإنسان خبراً ونعوة، لو أن هذه الشرايين ضاقت دخل الإنسان في متاعب لا حصر لها، لو أن هذا الدم تجمد، لو أن هذا القلب توقف عن النبض، فهذه الدنيا كل شيء تملكه فيها ينتهي بأحد هذه الحالات، كان رجلاً فصار خبراً، والله عز وجل قال:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون الآية: ٤٤)

الخاسر من وقف في خندق معادٍ للحق:

إذاً أن تضع كل إمكاناتك، وكل مكتسباتك في هذه الدنيا الزائلة، من يفعل هذا يكون على قدر لا حدود له من الغباء، لذلك:

((الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني))

[أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن شداد بن أوس]

فللعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، وأن يعمر بيته قبل الانتقال إليه.

الآن في الدنيا، بدائرة معينة، شاعت فكرة أن مدير هذه الدائرة سوف ينتقل إلى مكان آخر، وسوف يأتي فلان مكانه، بعض الموظفين الأذكياء يقيمون علاقة طيبة قبل أن يكونوا تحت إمرة هذا الجديد، الآية الكريمة:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦))

(سورة الغاشية)

هذا الذي يعادي ربه، هذا الذي يقف في خندق معادٍ للحق، هذا الذي يتفلت من منهج الله عز وجل، ما موقفه حينما يلقى الله عز وجل ؟ ورد في بعض الآثار:

" أن عبدي قد أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، قال ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم.

" ويقول لعبد آخر: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال يا ربي أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خير حافظ وأنت أرحم الراحمين، فقال الله عز وجل أنا الحافظ لأولادك من بعدك ".

[ورد في الأثر]

على الإنسان أن يهيئ جواباً لله عن كل عمل يقوم به لأن الله عز وجل مطلع على نواياه:

أخواننا الكرام، في الحياة عبر كثيرة جداً، سألوا مرة طالباً نال الدرجة الأول في الشهادة الثانوية: بمَ نلت هذا التفوق ؟ فأجاب إجابة رائعة جداً، قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر ذهني ولا ساعة في العام الدراسي.

ويقاس على ذلك أن المؤمن كلما همَّ بعمل ماذا أجيب الله عن هذا العمل ؟ همّ بتطليق زوجته، يا ترى معي الحق بتطليقها ؟ همَّ بفض هذه الشركة، يا ترى هل هو مصيب في هذا أم مخطئ ؟ دائما وأبداً المؤمن يتصور أن الله يسأله، فماذا يكون جوابه لله عز وجل ؟ وأنا أحياناً كثيرة حينما استفتى في موضوع الوصية، أقول له: معك جواب لله ؟ قد يكون له بنت فاتها قطار الزواج، وبناته الأخيرات متزوجات، فإذا أعطى هذه البنت شيئًا من ماله في حياته ليضمن لها كرامتها بعد موته فلا مانع، معك جواب لله عز وجل، أحياناً إنسان يحابي زوجته الثانية، فيكتب لأولادها ما لا يكتبه لأولاد الأولى.

((إن الرجل ليعمل، أو المرأة، بطاعة الله تعالى ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار))

[أبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

العبرة أيها الأخوة قبل أن تقطع، قبل أن تصل، قبل أن تعطي، قبل أن تأخذ، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تفعل شيئاً هيئ لله جواباً، هيئ لله جواباً، وافعل، لأن الله عز وجل مطلع على نواياك، وهذا معنى الحديث النبوي الشريف:

((إذا لم تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شئت))

[البخاري عن ابن مسعود]

من معاني هذا الحديث: إذا لم تستحِ من الله بهذا العمل امضِ فيه، ولا تعبأ بأحد، أحياناً يكون هناك عمل مرفوض اجتماعياً، لكنه مقبول عند الله عز وجل، وأنت مغطى عند الله، فإذا كنت مغطى عند الله، ولا تستحي من الله من هذا العمل فامضِ به، ولا تعبأ بأحد.

إضاعة الوقت أشد من الموت:

آخر فائدة: إضاعة الوقت أشد من الموت، كيف ؟ قال: لأن إضاعة الوقت يقطعك عن الله والدار الآخرة، بينما الموت يقطعك عن الدنيا وأهلها، والفرق كبير جداً، إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن الموت يقطعك عن الدنيا، وهي زائلة في الأساس، لكن إضاعة الوقت يقطعك عن الآخرة.

بالمناسبة أيها الأخوة، مركب في أعماق أعماقنا أن الوقت أثمن من المال، الدليل: لو أن الإنسان لا سمح الله أصابه مرض عضال، وتقتضي أجرة العملية أن يبيع بيته، لا يتردد ثانية واحدة

في بيع بيته الذي لا يملك غيره، من أجل إجراء عملية يتوهم أنها تمد في حياته بضع سنوات. الآن لو أن إنسان أمسك خمسمئة ألف، وأحرقها بيده، أمام ملأ، ماذا يحكم عليه ؟ بأنه فاقد العقل، لأنه أتلف ماله، إذاً إتلاف المال يعد سفهاً، فإذا أتلف وقته، والوقت أثمن من المال، يعد متلف الوقت أشد سفهاً من الذي يتلف ماله، لأنك أنت وقت، أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، أنت بالتعريف الدقيق وقت، أو أثمن شيء تملكه هو الوقت، أو رأسمالك الوحيد هو الوقت، وإضاعة الوقت من المقت، هذه حكمة أخرى ـ إضاعة الوقت من المقت ـ فأنت حينما تضيع وقتك تضيع نفسك.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية: ١٥)

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨))

(سورة التكاثر)

فأنت وقت، وإضاعة الوقت من المقت، وإضاعة الوقت أخطر من الموت ، الموت يقطعك عن الدنيا، لكن إضاعة الوقت تقطعك عن الدار الآخرة.

الوقت ينفق إنفاقاً استهلاكياً أو إنفاقاً استثمارياً:

بالمناسبة أيها الأخوة، الوقت يمكن أن ينفق إنفاقاً استهلاكياً، ويمكن أن ينفق إنفاقاً استثمارياً، ومعظم أهل الأرض ينفقون أوقاتهم إنفاقاً استهلاكياً، يأكل، ويشرب ، ويسترخي، ويفعل ما يريد، ويلتقي مع من يريد، ولا يقوم بأي عبادة، ولا أي طاعة، ثم يفاجأ بخبر صاعق سماه الله مصيبة الموت، والإنسان مادامت صحته مقبولة ينسى الموت ، أما حينما يأتي المرض إلى عضو خطير، أو إلى جهاز خطير، أو التقرير خطير، عندئذٍ ينسى كل شيء، فهذه الحقيقة المرة يؤكدها النبي عليه الصلاة والسلام بحديث أنا والله أصف هذا الحديث أنه يقصم الظهر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصالحة، ما ينتظر أحدكم من الدنيا، هَلْ تُنْظَرُونَ إلا فقْراً مُنْسِياً))

[أخرجه النسائي والحاكم وصححه المناوي في سند الترمذي عن أبي هريرة]

أنت الآن صحيح معافى، لك بيت، لك زوجة، لك أولاد، واليوم كالبارحة وغداً كاليوم، لكن إلى متى هذا الوضع ؟ شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، رضيت أم غضبت، هناك تطور سيكون في المستقبل.

((ما ينتظر أحدكم من الدنيا ؟))

أي مضي الأيام ماذا بعده ؟

((إلا غِنَىً مُطْغِياً، أو فقْراً مُنْسِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً))

مرض عضال، انتهى، شلل، خثرة بالدماغ، فقد بصره، فقد سمعه، فقد ذاكرته، والعياذ بالله هناك أمراض تنسيك الدنيا بأكملها.

((أو هَرَماً مُقيِّداً))

تتقدم به السن، ولم يكن في شبابه على طاعة الله، ونعوذ بالله من خريف العمر، حشري، يعيد القصة مئات المرات، لا يحتمل، ثقيل الظل، يهرب أهله منه، ممكن،

((أو مَرَضاً مُفْسِداً، أو هَرَماً مُقيِّداً))

((ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غِنَىً مُطْغِياً، أو فقْراً مُنْسِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً، أو هَرَماً مُقيِّداً، أو مَوْتاً مُجْهِزاً ؛ أو الدجال))

كما تسمعون وترون، يطرح قيماً رائعة، يمارس ممارسات إجرامية، يقول لك: أنا أتيت من أجل الحرية، هذا الدجال.

((شرٌّ غائِبٍ يُنْتَظر ؛ أو السَّاعَةُ، والساعة أدهى وأمَر))

الإنسان وقت و كلما انقضى يوم انقضى بضع منه:

الآن حينما يقع زلزال ألا ترون ماذا يحصل ؟

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(٢))

(سورة الحج)

أخواننا الكرام، وقع بالقاهرة زلزال، لي قريب هناك يقسم بالله العظيم أن امرأته من شدة خوفها عند وقوع الزلزال أخذت ابنها الرضيع، وانطلقت خارج البيت لا تلوي على شيء، وفي الطريق تبين لها أن الذي أخذته ليس ابنها الرضيع، بل حذاء زوجها،

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

زلزال باكستان، الأعاصير في أمريكا،

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

الله يحفظ بلادنا.

أيها الأخوة، إذاً أنت وقت، فإما أن تنفق وقتك إنفاقاً استهلاكياً كما يفعل معظم الناس، وإما أن تنفقه إنفاقاً استثمارياً، فتفعل في الوقت الذي سيمضي عملاً ينفعك بعد مضي الوقت.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٠٥-٣٦) : إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ست مشاهد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: " إذا جرى على العبد مقدور يكرهه ـ القضاء والقدر بعضه محبب إلى النفس، وبعضه مكروه، الإنسان قد يتزوج، وقد ينجح في عمله، وهذا من قضاء الله له، هذا شيء مسعد، لكن قد يأتيه مرض، وقد يأتيه غم وهم، فالمقدور الذي يكرهه الإنسان ـ إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد".

١ ـ مشهد التوحيد:

المؤمن الصادق المتعمق بالإيمان الذي يرفعه الله عز وجل بالعلم، إذا جاءه مكروه من القضاء والقدر فله في هذا المقدور ستة مشاهد، أحدها: مشهد التوحيد، هذا الذي جرى بصرف النظر عمن أجراه، هذا الذي جرى، هذا الذي وقع، هذا الذي حصل من عند الله، لذلك قالوا: لكل واقع حكمة، ولو كان الموقع مجرماً، مادام الشيء وقع ففيه حكمة بالغة، لأنه لا يليق لألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد، لأنه إله العالم، فكل شيء يقع في العالم أراده، بمعنى سمح به، لذلك أول مشهد من مكروه المقدور أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أوقعه، أي إن الله هو الذي قدره، و شاءه، وخلقه، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لذلك هناك قاعدة مستنبطة من هذه الحكمة: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

٢ ـ مشهد العدل:

المشهد الثاني: مشهد العدل، قد يكون الذي وقع في ظاهره ظلم شديد، لكن في حقيقته محض عدل، ذلك أن الله يعامل عباده في مجموع أعمالهم، قد تكون في محلك التجاري وأنت منضبط أشد الانضباط، وأنت مطبق لكل التعليمات، ولكل الأنظمة، ويأتي إنسان فيظلمك بضبط ظالم، هذا الضبط ظالم، لكن الله سبحانه وتعالى يعامل عبده بكل شؤون حياته، قد يكون في سهرة قبل يوم لا

ترضي الله، فجاء هذا الظلم الظاهري تأديباً لهذه السهرة التي لا ترضي الله، الحساب عند الله حساب جارٍ مِن إلى.

إذاً: المشهد الثاني: أن الذي وقع مشهد عدل، و أنه ماض في حكمه، عدل في قضائه، التوحيد هو المشهد الأول، والعدل هو المشهد الثاني.

٣ ـ مشهد الرحمة:

المشهد الثالث: مشهد الرحمة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (١٥٦))

(سورة الأعراف)

وهذا الذي حدث شيء، فرحمة الله عز وجل وسعت كل شيء، مشهد الرحمة، وأن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه.

٤ ـ مشهد الحكمة:

المشهد الرابع: مشهد الحكمة، هذا الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، هذا الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، ليس في الإمكان أبدع مما كان، ويوم القيامة يكشف الله لعباده سرّ القضاء والقدر، إذاً حكمته اقتضت ذلك، ولم يقدر سدى ولا عبثاً ولا لعباً، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا (١١٥))

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦))

(سورة القيامة)

هذا الذي وقع وقع بأمر الله، هذا هو التوحيد، ووقع بعدل الله، ووقع برحمة الله، ووقع بحكمة الله.

٥ ـ مشهد الحمد:

المشهد الخامس: مشهد الحمد، المؤمن قد يوقن أن الذي وقع رحمة محضة، ولو لم يدرك الحكمة، لكن يوم القيامة يكشف الله له عن الحكمة.

إذاً المشهد الخامس: مشهد الحمد لله، علاقتك مع الله بكل إيجابيتها وسلبيتها، بكل ألوانها تلخص بكلمة، قال تعالى:

(وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الحَمْدُ لِلَّه رَبّ العالَمِينَ)

(سورة يونس الآية: ١٠)

وله سبحانه وتعالى الحمد التام على ذلك من جميع الوجوه.

٦ ـ كيف فهمت هذا الذي وقع ؟

المشهد السادس والأخير: كيف فهمت هذا الذي وقع ؟ هذا الذي وقع لأنك عبد له ولست نداً له، ماذا تفعل أنت في ملك الله ؟ لك أن تفهم الحكمة، لك أن تتوقع حكمة ما، لكن لو استغلق عليك الأمر أنت عبد الله، وأنت منه، فله أن يفعل بك ما يشاء، لكن الله سبحانه وتعالى رحيم، هو قدير، لكنه رحيم، بمعنى أن أي أب عنده طفل يحبه حباً جماً من حيث القدرة، من حيث القدرة فقط، ألا يستطيع أن يذبحه ؟ هل يمكن أن يقع هذا الذبح ؟ مستحيل، لأن الله سبحانه وتعالى على صراط مستقيم، وحيثما جاءت على مع لفظ الجلالة فالمعنى أن الله ألزم ذاته العلية بالرحمة، لذلك شيء من القلق ضروري، أما أن تتوهم لو أنك عبدته يمكن أن يكون المصير إلى النار فهذا شيء فيه وسوسة من الشيطان، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١٤٧)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧))

(سورة سبأ)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

من عصى الله نال قلة التوفيق وفساد الرأي وخفاء الحق:

إذاً أنت في النهاية عبد، مرة أحد العلماء في محاضرة ألقاها قال: لو أن الله وضع فلاناً ـ وسمى نفسه ـ في النار ماذا يفعل ؟ هو عبد لله طبعاً، هذا لون من ألوان الرضا، الآن المعصية التي ربما سببت هذا القضاء المكروه، المعصية من نتائجها قلة التوفيق، حركة بلا نتائج قلة التوفيق، قال تعالى:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود الآية: ٨٨)

وفساد الرأي، قال تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد)

الإنسان إذا كان بعيداً عن الله يفسد رأيه، يكون تدميره في تدبيره، يفكر، ويجمع، ويطرح، ويضرب، ويقسم، ثم يدمر نفسه، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ (٣٦))

(سورة الأنفال)

قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق.

من توفيق الله للإنسان أن يكون رأيه صائباً و نظرته صحيحة:

أن يكون رأيك صائباً، هذا من توفيق الله، وأن تكون نظرتك صائبة، فهذا من توفيق الله، وأن تملك الرؤيا الصحيحة، هذا من توفيق الله، وأن تملك الرأي الصحيح، هذا من توفيق الله، لأن الله إذا أراد إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لب لبه، وخفاء الحق، الحق خاف عن العاصي، يرى الباطل حقاً والحق باطلاً، فمن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام: " اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ".

وفساد القلب، القلب فيه أمراض، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

(سورة الشعراء)

من نتائج المعصية:

١ ـ خمول الذكر:

من نتائج المعصية خمول الذكر، الله عز وجل يرفع عبده المؤمن قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

أن يعطيك الله مكانة، أن يلقي محبتك في قلوب الخلق، هذا من نتائج الطاعة، أما الإنسان حينما يعصي الله يصبح خامد الذكر.

٢ ـ إضاعة الوقت:

ومن نتائج المعصية إضاعة الوقت، الوقت ليس فيه بركة، ليس فيه إنجاز، موضوعات تافهة جداً، يضيع فيها الوقت، قضايا سخيفة، يستهلك الوقت، خطأ طفيف يهدر به أيام عمل عشر ساعات، لا يوجد في الوقت بركة، في الوقت المحدود الإنجاز قليل جداً، أما المؤمن فيبارك له في وقته، ففي وقت قليل يقدم إنجازاً كبيراً.

٣ ـ نفرة الخلق:

العاصي ينفر الخلق منه لأسباب لا نعلمها، إذا أحبّ الله عبداً ألقى محبته في قلوب الخلق، وإذا غضب على عبد ألقى كراهيته في قلوب الخلق، بلا سبب الناس يكرهونه، بلا سبب الناس ينفضون عنه، لذلك ما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة.

٤ ـ الوحشة بين العبد و ربه:

المعصية من نتائجها وحشة بين العبد وربه، حجب، الطريق غير سالك، الخط مع الله مقطوع، يقرأ القرآن لا يشعر بشيء، يصلي لا يشعر بشيء، يذكر لا يشعر بشيء، هناك حجاب، وأكبر عقاب يعاقب به الإنسان أن يحجب عن الله عز وجل، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

٥ ـ يدعو فلا يستجاب به:

ومن إجابة الدعاء، يدعو فلا يستجاب له، هذه نتائج المعصية التي سببت مقدوراً مكروهاً من إجابة الدعاء.

٦ ـ قسوة القلب:

لا يرحم، لا يرحم الضعيف ولا الفقير، ولا المسكين، وعلامة البعد عن الله القلب القاسي، وعلامة القرب من الله القلب الرحيم، ومحق البركة في الرزق والعمر، لا بركة، دخل كبير، وإنفاق أكبر، دخل كبير، وإنفاق غير حكيم.

٧ ـ حرمان العلم و لباس الذل:

الإنسان إذا ارتكب معصية حجبه الله عن العلم.

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نـــور و نور الله لا يهدى لـعاص

***

٨ ـ ضيق الصدر:

في قلب المعرض عن الله عز وجل ضيق لو وزع على أهل بلد لكفاهم.

٩ ـ الابتلاء بقرناء السوء:

إذا كنت مع الله التف حولك المؤمنون، وإذا كان الإنسان مع الشيطان التف حوله الشياطين، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب، ويضيعون الوقت، قرين السوء عبء عليك، يأخذ منك ولا يعطيك، يضيع وقتك، يحببك في الدنيا، يبغضك في الطاعة، لئيم، ليس وفياً، يأخذ منك، وعند الضيق يتخلى عنك، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

[ورد في الأثر]

أكبر نعمة، وأكبر عطاء أن يكون الذين حولك على شاكلتك، وأكبر عقاب أن يكون الذين حولك متناقضين معك.

١٠ ـ طول الهم و الغم وضنك المعيشة وفساد البال:

من قصر بالعمل ابتلاه الله بالهم، هموم تركبه، هموم تجعل الدنيا مسودة في عينيه، وضنك المعيشة وفساد البال، المعيشة الضنك المعيشة الشقية، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه الآية: ١٢٤)

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥))

(سورة محمد)

صلاح البال من نعم الله الكبرى، تتولد هذه كلها من المعصية والغفلة عن ذكر الله، كما يتولد الزرع عن الماء والإحراق عن النار.

الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها هي الجهة الصانعة:

أيها الأخوة، كلمة أخيرة، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، وسبحانك يا رب ! إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

(سورة السجدة)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

كل الخير والتوفيق، والحكمة والفلاح، والنجاح والتفوق، والذكاء والعقل بطاعة الله، لأنك لو أطعت الله أطعت الصانع، والجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها هي الجهة الصانعة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٠٦-٣٦) : مصائب آلت إليها الأمة من الإعراض عن الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

للمؤمن عدو يقاتله ومنافق يبغضه و مؤمن يحسده و نفس ترديه و شيطان يغريه:

أيها الأخوة، ورد في الأثر أنه لا بدّ للمؤمن من عدو يقاتله، ومن منافق يبغضه، ومن مؤمن يحسده، ومن نفس ترديه، ومن شيطان يغريه.

ابن القيم رحمه الله تعالى وسع هذا النص، وأعطاه تفصيلات عديدة، فقال: " كيف يَسلمُ من له زوجة لا ترحم، وولد لا يعذر، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوىً مُرْدٍ، وشهوة غالبة، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستول عليه، فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى الله عنه، ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه، فكان الهلاك ".

هذا الموضوع ينقلنا إلى ما هو أكبر منه، الذي هو أكبر منه أن الله عز وجل يقول:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦))

(سورة إبراهيم)

إله عظيم يصف أن مكر الكفار يزيح الجبال عن أماكنها، وهذا شيء مستحيل ، لكن لبيان عظم مكرهم

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

ثم في آية أخرى:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا (١٢٠))

(سورة أل عمران الآية: ١٢٠)

فلابد للمؤمن من عدو يقاتله، ومن منافق يبغضه، ومن مؤمن يحسده، ومن شيطان يغويه، ومن نفس ترديه، فإذا اتجه إلى الله عز وجل أبطلت هذه كلها.

من أعرض عن الله عز وجل وقع في مشكلات لا تعد و لا تحصى منها:

١ ـ زوجة لا ترحمه و ولد لا يعذره:

كيف يسلم من له زوجة لا ترحم ؟ الآية الكريمة:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ (١٤))

(سورة التغابن الآية: ١٤)

تضغط عليه، وتضغط عليه، وتجعل حياته جحيماً إلى أن يستجيب لها، ويمد يده إلى المال الحرام كي يرضيها، ثم يهلك وتهلك معه، كيف يسلم من له زوجة لا ترحم ؟

بالمقابل أيها الأخوة، إنصافاً للحقيقة، واللهِ عدد كبير من أخوتنا الكرام سبب هدايتهم زوجاتهم، عدد كبير، الزوجة جنة أو نار، إما أن تعينك على طاعة الله وتحصنك، وإما أن تكون سبب هلاكك. كيف يسلم من له زوجة لا ترحمه وولد لا يعذره ؟ الزواج كما ورد مجبنة مبخلة مشغلة، أحيانا تكون الأسرة سبب سعادة الإنسان، والزواج يضاعف سيره إلى الله، وأحياناً يتزوج الإنسان فينتهي عند الله.

٢ ـ جار لا يأمنه:

وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، الإنسان أحياناً يتلقى الأذى من جيرانه دون أن ينتفعوا إطلاقاً، والله أعرف أخاً ابنه في سن الزواج، وتاقت نفسه للزواج، وعنده بيت في وجيبة داخلية، بيته أرضي، وإلى جانب هذا البيت دكان له، أغلق الدكان، وجعل هذه الدكان غرفة نوم، وبنى لابنه بمساحة تقدر مترين بمتر حماماً ومطبخاً، الجار الذي في الطابق الأعلى اشتكى عليه، وهُدم هذا الحمام، مع أنه لم يحجب الشمس عن أحد، داره أرضي، فهذا الجار لا يأمنه، والمشكلة الآن الجار يتفنن في إيذاء جاره، يتفنن في إزعاجه، وجار لا يأمنه.

٣ ـ صاحب لا ينصحه:

وصاحب لا ينصحه، يراه ضالاً فيزيده ضلالاً، يراه تاركاً صلاة فلا يذكر له الصلاة إطلاقاً.

٤ ـ شريك لا ينصفه:

وشريك لا ينصفه.

صدقوا أيها الأخوة أن كل هذه المشكلات هي أعراض لمرض واحد، هو الإعراض عن الله.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣))

(سورة مريم)

يؤذي دون أن ينتفع، يوقع الأذى بالآخرين، ويتلذذ بذلك، وشريك لا ينصفه.

٥ ـ عدو لا ينام عن معاداته و نفس أمارة بالسوء و دنيا متزينة:

وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، يضعف أمامها، ودنيا متزينة، ودققوا في هذه الآية:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ (٢٤))

(سورة يونس الآية: ٢٤)

ذكرت لكم من قبل أن في الخليج فندقاً أجرة الليلة الواحدة من اثني عشر ألف دولار إلى خمسة و ثلاثين ألفاً الليلة الواحدة.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا (٢٤))

(سورة يونس الآية: ٢٤)

هذا عصر تألُّه الإنسان، الإنسان القوي اليوم متألّه.

((الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني منهما شيئاً أذقته عذابي ولا أبالي))

[رواه أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة ابن ماجة عن ابن عباس]

٦ ـ هوى مردٍ و شهوة غالبة و مادية مقيتة:

وهوىً مردٍ، وشهوة غالبة.

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه]

مادية مقيتة، يبيع دينه وآخرته بعرض من الدنيا قليل، اليوم

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً))

الجنس:

حضرت مؤتمراً في دمشق، وقال أحد الإعلاميين الكبار في المؤتمر: إن المسلمين استبدلوا كلمة اقرأ بكلمة ارقص، بدلاً أن يقرؤوا الآن يرقصون،

((وَهَوًى مُتَّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

عندئذٍ:

((الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك))

[أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عمر بن عمرو بن العاص]

أي أقرباؤك، جيرانك، زملاؤك الذين تثق بهم:

((وعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة))

٧ ـ غضب قاهر وشيطان مزين وضعف مستولٍ عليه:

وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستولٍ عليه، فإن تولاه الله، وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلَّ الله عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه حتى تهلكه.

من أعرض عن تحكيم كتاب الله و سنة رسوله عُرّض لفساد في فطرته و ظلمة في قلبه:

أيها الأخوة، من وفاء النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك ؟ قال: لا أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان، القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم ؟ قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً، ولا يجدون))

[ورد في الأثر]

أينما تلفت المعصية في رابعة النهار، وفي الطريق، والتحدي لدين الله في كل مكان.

أيها الأخوة: النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنة نبيه))

[رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

فلما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة، والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما ـ الحياة معقدة، هذا عصر العلم، عصر الانفتاح، عصر التقدم، المرأة نصف المجتمع ـ وعدلوا إلى الآراء، والقياس، والاستحسان، وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، هذا الكلام قاله ابن القيم في عصره، فكيف لو عاش معنا، ورأى ما رأى، هذا الكلام قيل في عصر ابن القيم، لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة، والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء، والقياس، والاستحسان، وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم.

اتصلت بي أخت وسألتني، عندهم ولد متبنًّى، عمره خمسة عشر عاماً، فلئلا يكون هناك حرج في سكناه مع زوجة الذي تبناه، هل يجوز أن ترضعه في هذا السن كي يكون ابنها من الرضاعة ؟ هكذا جاء السؤال والله.

سؤال آخر: إن ابنتي عندها زجاجة خمر غالية جداً، هل لها أن تهديها إلى غير مسلم ؟ وهي صاحبة دين ؟! فتاة صاحبة دين عندها زجاجة خمر غالية جداً، هل لها أن تهديها إلى غير مسلم ؟!. وأنا كنت أقول: قيم روحية، ومشروبات روحية، وروحية بروحية، هذا عصر الاختلاط، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم، حتى ربى فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكراً.

((كيف بكم إن لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قال: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ ـ هنا المشكلة ـ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً ؟))

[علل ابن أبي حاتم]

أجر القابض على دينه في هذه الأيام مضاعف لكثرة الفتن المنتشرة:

إذا خدمك إنسان تشك فيه الآن، ما مقصده ؟ إذا تقرب إنسان إلى الله لخدمتك تفكر تفكيراً آخر، تظن أنه يدبر لك مؤامرة، ليوقعك في فخ،

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟))

قال:عندئذٍ قام المجتمع، وقامت فيه البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل ، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم ، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصار هذا المجتمع مجتمعاً شارداً عن الله، عندئذٍ بطن الأرض خير للمسلم من ظهرها.

والله أحياناً أقول: ما من أمنية للمؤمن المستقيم إلا أن يموت على الإيمان، وانتهى الأمر، ليس هناك خبر سار للمسلمين، عندئذٍ بطن الأرض خير من ظهرها، وقمم الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحوش أسلم من مخالطة البشر، أن تخالط الوحش في الغابة أسلم من أن تخالط البشر. أيها الأخوة:

((وإذا كانت أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

((إذا كانت أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

لكن الأجر في هذه الأيام مضاعف.

سلامة الرجل من الفتن أن يلجأ إلى بيته و إلى مسجده:

لذلك:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ (١٦))

(سورة الكهف الآية: ١٦)

ما الكهف ؟ بيتك ومسجدك، الآن سلامة الرجل من الفتن أن يلجأ إلى بيته، وأن يلجأ إلى مسجده، والحياة يا أخوان كالمسرحية، فيها خشبة مسرح، وفيها أماكن للمشاهدين، فالإنسان المستقيم له مكان مع المشاهدين، يرى ويسمع، وعش رجباً ترى عجباً، وإن لم يكن مستقيماً جُر إلى خشبة المسرح، وأصبح قصة للآخرين، وقد قال الله تعالى:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (٤٤))

(سورة المؤمنون الآية: ٤٤)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٠٧-٣٦) : فرغ خاطرك من الهم بما أمرت به ولا تشغله بما ضمن لك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ما ضمنه الله لك و ما طلبه منك:

أيها الإخوة الكرام، من حِكم ابن القيم رحمه الله تعالى: " فرغ خاطرك من الهم بما أمرت به ولا تشغله بما ضمن لك ".

يعني أن اهتمامك وتفكيرك وجهدك وسعيك لتكن هذه جميعاً بما أُمِرتَ به من معرفة الله، وعبادته، والعمل الصالح، " ولا تشغله بم ضمن لك، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان "، فما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً.

مثال على ما ضمنه الله لك و ما طلبه منك:

القضية خطيرة جداً، معظم الناس مشغولون أشد الانشغال، بل يقعون في المعاصي والآثام من أجل شيء ضمن لهم، وينسون، ويغفلون عن علة وجودهم في الدنيا، وعن غاية وجودهم، وقد ذكرت في لقاء سابق أن طالباً في مدرسة داخلية مكلف بشيء واحد، هو أن يدرس، له قاعة مطالعة، فيها مكتبة عامرة، فيها جو هادئ، فيها تكييف، فيها إضاءة جيدة، وهناك وجبات غذائية من أعلى مستوى تقدم في الأوقات الدقيقة، هو ترك مهمته الأساسية وهي الدراسة، وتفقد المطبخ من حين لآخر، وسأل عن جاهزية الطعام، وعن نوع الطعام، وعن مكونات الطعام، ومتى سيقدم الطعام، وما الكمية التي سيقدم بها الطعام ؟ هذا طالب أحمق، انشغل بما ضمن له، وترك ما كلف به.

ماكلفنا الله به:

فأنت في الدنيا مكلف بعبادة الله، مكلف بمعرفته، مكلف بطاعته، مكلف بالعمل الصالح، والدنيا ضمنت له، لكن أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما تريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

مثال على ما ضمنه الله لك:

أيها الإخوة الكرام، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، فتأمل حال الجنين، يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحدة هي السرة، علاقته بالغذاء من طريق واحدة هي السرة، فإذا خرج من بطن أمه، وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقان اثنان، وأجرى الله له فيهما رزقاً أطيب وألذ من الأول، لبناً خالصاً سائغاً، قطعت السرة، وجاء الثديان، فإذا تمت مدة الرضاع، وانقطعت الطريقان بالفطام فتح الله له طرقاً أربعة أكمل منها، طعامان وشرابان، فالطعامان من الحيوان، والنبات والشرابان الماء واللبن، وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ، فإذا مات، وانقطعت عنه هذه الطرق الأربع فتح الله له سبحانه وتعالى إن كان سعيداً طرقاً ثمانية هي أبواب الجنة الثمانية، من طريق واحد إلى طريقين، إلى أربعة إلى ثمانية.

جزاء التسليم فيما أراد الله:

أيها الإخوة الكرام، هناك حديث قدسي لا تستطيع إذا قرأته إلا أن يقشعر جلدك

((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأنَا أكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[البخاري]

أعد الله لك بعد الموت حياةً لا توصف، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: الآية ١٦٩]

بكل ما في هذه الكلمة من معنى،

(عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

[سورة يس: الآية ٢٦]

لذلك المؤمن حينما يأتيه ملك الموت يأتيه بأحب الأشخاص إليه، فإذا رأى مكانه في الجنة يقول: لم أر شراً قط، ينسى كل ما سيق له من مصائب،

جزاء عدم التسليم فيما أراد الله:

وأما الكافر إذا رأى مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، ويقول: لم أر خيراً قط، قد يكون في دنياه غارقاً في الملذات والنعم، لذلك في بعض الأحاديث الشريفة:

((ألا يا رُبّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكره))

[الجامع الصغير بسند ضعيف]

الدنيا طريق للأخرة:

والبطولة لمن يضحك آخراً، يولد الإنسان وكل من حوله يضحك، وهو يبكي وحده، فإذا وافاه الأجل كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده، أحياناً إنسان تكون تنتظره سعادة لا توصف إذا أمضى حياته في طاعة الله، وفي القرب من الله، وفي خدمة الخلق، وأنا أقول لكم أيها الإخوة الكرام، وأعدت هذا القول مرات ومرات: إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين، أو إضلالهم، أو إفسادهم أو إذلالهم أو إبادتهم فأنت من سعداء الدنيا والآخرة، إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، وإذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون غنياً، لأن خيارات القوي والغني في العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، أما إذا كان طريق القوة سالكاً على حساب دينك وقيمك فالضعف وسام شرف لك، وإذا كان طريق الغنى سالكاً على حساب مبادئك ودينك وقيمك فالفقر وسام شرف لك، العبرة أن يأتي الموت وأنت عابد لله، مطبق لأمره، ثابت على مبادئك وقيمك.

حقيقة الدنيا:

أيها الإخوة الكرام، الرب سبحانه وتعالى لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه، وأنفع له، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، فما من شيء يأخذه الله منك إلا يعوضك خير منه في دينك ودنياك، لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسية الصحيحة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ

تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[مسلم]

أي أن الله حينما يأخذ من المؤمن بعض صحته يعطيه أضعافاً مضاعفة من القرب.

معنى العطاء و المنع:

ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع انقلب المنع عين العطاء، وإذا كنت في العناية المشددة، ويضيق عليك، وتحاسب على كل كلمة، وكل نظرة فاعلم أنك من المقربين، وأنك في العناية المشددة، وإذا كنت في أعلى درجات القوة والدنيا بين يديك، ولم يكن الله راض عنك فهذا أكبر عقاب يناله الإنسان من الله، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام: الآية ٤٤]

لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه، وأنفع له،

((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[البخاري]

لذلك من حكمة الله عز وجل أنه قد يصيب الإنسان في خريف عمره متاعب كثيرة، هذه المتاعب لها هدف تربوي، أن ينزع من قلبه حب الدنيا، وأن يتعلق بالآخرة، الله عز وجل يمنع عبده المؤمن الحظ الأدنى الخفيف، ولا يرضى له إلا بالحظ الأعلى النفيس، يمنعه الحظ الأدنى الخسيس، ويعطيه الحظ الأعلى النفيس، كطفل يلهو بالرمل، يؤخذ منه الرمل، ويعطى له اللؤلؤ، وفرق كبير بين الرمل واللؤلؤ، لكن العبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وما ادخر له، لذلك ورد في بعض الكتب أن إنساناً يحب أكلة نفيسة، فإذا قال له الطبيب: هذه الأكلة ينبغي أن تمتنع عن تناولها، يا نفس، لو منعتِ من أكلة تحبينها من قِبل طبيب لا شك أنك تمتنعين عنها، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذا منعك الله عز وجل من شيء، وحرم عليك شيء، وأنت لا تعبأ، وتقترف هذا الشيء، ويأتي طبيب يحمل شهادة عالية، يقول لك: إياك والملح، إياك والمواد الدسمة، إياك وهذه الأكلة، فإنها قاتلة، تمتنع فجأة، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أن تخشى إنساناً، ولا تخشى خالقاً، أنت تثق بتوجيه إنسان، ولا تثق بتوجيه خالق الأكوان، إذاً ما أكفرك، أيكون وعد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلكِ، فالذي يعصي الله يدمغ بالجهل وبالكفر.

جهل الإنسان:

والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه، وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وما ادخر له، أحياناً ملِك يطلب من معلم أن يعلم ابنه، الملك في ذهنه أن يعطي هذا المعلم بيتًا كبيرًا، ومركبة فارهة، ملك كل شيء في ملكه، هذا المعلم أُفُقه ضيق جداً، طالب الابن بالأجرة، قال: كم تريد على الدرس ؟ قال: ألف ليرة، قال: هذه ألف، ملك سيعطيه بيتاً ومركبة، وهذا الإنسان طلب أجرة، فلما يعمل الإنسان عملاً صالحاً، ويطلب عليه أجراً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة، فهذا العبد جهل ما أعد الله له، وطمع في الدنيا، بل هو مولع بحب العاجل، وإن كان دنيئاً، وبقلّة الرغبة في الآجل، ولو كان علياً، الآية الكريمة:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: الآية ٢٧]

احتقاراً لهم:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: الآية ٢٧]

ولو أنصف العبد ربه، وأنى له بذلك لعلم أن فضله عليه فيما منعه منه في الدنيا، لعلم أن فضل الله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه منها، كلام دقيق، فضل الله علينا فيما منعنا من الدنيا أكبر بكثير من فضل الله علينا فيما أعطينا، قد تعطى الدنيا، وتكون سبب الهلاك، لذلك الله عز وجل يعطي الدنيا لمن يحب، ولمن لا يحب، هل كان يحب فرعون ؟ آتاه الملك، هل كان يحب قارون ؟ آتاه المال، والملك آتاه أيضاً سيدنا سليمان، وآتى المال سيدنا عثمان، هذه الدنيا ليست مقياساً، لا تكريماً ولا عقاباً، وما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، وما امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه من هذه الدار إلى دار أخرى إلا ليتأهب منها للقدوم عليه، وليسلك الطريق الموصلة إليه:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً)

[سورة الفرقان: الآية ٦٢]

أيها الإخوة الكرام، من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

[الترمذي]

يجب علينا معرفة حقيقة الحياة:

هذه قضايا أيها الإخوة الكرام خطيرة جداً في حياتنا، يجب أن نعرفها، لأننا إذا عرفناها جاءت حركتنا في الحياة صحيحة، أحياناً تكشف لك الحقيقة فينعكس المقياس، كراكب دراجة، وأمام طريقين، طريق نازل رائع معبد محفوف بالأشجار، وطريق صاعد ترابي فيه أكمات عقبات، وفيه صخور، كل معطيات الواقع تدعوك إلى الطريق النازل، المنطق والذكاء، والوضع والبيئة، والواقع والمعطيات كلها مع الطريق النازل، لوحة صغيرة يشار فيها إلى أن هذا الطريق النازلة تنتهي بحفرة مالها من قرار، فيها وحوش كاسرة، وجائعة، وأن الطريق الصاعد تنتهي بقصر منيف، فيه ما لذ وطاب، هذه اللوحة الصغيرة ألا تعكس القرار ؟ تعكسه مئة في المئة، فالإنسان حينما يعرف الحقيقة يسلك الطريق الذي يراه الناس غير سليم، لذلك قالوا: إن لم تتهم بالجنون من المجانين فلست مؤمناً، والمجنون من عصى الله.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، هذه الفائدة هي في الحقيقة مقياس لنا جميعاً، قال ابن القيم: " الجاهل يشكو الله إلى الناس ".

حقيقة الشكوى لغير الله:

وهذا غاية الجهل بالمشكوّ والمشكوّ إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال: " يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك "، وقد قال الشاعر:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

لمجرد أن تشكو الله إلى الناس فهذا مقياس الجهل، لأن الله هو أرحم الراحمين، وبيده كل شيء، لماذا الشكوى لغير الله ؟

وقال لك:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: من الآية ٦٠)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))

[متفق عليه]

الله عز وجل عرض نفسه علينا، قال لك: لك مشكلة ؟ عندك سؤال ؟ عندك حاجة، تحب أن تتوب؟ تحب أن تستغفر ؟ أنا جاهز، وأنت في الصلاة تقول: سمع اللهم لمن حمده، يعني أنا أسمعك يا عبدي، الله عز وجل ينتظرنا: " يا داود، لو علم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف بالمقبلين؟".

الذي قال: أنا ربكم الأعلى.

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

(سورة طه)

فكيف بالذي قال: سبحان ربي الأعلى ؟ والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سور القصص الآية: ٣٨)

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

فكيف بالذي قال: لا إله إلا الله ؟.

((للهُ أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

هو ينتظرك، ينتظرك ليسعدك، ليكرمك، ليسلمك، ليرحمك، الجاهل يشكو الله إلى الناس، إنسان لئيم، ضعيف، فقير، جاهل، تشكو الله إليه ؟! فالجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذه غاية الجهل، بالمشكو والمشكو إليه، غاية الجهل بالله، وبالناس، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم،

شكوى الأنبياء:

ماذا قال سيدنا يعقوب ؟

(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة يوسف الآية: ٨٦)

الشكوى إلى الله و الشكوى على الله:

ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: " يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ".

بالمناسبة: قيل: من شكا إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن شكا إلى كافر فكأنما اشتكى على الله.
ما مِن موقف أغبى، ولا أحمق من إنسان مؤمن يشكو إلى كافر ربه، مناسبة ذهبية ليشمت به، مناسبة ذهبية ليقول له: ألم أقل لك دعك من طريق الإيمان، كله متاعب ؟ لو شكا مؤمن إلى كافر تضييقاً من جهات معينة لقال له: نصحتك فيما مضى، ليس لك مصلحة أن تكون مؤمناً، أو ديّناً، ما أجد موقفًا أصعب من أن يشمت كافر بمؤمن، كيف يشمت به ؟ حينما يشكو الله إليه:

وإن شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف بالله إنما يشكو إلى الله وحده،

(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

الإله هو معك، يرى كل شيء، ويسمع كل شيء، ويعلم كل شيء، وقد لا تحتاج أن تشكو. ورد، ولكن هناك من يقول: النص غير صحيح: ألك حاجة يا إبراهيم ؟ قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي.

إذا كنت في كل حال معي فعن حملي زادي أنا في غنى

فالعارف بالله إنما يشكو إلى الله وحده.

اشكو إلى الله نفسك لأنها سبب البلاء:

هناك مرتبة أعلى وأعرف العارفين ممن جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، لأنه يعلم علم اليقين أن الناس لا يسلطون عليه إلا بذنب منه، لذلك من الأحاديث الجامعة المانعة الموجزة، والله كأنه جمع علم الأولين والآخرين:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

[ورد في الأثر]

هناك أقوياء، هناك طغاة، هناك وحوش، هناك ثعابين، هناك عقارب، هناك غرق، هناك حادث سير، المصائب لا تعد ولا نحصى، أما لو كنت متحققاً فلا تخاف من كل هذه، ولا من الطغاة، ومن الأقوياء، ولا من القناصين، ولا من المخادعين، ولا ممن يحقدون عليك ولا ممن يملكون أمرك، لا تخاف إلا من ذنبك، ذنبك يسبب كل هذا، وحوش كاسرة مفترسة، لكنها مربوطة بأزمّة قوية، بيد جهة، هذه الجهة بيدها هذه الوحوش، وهي جهة عادلة رحيمة، علاقتك معها لا مع الوحوش، فإن أرضيتها منعت عنك الوحوش، وإن لم ترضها أرخت لهم الحبل فوصلوا إليك، والدليل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ورد في بعض الآثار القدسية:

((أنا الله، لا إله إلا أنا، مالك الملوك، وملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة، فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع، أكفكم ملوككم))

[رواه الطبراني عن أبي الدرداء]

الحَجّاج قتلُ رجلٍ أهون عنده من قتل ذبابة، طاغية، جبار، له إيجابيات لها مكان آخر، الحسن البصري قام بأمانة العلم فبيّن، فلما بلغ الحجاج أن الحسن البصري بيّن، ونال منه استشاط غضباً، وقال لجلسائه: يا جبناء، يقوم عبد في البصرة فينال مني وتسكتون ؟ والله لأروينكم من دمه يا جبناء، كلمة واحدة، أمر بقتله ـ قتل سعيد بن جبير تابعي ـ أمر بقتله، وجاء بالسياف، ومد النطع، وهو في مجلسه، وحوله كبار معاونيه، وقال: ائتوا بالحسن البصري، جاؤوا بالحسن البصري، لما دخل إلى مجلسه، ورأى السياف واقفًا، والنطع قد مدّ على الأرض لئلا يؤذي دمه الأثاث، حرك شفتيه، ولم يدرِ أحد ماذا قال، فإذا بالحجاج يقول له: تعال إلى هنا يا أبا سعيد، وما زال يقربه، ويقربه حتى أجلسه على سريره، وقال: يا أبا سعيد، أنت سيد العلماء، لكن دخل الحسن البصري بهيبة العالم، بهيبة المتصل بالله، بهيبة المتوكل على الله، فما زال يقربه حتى أجلسه على سريره، وسأله في موضوع وأجابه، وعطره، وضيفه، وقال: يا أبا سعيد، أنت سيد العلماء، وشيعه إلى باب المجلس، الذي صعق الحاجب والسياف، تبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لتقطع رقبتك، فما الذي حصل ؟ قال له: حينما دخلت حركت شفتيك، ماذا قلت لربك ؟ قال له: قلت له: " يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم ".

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

(سورة طه)

ماذا أقول لكم، هناك طغاة، الطاغية قتلُ الإنسان أهون عليه من قتل ذبابة.

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

فالعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله لا من الناس، ولكن من نفسه، لأنه يعلم علم اليقين أنه:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)

(سورة الشورى الآية: ٣٠)

وما أصابك من سيئة فمن نفسك.

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١٦٥)

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

قبل أن تشكو حاسب نفسك:

يا أيها الإخوة، قبل أن تشكو، قبل أن تضجر، قبل أن تلعن زيداً أو عبيداً، قبل أن تندب حظك قل: ماذا فعلت مع ربي حتى أستأهل هذا الذي أصابني ؟ كن جريئاً مع نفسك، لا تحابِ نفسك، لا تجعلها فوق الخطأ، لا بد من شيء فعلته حتى استوجب أن يتسلط زيد عليك أو عبيد.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية: ١٤٧)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

لذلك المؤمن الراقي أو العارف بالله، أو أعرف العارفين لا يشكو الناس إلى الله، يشكو نفسه إلى الله، بناء على هذا أنا حينما أدعو في الصعوبات، وفي النوازل، وفي البلاء أقول: يا رب، انصرنا على أنفسنا حتى ننتصر لك، حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا، كن عالماً، كن موضوعياً، كن جريئاً، لا تخلط، الله عز وجل خلقك ليسعدك، ما خلقك ليعذبك، ولكن الله رحيم، يسوق هذه الشدائد كي نتوب إليه، كي نعود إليه، كي نصطلح معه.

لذلك العارف بالله، أو المؤمن يشكو ـ دققوا ـ يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، الله عز وجل في آيات كثيرة، وكثيرة جداً يبين أن المصيبة سببها الإنسان، شرد عن الله، أخطأ، تكلم كلمة قاسية، أنت على الشبكية ترى مصيبة.

أحدهم عنده أخت عانس، مصيرها عند أخيها، وزوجة أخيه قاسية جبارة ، والأخ جاهل، ترضيه، وتبالغ في الإساءة إليها، مرة والأخ جالس على أريكة، وأخته جالسة على الأرض، فوكزها برجله، وقال: ائتِ لي بكأس ماء، وزوجته شابة وجالسة، قامت مسكينة مقهورة، الذي عنده بنت، وفاتها قطار الزواج إذا أمكن أن يهيئ لها بيتًا قبل أن يموت تعيش فيه مستورة مصونة مكرمة هذا من أعظم الأعمال، قد تكون زوجة الأخ جبارة، تتفنن في إيقاع الأذى بها، هذا ركب مركبته، وسافر إلى حلب، وقع له حادث سير، هُرست رجله اليمنى، وقطعت من أعلى الفخذ في ثاني يوم.

أنا ما رأيت أحمق ممن يتجبر في الأرض، ما رأيت أغبى ممن لا يدخل الله في حساباته اليومية، ما عبد الله بالأرض أفضل من جبر الخواطر .

والله لي أقرباء حدثوني أن شاباً خطب فتاةً وأعجبته، هذه الفتاة معها عرج ، والفرق بين كل رجل ٨ سانتيمتر، هي ذكية جداً، فارتدت ثيابًا سابغة للركبة، وهيأت حذاء الأول كعبه ٨ سانتي، والثاني صفر، فترمم الفرق بالحذاء والثياب سابغة، العرج اختفى ، يبدو أنها جميلة، فخطبت، متى كشفت ؟ يوم العرس، وله أم حاقدة، أمرته أن يطلقها فوراً، لأنها غشته، يبدو أن هذا الشاب لا يحب كسر

الخاطر، رضي بها، وأصر على أن تبقى عنده زوجة، وأحبها، يقسم لي أقربائي أنه خلال سنتين رزقه الله ما يزيد على مئة مليون.

أنا لا أقول: إن عملها صحيح، لا تظنوا أنني أؤيد عملها في غش الحقيقة، لكن الشابة كل هدفها في الحياة الزواج، دَرَسنا في علم النفس أن الحاجة إلى الأمومة هي الدافع الأول في الجنس البشري، لذلك ما من عمل أعظم عند الله من أن تشفع في زواج، أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح، ورد في الأثر: من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها عبادة سنة، قام ليلها، وصام نهارها.

ما من عمل أعظم من أن تدل شاباً مؤمناً على شابة مؤمنة، فهذه الأسرة في صحيفتك، السعادة، والوفاق، وجبر الخاطر، في هذه الأسرة في صحيفة الذي كان شفيعاً في هذا الزواج، وكلام الشيطان دعوه تحت أقدامكم، امش بجنازة ولا تمش بزواج، ما الذي يحصل ؟ تدل شابًا على شابة فيتزوجون، يعيشون ثلاث سنوات، أربع سنوات بأعلى درجات السعادة، يختلفون، يأتون إليك، لماذا لما كنتم متوافقين ثلاث سنوات ما نفد واحد منكم، ولا واحد قال له: شكراً، لما نشأت مشكلة سيدي أنت دللتني عليها، دبر نفسك.

لذلك عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ))

[الترمذي وابن ماجه]

((اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله كنت من أهله))

[رواة ابن النجار عن علي]

العارف بالله يشكو نفسه إلى الله، لا يشكو الناس، الناس بيد الله، فالذي يكرمك سمح الله له، والذي يقسو عليك سمح الله له، لذلك قال بعض العارفين: " أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي".

أحيانا الزوجة تحرن، يكون هو نفسه حارن أيضاً، الزوج نفسه فيه تقصير، فيه شرود، فيه تفلت قليل، ينعكس تقصيره على موقف غير كامل من زوجته، لذلك المراتب ثلاثة، أخسّها أن تشكو الله إلى خلقه، كتلة جهل، دعك بأدبك، لا تفضح نفسك، لا تشمت بك إنسانًا.

اجعل خطاً ساخناً بينك و بين الله:

بالمناسبة، لو شكوت إلى مؤمن أشفق عليك، لكنه ضعيف، ولو شكوت إلى كافر شمت بك، لذلك من الأدعية النبوية،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ))

[متفق عليه]

لذلك الإنسان يعمل خطًّا ساخنًا مع الله، يناجيه، يخاطبه، يعتذر، يستغفر، يعلن توبته، اللهم اقبل توبتي، اللهم آمن روعتي، اللهم أقلّ عثرتي، اللهم اغفر زلتي، كن في مناجاة مع الله، اسأله، اعتذر، اطلب السماح منه، عبر عن ضعفك أمامه، عبر عن محبتك له، كن في حوار بينك وبين الله، وهذا الحوار اجعله بينك وبين الله، ولا تحاور أحداً من الناس، كن قويًّا، بقدر ما يتذلل المؤمن لله بقدر ما هو عزيز على الناس، لا يتضعضع أمامك، لا يضعف، أحيانا يبكي رجل لمصيبة أمام الرجال، ابكِ بينك وبين الله،

لا تحزن على شيئ فاتك من الدنيا:

لذلك قال الفقهاء: من بكى في الصلاة ـ خطأ يبكي في الصلاة ـ من بكى في الصلاة حزناً على شيء فاته من الدنيا فسدت صلاته.

من أجمل ما قيل عن الصديق رضي الله عنه أنه " ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط ".

فليتك تحلو والحياة مــريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الـذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خـراب

إذا صح منك الوصل فالكل هي ن وكل الذي فوق التراب تراب

***

هذه الأنصارية التي بلغها أن النبي قد قتل في أحد، فهرعت إلى ساحة المعركة لا تلوي شيء، رأت أباها مقتولاً، قالت: ما فعل رسول الله ؟ رأت أخاها مقتولاً، قالت: ما فعل رسول الله ؟ رأت زوجها مقتولاً، قالت: ما فعل رسول الله ؟ رأت ابنها مقتولاً، فلما وقعت عينها على رسول الله قالت: يا رسول الله، كل مصيبة بعدك جلل، ما من مشكلة، امرأة تفقد أباها، وزوجها، وابنها، وأخاها، وتحرص على حياة رسول الله.

تبدل حال المسلمين و ما يجب فعله:

والله يا إخوان، الصحابة كان الواحد بمليار، والآن والله المليار بأف، وليس بواحد أف، استبدلوا أمر الله "اقرأ " بأمر ارقص، المسلمون لهم مساجد، يصلون، لكنهم في واد، والإيمان في واد آخر، لذلك:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

(سورة الكهف)

وأمرهم ليس إليهم، وكلمتهم ليست هي العلية، وللكفار عليهم ألف سبيل وسبيل، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، فالإنسان يا إخوان إذا أمكن أن يصلح المجتمع فهذه بطولة، وإن لم يمكن فليصلح نفسه، وليقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

(سورة المائدة الآية: ١٠٥)

إن استطعت أن تصلح الناس فأنت بطل، وإن لم تستطع، إن أصروا على الدنيا وعلى الاختلاط، وعلى الربا، وعلى الكسب الحرام، وعلى الكذب، وعلى النفاق فأصلح نفسك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٠٩-٣٦) : عشرة أشياء ضائعة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن النفس:

أيها الإخوة الكرام، يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: " كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي".

و يقول بعض العلماء الغربيين: " لم تبتل بعض أقدامنا ببحر المعرفة "، فإذا اقتربنا من موضوع الإنسان كل التقدم في كشف قوانين الجسم أما قوانين النفس لا نزال في البداية، لكن هذا لا يمنع من أن نكتشف قوانين النفس من خلال القرآن و حديث سيد الأنام.

الانطلاق من قوله تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

أي ما السنن التي تنتظم النفس البشرية ؟ من هذه السنن أنها تكتشف خطأها بذاتها:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا)

[سورة الشمس]

ذاتياً:

(فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: الآية ٨]

من هذه السنن أن: يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، و بغض من أساء إليها.

من هذه السنن، ألا ينتاب النفس لا حدود له من الخسارة، أو من الضياع ؟ كلاهما يصب في خانة واحدة، الإنسان إذا تاجر، و بذل جهداً خيالياً، ثم خسر يتألم أشد الألم، إذا ضيع سنداً مالياً بمبلغ فلكي، و ضاع المبلغ عليه يتألم ألماً بلا حدود، إذا اشترى أرضاً، و باعها بثمن بخس، ثم اكتشف أنه كان من الممكن أن يربح بها مئة ضعف يحترق قلبه من شدة الندم.

محور هذا الدرس أن الإنسان يتألم من الخسارة ألماً لا حدود له، و يلتقي مع الخسارة الضياع، وأكبر خسارة يمنى بها الإنسان إذا خسر الدار الآخرة، لذلك، يا رب، ماذا فقد من وجدك ؟ لم يفقد

شيئاً، و ماذا وجد من فقدك ؟ لم يجد شيئاً، لذلك ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الفوائد ذكر هذه الفائدة قال: " عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها "، شيء ثمين جداً، لكنك لم تنتفع به، لو أنه معك ورقة مالية، سند بمليون دولار، و قد وضع هذا السند على ظهره فظننته ورقة بيضاء، كتبت عليها كلمات لا معنى لها، ثم مزقته، و ألقيته في المهملات، ثم اكتشفت أن هذه الورقة البيضاء التي كتبت عليها كلمات لا معنى لها و ألقيتها في المهملات هي سند بمليون دولار، وأنت في أمسّ الحاجة إليه كم تتألم ؟

الآن لو كلفت بضريبة باهظة قد تأتي جلطة، لو أن الضريبة فوق ما ينبغي، أو لو أن الغرامة فوق ما ينبغي، كم من حادث الآن يصاب بخثرة في الدماغ فوراً، بسكتة قلبية فوراً، بسماع خبر سيئ. إذاً هذه النفس مجبولة و مفطورة على ألم لا حدود له من الضياع و الخسارة:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: الآية ١٥]

ما هي الأشياء العشر الضائعة التي يكتشف الإنسان بعد حين أنه خسر بها خسارة لا تعوض ؟

أولاً: " علم لا يُعمل به ":

و عالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

تعلموا ما شئتم فوالله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصف]

أيها الإخوة الكرام، أن تعلم شيئاً، و لا تفعله، و الفرق بينهما كأن تنطق بلسانك بكلمة مليون دولار، ولا تملكها، أما إذا طبقته امتلكت هذا المبلغ، إذاً مليار و ثلاثمئة مليون، ويوجد رأي، مليار وأربعمئة مليون إنسان مسلم في الأرض لا وزن لهم إطلاقاً، لأنهم يعرفون الأمر، ولا يفعلونه:

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة: الآية ٧]

الضال ما عرف، وانحرف، أما المغضوب عليه فهو الذي عرف، وانحرف.

أول شيء: " علم لا يُعمل به "، لو طبق المسلمون واحد بالمئة ألف مما يعملون لكانوا أقوى أمة في الأرض، لكن المعلومات في واد، و حركتهم في الحياة في واد آخر.

علم لا يُعمل به،

ثانياً: عمل لا إخلاص فيه:

الآن: " وعمل لا إخلاص فيه، و لا اقتداء "، أروع مثل شبهه الإمام الغزالي إنسان ذاهب إلى الحج، فحمّل دابته التي يركبها عشرات الأكياس من الرمل، لم ينتفع بها إطلاقاً، لكنها كانت عبئاً عليه، حمولة مرهقة ثقيلة متعبة أجهدت الدابة، و أجهدت من يركب الدابة، والمادة ليست نافعة إطلاقاً، عمل لا إخلاص فيه، ولا اقتداء، هذا البند الثاني.

ثالثاً: مال لا ينفق منه:

" ومال لا ينفق منه، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا، و لا يقدمه أمامه يوم القيامة "، المال إما أن تستمتع به، و إما أن يكون لك ذخرًا يوم القيامة، و من قدم ماله أمامه سره اللحاق به، لو أن إنساناً اتخذ قراراً مصيرياً بمغادرة بلده، لكن قبل أن يغادر باع كل أملاكه، و باع كل بيوته و مركباته، و جمع مكل ثرواته، و حولها إلى بلد أجنبي، الآن أمنيته الوحيدة أن يلحق بماله، و كل إنسان قدم ماله أمامه، أنفقه في سبيل الله يسره اللحاق به.

البند الثالث: " مال لا ينفق منه "، يقول لك: كلفني العرس ثلاثة وعشرين مليونًا، تطالبه بصدقة خمسة آلاف يقول لك: الوقت ضيق، ولا يوجد نقديات، يدفع على شهواته ونزواته الملايين، يأتي بفنانة لعرسه قبل أشهر، يفتخر في أي مكان جلس فيه أن هذه الفنانة أعطته سعراً خاصاً جداً، أربعين ألف دولار، مع أن قيمتها مئة ألف، مليونا ليرة تنفق في ساعة، وآلاف الشباب يتمنون غرفة يتزوجون فيها ؟

إن أمسك ماله أمسكه بخلاً وتقتيراً، و إن أنفقه أنفقه إسرافاً وتبذيراً، " ومال لا ينفق منه، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا، ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة "، ومشكلة البخيل أنه يعيش فقيراً ليموت غنياً. والله حدثني أخ له صديق إذا جلس معه يهم أن يعطيه مساعدة، فلما توفي ترك ملايين مملينة، من خلال حديثه وهيئته ووضعه قد يخطر لك أن تساعده، فلما مات وجد أنه في حوزته ملايين مملينة، فالمال الذي لا ينفق منه لا يستمتع به جامعه في الدنيا، و لا يقدمه أمامه إلى الآخرة. صار العلم لا يُعمل به، والعمل لا إخلاص فيه، والمال لا ينفق منه:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة: الآية ١٩٥]

رابعاً: قلب فارغ من محبة الله:

الآن: " قلب، لكن فارغ من محبة الله "، مستحيل أن تنهمر من عينه دمعة، دمعة خشية أو حب أو سعادة بالقرب من الله عز وجل، قلب فارغ ليس فيه أشواق، فيه دنيا، فيه سيارات، فيه مال، كل شهوات الدنيا في القلب، لذلك أهل الدنيا إذا جلسوا في مجلس علم يأتيهم نعاس لا يحتمل، ممكن أن يحدثك عشر ساعات بأمور الدنيا، بأسعار العملات، و البورصة، و الاستثمار عبر الإنترنت، عشر ساعات، عندما يجلس بمجلس علم لا يحتمل، يقول لك: يا أخي تعبان، وينام، "و قلب فارغ من محبة الله، و الشوق إليه و الأنس به ".

خامساً: بدن معطل من طاعة الله، و خدمة عباده:

الآن: " و بدن معطل من طاعة الله، و خدمة عباده "، أي يتحرك، يبذل جهداً، يعاون إنساناً، يستقبل إنساناً بوقت راحته، يعاون إنساناً بشراء حاجة، يجلس مع إنسان، يزور فقيرًا، و الله لا يوجد وقت، إذا دعاه الغني يلبي الدعوة فوراً، أما إذا دعاه فقير في أطراف المدينة فيعتذر دائماً، " وبدن معطل من طاعة الله، و خدمة عباده،

سادساً: محبة لا تتقيد برضاء المحبوب، و امتثال أمره:

و محبة لا تتقيد برضاء المحبوب، و امتثال أمره "، محبة فارغة، دعوى، كلام للاستهلاك، تعبير فارغ، ظاهرة صوتية:

تعصي الإله و أنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيـع

" علم لا يُعمل به، و عمل لا إخلاص فيه، و مال لا ينفق منه، و قلب فارغ من محبة الله، و بدن معطل من طاعة الله، و خدمة عباده، و محبة لا تتقيد برضاء المحبوب، و امتثال أوامره، و وقت معطل عن استدراك ما فرط صاحبه، أو اغتنام بر أو قرب من الله "، ممكن الساعة الثالثة بالليل يلعب طاولة، ممكن أن يتابع المسلسلات كلها، وينغمس في موضوع المسلسل، وأحياناً يبكي، لا ينقصه هموم، أما أن يجلس في مجلس علم، يقول لك: و الله أنا لا أرتاح بهذه الجلسة، أريد كرسيًّا، لا يقبل الإمام يقرأ كلمة زيادة، قرأ مدهامتان، قال له: أطلتها، مدهامة واحدة، مدهامتان بركعة واحدة ؟

" سابعاً: فكر يجول فيما لا ينفعه:

وفكر يجول فيما لا ينفعه "، تفكير، تدخل بمتاهات، أسعار العملات، أسعار السيارات، يتابع الأحداث السياسية بدقة بالغة، يملك تحليلات، و هو لا يملك أن ينطق بكلمة، هذه ظاهرة عجيبة بوجود الإخباريات المتعددة، و التحليلات، و المراسلين، تجده يتابع، و يتابع، أصبح موسوعة بالسياسة، و ليس يسمع منك حرفًا، ينشغل بشيء لا يقدم و لا يؤخر، الوضع صعب جداً، الأمة من أمرها لا تملك شيئاً، أنت فقط تتابع الأخبار إلى ما لا نهاية.

" ثامناً: خدمة من لا تقربك خدمته من الله:

وفكر يجول فيما لا ينفعه، و خدمة تقدم "، خدمة لكن لمن ؟ الخدمة من لا تقربك خدمته من الله، و لا تعود عليك بصلاح دنياك، خدوم لكن لأشخاص، مجير لشخص، و الإنسان لئيم أحياناً، تخدمه أربعين سنة يبوء بك، تخدمه عمرًا بكامله يتنكر لك، يخدم، خدوم صيغة مبالغة، لكن يخدم إنسانًا لئيمًا، لذلك قالوا: إما أن تكون عبداً لله، و إما أن تكون عبداً لعبد لئيم.

أعلمه الرماية كل يـوم فلما اشتد ساعده رماني

و كم علمته نغم القوافي فلمـا قال قافية هجاني

تاسعاً: خوفك و رجاؤك لمن ناصيته بيد الله:

الآن: " خوفك و رجاؤك لمن ناصيته بيد الله "، تخاف من إنسان، و هو عبد لله، و ترجو إنساناً، و هو عبد لله، الخوف منه لا معنى له، و الرجاء به لا معنى له.

تصور جنديًّا في جيش، والده قائد الجيش، جاء مساعد هدده، فكاد يموت من البكاء خوفاً منه ؟ والدك قائد الجيش كله، يوجد بعد عن الواقع بعداً شديداً، و خوفك هذا الخوف لا معنى له، و ضائع، و رجاؤك لمن ناصيته بيده، و هو أسير في قبضته، و لا يملك لنفسه حذراً، و لا نفعاً، و لا موتاً، و لا حياة، و لا نشوراً.

إذاً يوجد عندنا خوف ضائع، أن تخاف مما سوى الله، وعندنا رجاء ضائع، أن ترجو غير الله، لذلك الإنسان لا يليق به أن يكون لغير الله، فإذا كان لغير الله احتقر نفسه، أنت أكبر بكثير من أن تجير لإنسان، من أن تكون تابعًا لإنسان، من أن تكون بوقًا لإنسان، أنت لله، لا يليق بكرامتك إلا أن تكون لله.

عاشراً: إضاعة القلب، و إضاعة الوقت:

قال: " أعظم هذه الإضاعات إضاعتان، بل إن هاتين الإضاعتين تجمعان كل هذه الإضاعات: إضاعة القلب، و إضاعة الوقت ".

إضاعة القلب في إيثار الدنيا على الآخرة، و من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، وإضاعة الوقت من طول الأمل، والله الذي لا إله إلا هو كنت مدرساً في التعليم الثانوي، و نشأت معي ساعة فراغ فجأة، لأن الطلاب أخذوا إلى مادة التدريب على الرمي، فأين أمضي هذه الساعة ؟ قلت: أمضيها عند المدير، المدير صديقي، جلست عنده ساعة درسية خمسين دقيقة، حدثني حديثاً طويلاً ممتعاً بالنسبة إليه، ماذا سيفعل في العشرين سنة القادمة ؟ قال لي: أولاً: أنا وافقوا لي على أن أكون معاراً إلى الجزائر، هذا كان نظام الإعارة في التعليم، يعطى ضعف راتبه، قال لي: سأبقى هناك خمس سنوات، و لن آتي إلى الشام في هذه الخمس، قال لي: سوف أمضي الأربع عطل صيفية، قال لي: عطلة في فرنسا، عطلة في إسبانيا، عطلة في إنكلترا، و عطلة في إيطاليا، قال لي: أريد أن أتعرف إلى هذه البلاد، وإلى متاحفها، و إلى معالمها السياحية، و إلى آثارها، هو اختصاصه فلسفة متفوق، قال لي: بعد هذه السنوات الخمس سآتي إلى الشام، و سأقدم استقالتي، و سأشتري محلاً تجارياً لأبيع به التحف، قال لي: هذه لا علاقة لها بالتموين، و لا يصيبها عطب، وأجعل من هذا المحل التجاري منتدى فكريًّا لأصدقائي، أولادي يكبرون يديرون هذا المحل، و أنا أطل عليهم من حين إلى آخر، والله تابع الحديث خمسين دقيقة، و أنا أعجب من هذا الأمل البعيد، وانتهى اللقاء، و ذهبت إلى البيت، و في مساء ذلك اليوم اضطررت أن أصل إلى مركز المدينة، و قررت أن أعود إلى البيت مشياً من أجل الرياضة، و أنا في الطريق قرأت نعوته في اليوم نفسه والله، فإضاعة الوقت بطول الأمل، كل إنسان يوجد بباله آمال تحتاج إلى أربعين سنة، ثلاثين سنة، يكون كفنه قد نسج، وقبره حفر، بقي التنفيذ ؟

قال: " و أعظم هذه الإضاعات إضاعتان، هما أصل كل إضاعة، إضاعة القلب، و إضاعة الوقت، فإضاعة القلب في إيثار الدنيا على الآخرة، و إضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى و طول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى، والاستعداد للقاء الله عز وجل ".
الذكاء كل الذكاء، و العقل كل العقل، و الفلاح كل الفلاح، و النجاح كل النجاح، والتفوق كل التفوق في اتباع الهدى، و الاستعداد للقاء الله عز وجل.

ولا يوجد أعقل من إنسان يستعد لساعة لابد منها هي ساعة الموت:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصف: الآية ٢]

الآية الكريمة:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: الآية ٢]

و أختم هذا الحديث أيها الإخوة الكرام بأن طالباً نال الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية سئل: ما أسباب التفوق ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي طوال العام، و الآن أكبر واحد ينجح فينا هو الذي لا تفارق لحظة الموت، و السؤال من قبل الله: لماذا فعلت ؟ لماذا قطعت ؟ لماذا وصلت ؟ لماذا أعطيت ؟ لماذا منعت ؟ لماذا غضبت ؟ لماذا لم تغضب ؟ لماذا طلقت ؟ لماذا فعلت ما فعلت ؟ أنت حينما تفكر دائماً كيف سأجيب الله عن هذا العمل، تكون من الفالحين.

إذاً أعظم إضاعتين إضاعة القلب وإضاعة الوقت، وإضاعة الوقت هو الموت، و إضاعة الوقت من المقت، فأسأل الله سبحانه و تعالى أن ينجينا من إضاعة القلب، وإضاعة الوقت.

قال: " العجب من تعرض له حاجة "، نشأ عنده مشكلة فيصرف رغبته و همته إلى الله ليقضيها له، و لا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل، و الإعراض، و شفائه من داء الشهوات و الشبهات.

إذا كانت القضية دنيوية، يصلي قيام الليل، و يلح في الدعاء من أجل أن تحل، وإذا كانت قضية متعلقة بقلبه، بصلاته، بإيمانه، لا يلتفت لها، لا يلتفت إلا إلى القضايا المادية.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٠-٣٦) : عشرة أشياء تحجب عن الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

القرب من الله هو العطاء الأكبر:

أيها الإخوة الكرام، الله جل جلاله الذات الكاملة، صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، الخالق المربّي المسيّر، هو الحقيقة الوحيدة في الكون، ولا حقيقة سواه، هو القوة المطلقة، هو الغني المطلق، هو الرحمة المطلقة، كل ما في الدين يدعو إلى القرب منه، وكل ما عند الشيطان يدعو إلى البعد عنه، لذلك أكبر عطاء إلهي أن يجعلك قريباً منه، وأكبر عقاب إلهي أن تكون محجوباً عنه.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

من هو الله:

هو المعطي وحده، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعز، هو المذل، هو الذي يؤتي الحكمة، هو الذي يملأ قلب المؤمن غنى، هو الذي يملأ قلب المؤمن أمناً، هو الذي يملأ قلب المؤمن رضاً، هو الخالق، هو الرزاق، هو المحيي، هو المميت:

(وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة المائدة)

عشرة أشياء تحجب عن الله

موضوع الدرس اليوم: بما أن أكبر عقاب يصيب الإنسان أن يُحجَب عن الله، فما هي الأشياء التي تحجب عن الله ؟ كما أنه هناك عشرة أشياء ضائعة، هناك عشرة أشياء تحجب عن الله.

العقيدة الفاسدة أكبر ما يحجب عن الله:

إن أكبر هذه الأشياء أن تكون العقيدة فاسدة،

الله قدر الكفر و المعصية

أنت حينما تستمع إلى من يقول لك: إن الله قدّر على الإنسان الكفر والمعصية قبل أن يُخلق، ثم جعله في النار خالداً مخلداً، قد لا تجرؤ بعقلك الواعي أن تقول كلمة، بل قد لا تجرؤ أن تهمس همساً، لكن عقلك الباطن يرى أن هذا ظلم كبير، ماذا فعلت ؟ هذه عقيدة فاسدة، من هذه العقيدة هناك آلاف العقائد الفاسدة، هذه تحجب عن الله إما بعقلك الواعي، أو بعقلك الباطن، لا يليق بإله عظيم أن يعذبنا من دون سبب، أن يخلقنا للعذاب، أن تكون حياتنا مشحونة بالمصائب، أن يموت أناس من الشبع، وأناس يموتون من الجوع، أنت حينما تفسد عقيدتك تحجب عن ربك دون أن تشعر، دون وعي منك، لكن حينما تستقيم عقيدتك، وحينما تعرف الحقيقة، تقرأ القرآن:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة)

لو تسأل عن معنى هذه الآية، هذه الآية تسبب بعقلك الباطن سوء ظن بالله.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

إن فهمت الآية على أن الله خلق الفجور في الإنسان، ثم يعاقبه عليه فعقلك الباطن يبتعد عن الله، لذلك قال بعض العلماء: إن العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، دون أن تشعر، قد تقرأ حديثاً ليس صحيحاً، أو حديثًا ضعيفًا، أو له تأويل آخر

عذاب شديد لمن ينسى القرآن لتقدم سنة

أن الإنسان إذا حفظ القرآن، ثم نسيه لتقدمه في السن فله عذاب شديد، لا ذنب له، هذا عارض سماوي، الإنسان مع تقدمه في السن ينسى، ماذا فعل ؟ لذلك هناك أناس يحجِمون عن قراءة القرآن، وعن حفظه خوفاً من أن ينطبق عليهم هذا الحديث الذي عليه إشكال.

عقيدة فاسدة دون تدقيق تؤدي للحجب عن الله

فأنت حينما تتلقى عقيدةً فاسدةً غير صحيحة، وتصدقها دون أن تشعر تبتعد عن الله.

الله غير عادل

لا تبتعد كثيراً، لو أن ابناً اكتشف أن الأب خصّ أحد أولاده بعطاء كبير، وحرم الباقين، هذا الابن قد يحافظ على أدبه مع أبيه، لكنه ابتعد عنه، وانسلخ عنه، لأن أباه لم يعدل.

فما لم تعتقد بالكمال المطلق لله عز وجل فلن تستطيع أن تقبل عليه، بل تبتعد عنه.

أحد الصحابة قال النبي له قبل معركة بدر: لا تقتلوا عمي العباس، فكر، قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه، وينهانا عن قتل عمه ؟ لم تستقم معه، لم يقنع بها، إلى أن اكتشف بعد حين أن عمه العباس مسلم، وهو عينُ النبي صلى الله عليه و سلم في قريش، ينقل له كل أخبار قريش، وكل قرارات قريش، وكل ما تخطط له قريش، فلو أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: عمي أسلم لا تقتلوه لكشف أمره، وانتهى دوره، لو أن عمه لم يشارك في الحرب لكشف نفسه، وانتهى الأمر، لو سكت النبي صلى الله عليه و سلم لقتَله أصحابه، لا يمكن أن يقول إلا هذه الكلمات: لا تقتلوا عمي العباس، بعد حين حينما علم هذا الصحابي الجليل أن عمه العباس مسلم، وكان عين النبي صلى الله عليه و سلم في مكة، وهذه قيادة عالية جداً، أن يكون لك إنسان في موقع العدو ينقل لك كل خططه، هذه أعلى مستوى في القيادة، يقول هذا الصحابي: ظللت عشر سنين أتصدق رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله صلى الله عليه و سلم.

لذلك حينما تتلقى عقيدة سيئة فاسدة، ولا تدقق، ولا تمحص، ولا تسأل، لعلك بعقلك الباطن تبتعد عن الله، وتحجب عنه، الإنسان يحب الكمال، يحب العدل، يحب الرحمة، يحب الإنصاف، يحب القوة، يحب الغنى،

مصير الناس بيد الأقوياء منهم

لمجرد أن تتوهم أن الأمر بيد زيد من كبار الطغاة في العالم، أو عبيد، أو فلان، أو علان، وهؤلاء الطغاة يتلذذون بتعذيب العباد وتدميرهم، وإفقارهم، وسحقهم، وهدم بيوتهم، إذا توهمت أن الله أوكل هؤلاء الطغاة بالتحكم في مصائر العباد دون أن تشعر تبتعد عن الله، وإنه من الظلم أن يجعل الله مصيرك مع إنسان قوي جداً، وحاقد جداً، ويبغضك جداً، ويتمنى إبادتك، هذا الكلام غير صحيح.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

أقول لكم: إن معظم ابتعاد الإنسان عن الله بسبب عقيدة فاسدة تسربت إليه والله ولم يدقق فيها، ولم يمحص، لذلك أول شيء يحجب عن الله عقيدة فاسدة، أو سوء ظن بالله، أو عقيدة فهمها فهماً خاطئاً.

الشرك:

الشيء الثاني الذي يحجب عن الله هو الشرك، دون أن تشعر لمجرد أن تعتقد أن هذه الجهة أمرك بيدها، وما تريد أن تفعل بك تفعل بك، دون أن تراجع، وهي لا تحبك، هذا وحده يحجب عن الله.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: ٥٤)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

أمْرك بيد الله، ولا أحد يستطيع أن ينهي حياتك إلا بإذن الله، ولا أحد يستطع أن يقطع رزقك إلا بإذن الله.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر الآية: ٢)

إذاً عقيدة فاسدة، وشرك بالله يحجبان عن الله.

البدع القولية:

الآن مجتمعنا الإسلامي مفعم بمقولات لا أساس لها من الصحة، لكن العوام يرددونها،

الله عز وجل يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس

يقول أحدهم: الله عز وجل يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس، هذا كفر بالله، يعني أن الله ليس حكيماً،

الله خلقنا للعذاب

يقول: سبحان الله ! الله خلقنا للعذاب، أيضاً هذه عقيدة ليست صحيحة، وعندنا مئات المقولات،

طاسات معدودة بأماكن محدودة

(طاسات معدودة بأماكن محدودة)، لا تعترض

الله قدر عليه المعصية

الله قدّر عليه شرب الخمر، لم يفعل شيئًا، لكن الله قدر عليه، ويضعه في جهنم، خلقه، وقدر عليه أن يعصيه، ويعذبه إلى أبد الآبدين،

نتيجة

لا يمكن أن تقبل على الله بهذه العقيدة، تبتعد عنه، أما هو فينتظرك أن تصطلح معه، " يا داود، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين ؟ ".

هو ينتظرك، فإن تقربت منه شبراً تقرب منك ذراعاً، وإن تقربت منه ذراعاً تقرب منك باعاً، وإن أتيته مشياً أتاك هرولة، و

((للهُ أفرَح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[رواه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة

هذه البدع القولية يجب أن تركلها بقدمك، لا أساس لها من الصحة، وهي تردد كثيراً،

الله لم يأذن له بالطاعة

تقول لأحدهم: لمَ لا تصلي ؟ فيجيبك بقوله: لم يَأذن الله بعد، ما هذا الكلام ! فلان ما شاء الله، كتب الله له الهداية، هو لا علاقة له إطلاقاً، ولا اختيار له إطلاقاً، الآن هو جيد جداً، لأن الله كتب له الهداية، فلان سبحان الله ! لم يأذن الله له أن يهتدي، ألغى لك اختيار الإنسان

إلغاء العمل و السعي

ألغى عمله، ألغى سعيه، يأتي إمام كبير ترك مئة مؤلف، وهو من كبار العلماء، من كبار المجتهدين، ملأ الدنيا علماً، رآه تلميذه في المنام، قال له: يا سيدي، ما فعل الله بك ؟ قال: والله لم ينفعنِي كل عملي، إلا أنني كنت أكتب في كتاب، فرأيت دُوَيْبَة، مخلوق لا يرى بالعين، نقطة صغيرة، فانتظرها حتى شربت من حبره، لهذا غفر الله له، يُحدِث لك اختلال توازن، كل هذه الدعوة الكبيرة، كل هذه الكتب، كل هذا الإخلاص، كله رُفض !؟

أو يوهمك أنه يمكن أن تعبد الله طوال عمرك، وأن تفنى في طاعته، ثم يكون المصير إلى النار، وقد تناصبه العداء، وتتفنن في إيذاء أوليائه، ثم يكون مصيرك الجنة، الدليل:

((فوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا))

[رواه الترمذي عن ابن مسعود]

هذا الحديث مستحيل وألف ألف مستحيل أن يكون معناه هكذا.

الله أغوى الشيطان

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي)

(سورة الحجر الآية: ٣٩)

معنى ذلك أن الشيطان مخلوق صالح جداً، لكن الله أغواه، هذه كلها تحدِث منعكسات للإنسان ليبتعد عن الله، فالعقيدة الفاسدة، والشرك، والبدع القولية تحجب عن الله.

الله فطرنا على حب الظلم

مثلاً: مرة في ندوة تلفزيونية قال لي المحاور: سبحان الله يا أستاذ:

والظلم من شيم النـــفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم

****

من شيم النفوس ؟! الله خلقنا نحب الظلم، كيف يحاسبنا إذاً ؟ يقول لك: الإنسان لئيم، كذا خلقه الله ؟

(أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم الآية: ٣٠)

فطرك أكمل فطرة، تقرأ عن سيدنا علي كلام لا أصل له ؟ المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها، أما النبي صلى الله عليه و سلم فيقول:

((فإنهن المؤنسات الغاليات))

[رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر]

((أكرموا النساء، ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم))

[رواه البيهقي عن أبي هريرة]

فالبدع القولية تبعد عن الله عز وجل،

البدع العملية:

وعندنا مئات البدع العملية، غني كبير ما صلى في حياته ركعتين، ولا التفت إلى القبلة، يموت، يقولون: رأيناه في المنام وجهه يفيض منه النور، ويلبس الأبيض، هذا الشيء يحدث اختلال توازن، ترك صلاة، شرب الخمر، غرق في المعاصي كلها، ورأوه في المنام يفيض وجهه نوراً، من قال لك ذلك ؟ بدع عملية، هذا الرجل الغني قضيته سهلة، نسقط عنه الصلاة، فيوصي أن ادفعوا لي كذا عن الصلوات كلها، فأنت تسمع كلامًا، وتجد أشياء تشكك في أحقية هذا الدين.

ما دخل على الدين من ضلالات أفسد الدين

والله أيها الإخوة، ولا أبالغ، كيف أن نبع بردى ماء عذب صافٍ زلال يتلألأ، وكيف أن مياه مصبه سوداء، الدين بدأ كالنبع، فأضيف له مما ليس منه، مِن بدع قولية، وبدع عملية، وعقائد فاسدة، فصار الدين غير مقبول عند الناس، يضاف إلى ذلك أنه كلما أحسنا الظن بإنسان يدعي أنه مؤمن فاجأك بخيانة، أو فاجأك بخطأ، أو فاجأك باحتيال، مثل هذا الإنسان أنا أراه في حق الدعوة إلى الله مجرماً، لأنه شكك في أحقية الدين، قال أحدهم: يا رب، دلني على شيخ صاحب دين، حينما لا يرى من يعمل في الدعوة بمستوى دعوته يبحث عن شيخ فيه تدين.

عندنا بدع قولية تحجب عن الله، وعندنا بدع عملية تحجب عن الله.

كبائر باطنة:

وعندنا كبائر باطنة، وهذه مهلكة، الكبر، الاستعلاء، هو فوق الناس، يعتد بماله، بأسرته، بوسامته، بحجمه، بقوته، هذه كلها كبائر باطنة، هذه لا توبة منها، هذه تحجب عن الله.

كبائر ظاهرة:

وعندنا كبائر ظاهرة، يشرب الخمر، مثلاً، يزني بمستوى أقل من الفاحشة الكبرى.

الصغائر:

الآن عندنا صغائر، هو مقيم على مئة صغيرة، وقد أَلِفها، هذه كلها تحجب عن الله دون أن يشعر.

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرتكم هذه، ولكن يطاع فيما تحقرون من أعمالكم))

[ورد في الأثر]

هذه الصغائر إذا كثرت اجتمعت فحجبت عن الله عز وجل، وكنت أقول دائماً: ثمة راكب مركبة على طريق، عن يمينه واد سحيق، فحرف المقود ٩٠ درجة فجأة، هذه الكبيرة على الوادي، وحرف المقود سنتيمترًا، وثبّته، بعد حين على الوادي، حرف المقود سنتيمتر مع الثبات، أو ٩٠ درجة فجأة، في النهاية المصير واحد، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لاَ صَغِيَرَةَ مَعَ الإِصْرَار، وَلاَ كَبِيرَةَ مَعَ الاسْتِغْفَار))

[رواه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس]

ففي حال الانحراف بتسعين درجة تعيد فجأة فتبقى في الطريق، والسنتيمتر الواحد إذا ثبت كان المصير إلى الوادي.

فساد العقيدة، والشرك، والبدع القولية، والبدع العملية، والكبائر الباطنة، والكبائر الظاهرة، والصغائر، هذه كلها تحجب عن الله.

التوسع في المباحات:

الآن: التوسع في المباحات، يعتني بالبيت، يمكن أن يموت ألف شخص، والبيت قائم، وقد أطلعني أخ على بيت بمنطقة في المصيف، شيء يأخذ بالألباب، لم يدع شيئًا إلا من أعلى مستوى، مساحات، وشرفات، وكسوة غالية جداً، بقي منظمًا، قال لأحد إخواننا: هيئ لي المنظم يوم الخميس، أنا يوم الجمعة أريد أن آتي إلى البيت، وأسكنه نهائياً، لم يأتِ، أخبره، فقيل له: توفى، هذا الذي يعتني بالمباحات، لا شربَ خمر، ولا قتل، ولا زنى، لكن كل وقته، وكل جهده، وكل إمكانياته لدنياه، يقف قلب الإنسان، كل هذا التعب انتهى.

الغفلة:

الآن: الغفلة عما خُلقت من أجله، يأكل ويشرب، ويتحرك، ويأتي إلى الدروس ، لكنه غافل عن سبب وجوده في الدنيا:

جئت من أين و لكني أتـــيتُ فرأيت قدامي طريقاً فمشيتُ

كيف جئت كيف أبـــصرتُ طريقي لست أدري ولــماذا

لست أدري لست أدري

***

الإنسان البعيد عن الله يميل إلى التشكيك في كل شيء، يقول لك: لا نعرف:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخاسرة عليكما

***

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

(سورة التكاثر)

إنه حجاب أهل الغفلة عن سر وجودهم وغاية وجودهم.

الإنشغال عن مقاصد الدين بالجزئيات:

الآن، آخر بند يحجب عن الله: الدين له مقاصد كبرى، في الدين صلة بالله، في الدين تضحية، في الدين بطولات، ندع كل هذا، ونعيش في جزئيات صغيرة جداً، لا تقدم ولا تؤخر، تدخل في متاهات الأرائِتيات، نتوقع حالات لا تحدث في المئة مليون عام مرة، نبحث عن حكم فقهي لها، شيء لا يصدق، إذا غرقنا في الجزئيات، ونسينا مقاصد الدين.

الصحابة فتحوا العالم، ورفرفت راياتهم في المشرق والمغرب، فيمسخ الدين في آخر الزمان إلى أحكام فقهية احتمالية لا تقع في المئة عام مرة، دخل في فمه غبار، هل أفطر ؟ هل الغبار غذاء ؟ أشياء تخرجك من جلدك، نسينا مقاصد الشريعة، نسينا الصحابة الكرام الذين فتحوا العالم، نسينا الحب في الدين، نسينا التضحية، نسينا السعادة الكبرى، بقينا في جزئيات فقهية لا تقع في المئة عام مرة.

قال أحدهم: يا بنيتي، إن فلان خطبك، قالت له: والله نِعم الشباب يا أبتِ، فيقال: العقد باطل !!! لماذا هو باطل ؟ قال: لأن البنت إذنها صمتها، هي تكلمت، انتهى، العقد باطل !! هناك أشياء أقسم بالله لا تكاد تصدق، أصبح الدين معادلات رياضية، تعريفات، ونسينا أعظم ما في الدين.

لذلك أيها الإخوة، فساد العقيدة، والشرك، والبدع القولية، والبدع العملية ، والكبائر الباطنة، والكبائر الظاهرة، والصغائر، والتوسع في المباحات، والغفلة عن سر وجودك، والغرق في الجزئيات، هذه كلها تحجبك عن الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١١-٣٦) : إذا قسا القلب قحطت العين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

موت القلب العقاب الأكبر

القلب الموصول بالله قلب رحيم

أيها الإخوة الكرام، ما من عطاء إلهي يفوق أن يكون قلبك سليماً، وما من عقاب إلهي يزيد على أن يكون قلبك محجوباً عن الله، فالقلب الموصول قلب رحيم، والقلب المقطوع عن الله قلب قاس، وما ضُرب العبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، أكبر عقاب المرض العضال الذي ينتهي عند الموت، وقد يكون صاحبه من أهل الجنة، لكن أمراض القلب تبدأ عند الموت، وتهلك صاحبها إلى أبد الآبدين، أمراض الجسم تنتهي بالموت، فلان معه ورم خبيث، مات وانتهى المرض، يوجد جنة، يوجد آخرة، يوجد أبد، أما الذي معه أمراض في القلب فهذه مادام في الدنيا فهو مخدّر، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، أما حينما يلقى الله عز وجل تبدأ هذه الأمراض، الكِبْر، الاستعلاء، القسوة، اللؤم، هذه تهلك صاحبها.

مظاهر موت القلب

لذلك أيها الإخوة الكرام، حينما تذكر الله فلا تشعر بشيء، وحينما تصلي فلا تشعر بشيء، وحينما تقرأ القرآن فلا تشعر بشيء، فهذا مؤشر خطير جداً، أحياناً يؤخذ الضغط من قِبَل الطبيب، أنت تلاحظ علامات الدهشة على وجه الطبيب، ماذا ؟ اثنتان وعشرون درجة، ست عشرة، تجحظ عيناه، لأن الضغط هو القاتل الصامت، فلما لا يشعر الإنسان بشيء الإنسان لا تنهمر من عينه دمعة، ولا يتحرك قلبه، وهو يقرأ القرآن، ويصلي، ويذكر فهذا مؤشر خطير جداً:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين: الآية ١٥]

الله عز وجل يعطي الإنسان الدنيا، تجارة رابحة، صحة جيدة، بيتًا رائعًا، مركبة فارهة، زوجة جميلة، لكنه محجوب عن الله، وقد يكون الوصل في أصعب الأمكنة في المنفردة، وقد يكون الوصل مع الفقر، وقد يكون الوصل مع المرض، وقد يكون الوصل مع متاعب الدنيا.



لذلك من علامات الوصل السكينة التي تسعد بها، و لو فقدت كل شيء، و تشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، وإن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خَلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

فما ضُرب العبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، والبعد عن الله، وقد خُلِقت النار لإذابة القلوب القاسية، قد يبني مجده على أنقاض شعوب، قد يبني حياته على موتهم، قد يبني أمنه على خوفهم، قد يبني عزه على ذلهم، قد يبني غناه على فقرهم، أما إذا جاء الموت بدأ العقاب لذلك، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله، أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه.

الذي يتمتع بقلب سليم هو الفائز الوحيد

هل تصدقون أيها الإخوة الكرام، أن الذي يتمتع بقلب سليم هو الفائز الوحيد من بين بني البشر ؟

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء]

مظاهر حياة القلب

والقلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله، وسلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، وسلم من تحكيم غير شرع الله، وسلم من عبادة غير الله، أبعد القلوب عن الله القلب القاسي، فإذا قسا القلب قحطت العين، قلب كالصخر لا يبكي إطلاقاً، أنى له أن يبكي ؟ لذلك قالوا: لو كان ثمة ابتهال إلى الله، أو مديح لرسول الله صلى الله عليه و سلم، أو مناجاة مع الله، فهذه الأناشيد، أو

وتلك الابتهالات، أو وهذه المناجاة هي مصباح كمصباح علاء الدين، أو يكشف لك عن كنوزك المخبوءة في أعماق نفسك، أو ولكنها لست بالكيس المملوء الذي يفرغ في الخزائن الخاوية، إنسان يجلس في مجلس فيه مديح للنبي الكريم، أو فيه ابتهال إلى الله، أو فيه مناجاة، ترى الحاضرين بعضهم قلبه قاس كالصخر، يتململ، لا يتأثر، لا تدمع عينه، وإنسان آخر يكاد يذوب من البكاء، لأن هذه المناجاة، وهذا الابتهال، وهذا المديح حرك كنوزه التي في قلبه، أما الذي ليس عنده كنوز فلا يتحرك به شيء.



سأضرب مثلا: لو أن امرأة عاقراً قرأت قصة عن امرأة عاقر، والقصة طويلة، وأحاسيس المرأة العاقر وآلامها وقلقها وخوفها من أن تطلق، وافتقارها إلى ولد يملأ حياتها بهجة وسعادة، هذه المرأة العاقر حينما تقرأ قصة عن المرأة العاقر يمكن أن تبكي مئات المرات، لأن هذه القصة عزفت على أوتار قلبها، أما التي عندها عدد من الأولاد العاقين تقرأ هذه القصة فلا يمكن أن تدمع لها عين، لذلك الذي يملك مع الله تجربة كما يقال، له علاقة مع الله، له اتصال بالله، له أعمال طيبة، له تضحية، هذا حينما يسمع الابتهالات يبكي، والله أحياناً حينما يسمع الأذان فقط يكاد قلبه يذوب، وإذا سمع القرآن وجل قلبه، واقشعر جلده، فأنا أتمنى أن تكتشف الحجاب قبل فوات الأوان، قد يكون القلب محجوباً، إن اكتشفت الحجاب قبل فوات الأوان عالجته، أما إذا اكتشفت الحجاب عند لقاء الله عز وجل فالمشكلة كبيرة جداً، قال تعالى:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر]

إذا قسا القلب قحطت العين،

أسباب موت القلب

وقسوة القلب من أربعة أشياء، إذا جاوزت قدر الحاجة، الأكل والنوم والكلام والمخالطة.

كثرة الأكل

((مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ))

[الترمذي عَنْ مِقْدَام بْن مَعْدِي كَرب]

كثرة النوم

والنوم، هناك أوصاف قاسية جداً، كأنه دابة، ينام فلا يستيقظ.

كثرة الكلام

ومن كثر كلامه كثر خطؤه، دخل في الغيبة، والنميمة، والازدراء، والاستعلاء، والاستكبار، والقطيعة، والتباهي، عدّ بعض العلماء أكثر من عشرين مرضاً من أمراض الكلام.

المخالطة

والمخالطة، يلتقي مع من يشاء، يحدق فيمن يشاء، ولا سيما في النساء، ما عنده شيء ممنوع، هذا الذي يختلط مع من يشاء، ما عنده شيء محرم، يتكلم كيف يشاء، ينام إلى أن يمل الفراش، يأكل حتى التخمة، هذه الأشياء الأربعة تورث قسوة القلب.

كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فالقلب إذا مرض بالشهوات لم تنفع معه المواعظ.

ونار لو نفخت بها أضاءت و لكنك تنفخ في رمـاد
لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حيـاة لمن تنادي

***

من مات قلبه عن ماذا يُحجب؟

القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها

أيها الإخوة الكرام، بمنطلقي الدائم، الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، احذر قسوة القلب، القلب القاسي بعيد عن الله، لا يتأثر، لا يتأثر بمصاب الناس، مستعد أن يملأ بطنه من أنفس

الطعام، ويرى حوله الجائعين يتشوقون إلى لقمة ولا يتأثر أبداً، من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته.

الذي يميت القلب الشهوات، والذي يحييه الطاعات، القلب يكبر، ويكبر، ويكبر، ولا نرى كبره، فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر، ويصغر، ويصغر، ولا نرى صغره، فيتعاظم عليه كل حقير، من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته، القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها، وأحبُّ القلوب إلى الله أرقها وأصفاها، والقلب منظر الرب.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم]

قد يهبك الله شكلاً جميلاً، ولك ذوق رفيع في اللباس، وترتدي أجمل الثياب، بألوان متناسقة، وبنوع من أعلى مستوى، وعطورات من أغلى الأنواع، والقلب ميت متفسخ، وقد تكون فقيراً، ترتدي ثياباً متواضعة، ولك بيت متواضع، والقلب متأجج بمعرفة الله والشوق إليه، هؤلاء الذين حُجِبوا عن الله شغلوا قلوبهم في الدنيا، فأيّ حديث في الدنيا يطرب له ساعتين أو ثلاثًا، الحديث عن الرياضة، عن كرة القدم، عن أسعار العملات، عن الأبنية، عن الاستثمارات القادمة، عن، عن... تراه يصغي أمّا في قضية الاستقامة وقضية محبة الله يقول: خير، هذا إنسان مسكين، ما عنده إلا هذه الموضوعات، يملّ.

قال: " ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة، ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وأطراف الفوائد، إذا عزي القلب بالتذكر وسقي بالتفكر، ونقي من الفساد رأى العجائب وألهم الحكمة ".

القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن القرآن

أيها الإخوة الكرام، أنا مضطر أن أبيّن هذا البيان، أحياناً ـ بلا مواربة ـ تملّ من القرآن الكريم، تفتح، لا تجد رغبة، ولا انشراحًا، تريد أن تقرأ جزءًا، تقرأ صفحتين، ثم تختم بـ: صدق الله العظيم، هناك مشكلة كبيرة، لأن ثمة بعدًا عن الله، وتعلقًا بالشهوات، لذلك قال تعالى:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ)

[سورة فصلت: الآية ٤٤]

إذا تكلم أحدهم باللغة الفارسية الآن، والله لا يمكن أن تفهموا حرفاً واحداً، أنا سافرت إلى بلاد فارس، لا تفهم حرفًا واحد:

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الشعراء]

عربي ابن عربي، عربيته عالية جداً، معه دكتوراه في الآداب، فصيح متكلم، بليغ، أستاذ المادة الفلانية في كلية الآداب، يقرأ القرآن الكريم فلا يرى فيه شيئاً، فالقضية متعلقة بالقرب من الله، هذا القرآن الكريم يفهم بالقرب من الله،

(لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ)

لم يقل: لا يمسسه، لو أنه لا يمسسه لكانت (لا) ناهية، (لا) هنا نافية، (لا) الناهية من أمر الله التكليفي، أما (لا) النافية من أمر الله التكويني، يعني أن هذا القلب مقفل،

(لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ)

فمن غذي قلبه بالذكر، وسقي بالتفكر، ونقي من الفساد رأى العجائب، وألهم الحكمة.

القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن المعرفة و الحكمة

وقال: " ليس من تحلى بالمعرفة والحكمة، وانتحلها كان من أهلها ".

يمكن لإنسان بذكاء أن يطلع على بعض أقوال السلف الصالح، ويحفظها، وينقلها، لكنه بعيد عن مضمونها.

قال: " إن أهل المعرفة والحكمة أحيوا قلوبهم بقتل الهوى، وأما من قتل قلبه بالهوى فالمعرفة بعيدة عن قلبه ولسانه، وخراب القلب من الأمن والغفلة ".

هناك أمن ساذج، مطمئن، لا يخاف الموت، لا يخاف الدار الآخرة، لا يخاف عذاب الله، لا يخاف المسؤولية، الإنسان أحياناً سوف يسأله إنسان مثله، لا ينام الليل إنسان، لا تنام الليل من مساءلة إنسان، فكيف بمساءلة الواحد الديان ؟

إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة، وفي الحديث الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ))

حلاوة الإيمان تعني أن القلب حي، فما هي هذه الثلاث ؟

((مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه عن أنس]

أن يكون الله في قرآنه، والرسول صلى الله عليه وسلم في سنته أحب إليه مما سواهما عند التعارض،

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

هذه تحيي القلب.

" إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها موائد الآخرة ".

" من أحب دنياه أضر بآخرته ".

" الشوق إلى الله ولقائه نسيم يهب على القلب ".

" إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها ".

" من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح، ومن أرسله في الناس اضطرب واشتد به القلق، ولا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا لا يوجد محل ".

" ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ".

" إذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه "، قال تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[سورة طه]

لذلك سئل أحد علماء القلوب: كم الزكاة يا سيدي ؟ فقال: عندنا أم عندكم ؟ السائل تعجب، قال: ما عندنا وما عندكم ؟ أليس هناك دين واحد ؟ قال: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، ووقته وخبرته، وطلاقة لسانه وعلاقاته، وثروته لله عز وجل، والدليل: يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ قال: الله ورسوله، أعطى كل ماله لرسول الله، " فإذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه، واجتباه لمحبته، واستخلصه لعبادته، فشغل همه به، ولسانه بذكره، وجوارحه بخدمته.

القلب يمرض و يعرى و يجوع و علاجه

" القلب يمرض كما يمرض البدن، وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما يصدأ الحديد وشفاؤه بالذكر، قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: الآية ٢٨]

ويعرى كما يعرى الجسم، وزينته التقوى ":

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

[سورة الأعراف: الآية ٢٦]

إنسان جميل الصورة، وأنيق الثياب، و زان، وشارب خمر، وإنسان آخر الله ما أعطاه شكلا جميلًا، ما أعطاه مالا عريضًا، لكن أعطاه قربًا، لذلك لباس التقوى خير.

" ويجوع كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة، والتوكل والإنابة، والخدمة ".

لذلك هناك قلب كالجوهر، وقلب كالفحم أسود، قاسي كالصخر.

يا أيها الإخوة الكرام، لسيدنا عمر كلمة رائعة، يقول " تعاهد قلبك "، والعوام تقول أيضاً كلمة رائعة: الإنسان حكيم نفسه، يجب أن تعلم مستوى قلبك أهو موصول أم مقطوع ؟ هناك خط مع الله، ومناجاة، واستغفار، وإنابة، وبكاء، وشعور بالقرب من الله، ورحمة على من حولك، لمَّا يكون همُّ الإنسان المعاصر أن يعيش وحده، وأن يأكل وحده، وأن يستمتع وحده، فعلى الناس السلام.

أيها الإخوة الكرام، القلب قلب النفس، القلب المقصود فيه في هذا الدرس ليس العضلة الصنوبرية التي تضخ الدم إلى أنحاء الجسم، هذا موضوع آخر، قال تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)

[سورة الحج: الآية ٤٦]

القلب مركز النفس، كيف أن الدماغ ملك الجهاز العصبي، والقلب مركز النفس، قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: الآية ٢٨]

فالقلب يمتلئ محبة أحياناً، ويمتلئ ثقة بالله، ويمتلئ رضا عن الله، ويمتلئ محبة للخلق، وقد يكون بالعكس، لذلك الصلاة من أجل القلب، والصيام من أجل القلب، والحج من أجل القلب، والعمرة من أجل القلب، والزكاة من أجل القلب، كل أحكام الدين من أجل أن تلقى الله بقلب سليم، بقلب ليس فيه شائبة، ليس فيه غل، ولا حسد، ولا قلق، ولا خوف، ولا وجل، في قلوب المؤمنين من الأمن والراحة والسعادة ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: الآية ٢٨]

ما قال: تطمئن القلوب بذكر الله، لو قال كذلك لفُهم بمعنى آخر، وتطمئن بغيره أيضاً، لكن:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

أي أن القلوب لا تطمئن إلا بذكر الله، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ)

[سورة طه]

أي كنت في الدنيا أعمى، لذلك إذا كان هناك إنسان من آدم إلى يوم القيامة في القارات الخمس يسعد سعادة حقيقة وهو بعيد عن الله فهذا الدين باطل، مستحيل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: الآية ١٢٤]

كل السعادة، وكل التوفيق، وكل التفوق، وكل الفلاح، وكل النجاح في طاعة الله، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٢-٣٦) : مصالح النفوس في مكروهاتها وأسباب هلكتها في محبوبتها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الها تعالى.

يقول:

" مصالح النفوس في مكروهاتها، ومضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها "

الحب هو الميل، فلحكمة أرادها الله جعل حاجات الجسد محببة، وجعل منهجه العظيم متوافقًا مع فطرة النفس، فهناك حاجات للجسد، وهناك فطرة للنفس، ولحكمة بالغةٍ بالغة أراد الله أن تكون حاجات الجسد إلى حد ما متناقضة مع حاجات النفس،

الفرق بين حاجات الجسد وحاجات النفس ثمن الجنة:

وهذا التناقض بين حاجات الجسد وحاجات النفس هو ثمن الجنة، كيف ؟

طبْعُك يأمرك أن تنام، والجسم يحب النوم المديد، والنفس مكلفة أن تعبد الله، ومكلفة أن تستيقظ، وقد ينهض الإنسان من فراشه بصعوبة، والجسم يروق له أن يملأ عينيه من محاسن النساء، والنفس حينما توافق هذا الجسم تحجب عن الله، لذلك حينما تغض البصر عن محاسن النساء ترتاح النفس، وترقى إلى الله، فإطلاق البصر وغض البصر متناقضان، أحدهما تابع للجسد، الثاني تابع للنفس. النفس أُمِرت أن تنفق المال، وطبْع الإنسان يقتضي أن يأخذ المال، هذا تناقض آخر. الإنسان يرغب في الخوض في فضائح الناس، والتكليف يأمره أن يكف لسانه عن مشكلات الناس.

الميل الحسي و الميل العقلي:

يبدو من هذه المقدمة أن هناك ميلاً حسياً، وأن هناك ميلاً عقلياً، هذا الشيء توضح لي مرةً، أن طبيبًا جراح قلب قدم له طعام نفيس جداً، لكن دهونه كثيرة، فأبى، ثم قال: أنا أحب هذا الطعام حباً جمًّا، ولكن عملي في جراحة القلب، فكم أجد من شرايين قد سُدت من قِبل هذا الطعام، فلذلك يكره هذا الطعام كراهية عقلية.

ثمن الجنة هو إتباع الميل العقلي:

الآن نحن كمسلمين المعاصي محببة، شئنا أم أبينا، لكن الذي ذاق طعم القرب من الله يؤثر طاعة الله على حاجات الجسد فيرقى، هذا ثمن الجنة، لذلك الإنسان البعيد عن الله يحب بحواسه، ويكره بحواسه، ينساق مع هوى نفسه، ولكن المؤمن يحب بعقله، ويكره بعقله، ويستجيب لنداء فطرته فيرقى، فالقضية في النهاية أن هناك حاجات للجسم، وهناك حاجات للنفس، الجسم فانٍ، والنفس خالدة إلى أبد الآبدين، كلما كان التعامل مع ميلك العقلي كنت أرقى، وعندما يكون التعامل مع ميلك الحسي اقترب الإنسان من مستوى البهيمة ، البهيمة تتحرك بحواسها فقط، بينما الإنسان يتحرك بقيمه، ويتحرك أيضاً بمبادئه، لذلك مصالح النفوس في مكروهاتها.

ثمن النجاح في الدنيا هو إتباع الميل العقلي:

دعك من الآخرة، تعال إلى الدنيا، هذا الذي ارتقى في سلم اجتماعي، ونال شهادة كبيرة جداً عالية ونادرة، وله دخلٌ فلكي، هل وصل إلى هذا الشيء مع راحة الجسم ؟ لا ، بل بذل جهدًا كبيرًا جداً، كم استيقظ في منتصف الليل ليقرأ، كم ألغى لقاءات ونزهاتٍ كثيرة جداً ليدرس، فهذه الثمرة اليانعة التي قطفها في الأربعين ثمنها دُفِع في العشرينات، وهذا الذي مال إلى النوم، وإلى تأجيل الإنجاز، وإلى الراحة، والاسترخاء، دفع الثمن باهظاً في عقود حياته القادمة، بلا عمل، بلا دخل، بلا وظيفة، بلا شهادة، بلا زواج.

أيها الإخوة الكرام، بطولتك أن تحب بعقلك، وأن تكره بعقلك، الآن أحياناً يأكل الإنسان أكلا مناسبًا، يتمتع بصحة، يتمتع بلياقة بدنية عالية جداً، يتمتع بشكل مقبول، يتمتع بأناقة في اللباس، هذا مقابل ترك الطعام الطيب، فإذا انساق مع هوى نفسه، وأكل ما يشتهي عانى من متاعب في قلبه، وفي ضغطه، وفي شرايينه، فهذه القضية واضحة جداً، فإما أن تحب بعقله، وإما أن تحب بحسك، وكلما تدنى مستوى الإنسان، واقترب من مستوى البهيمية يحب بحواسه، ويكره بحواسه، وكلما ارتقى الإنسان إلى مستوى إنسانيته التي أرادها الله له يحب بعقله، ويكره بعقله.

بالمناسبة أيها الإخوة، الواقعية في الموضوع ضرورية جداً، مرة ثانية: المعاصي محببة، من ذاق طعم القرب من الله ضحى بهذه اللذائذ الطارئة الآنية المحدودة من أجل قرب من الله مستمر، لذلك قيل: ألا يا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا عارية جائعة يوم القيامة، وبالعكس، ألا يا رُبّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رُبّ مهين لنفسه، وهو لها مكرم، ألا يا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين.

أعظم ما في الإنسان عقله، وعقله هو الذي كلّف أن يختار بين البدائل، أنت مخير، وممد بقوة من الله عز وجل، وعندك بدائل، فحينما يهديك إلى الشيء الذي يرضي الله تكون أعقل العقلاء، وحينما يهديك عقلك إلى الشيء الممتع الحسي تكون أجهل الجهلاء، الدليل:

(إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

جهل ما عند الله من سعادة أبدية، وآثر لذة طارئة، وفي بعض الأقوال: ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

أناس كثيرون تزلّ أقدامهم إذا سافروا، يصابون بمرض الإيدز، هذا المرض يجر لأحدهم فضيحة في أسرته، وعند زوجته، وعند أولاده، ويجلب القلق، واليأس، والهم، إلى أن يموت، واللقاء الذي زلت به قدمه ساعة، ألا يا ربّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

أنا أعرف رجلا سافر الإنسان وفي هذه السفرة زلت قدمه، من أجل أن يخفي مرضه الناتج عن هذا الخطأ عن زوجته وأولاده بذل جهداً فلكياً، ثم كشف أمره، وسقط من عين الهه، وعين أولاده، ومن عين زوجته، ألا يا ربّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

فاجهد أيها المسلم أن تتعامل في الحب والكراهية تعاملا عقليًّا، واجهد أن تتوافق حركتك مع فطرتك.

الطبع و الفطرة و الصبغة:

الطبع:

عندنا طبع متعلق بالجسد، وعندنا فطرة، وعندنا صبغة

الفطرة:

الفطرة بين الطبع وبين الصبغة، الفطرة ليس معناها أنك خير، ولكنك تحب الخير، الفطرة ليس معناها أنك منصف، ولكن تحب الإنصاف، الفطرة ميل النفس إلى الكمال، وقد لا تكون كاملة، إلا أنها تميل إلى الكمال، الدليل: لو أن عصابة سرقت بيتاً كيف يقتسمون هذه السرقة، بالعدل، يقول له: اعدل، أنت كل عملك ما فيه عدل، يقول له: اعدل، لأن الإنسان ولو كان منحرفًا، ولو كان

مجرمًا يميل إلى الكمال، هذا الميل الذي فطره الله عليه هو الذي يعذبه إذا أخطأ، لو أن الإنسان لم يفطر هذه الفطرة لم يعذب أبداً.

مثلاً أقرب من ذلك: أنت مفطور على حب الروائح الطيبة، وتكره كراهية لا حدود لها الروائح الخبيثة، بينما الخنزير يتلذذ بأكل الجيف، وكأنها أنفس طعام، معنى ذلك أن ثمة حقيقة خطيرة، أنت مبرمج على الكمال، مولّف ومفطور ومجبول عليه، فإذا أخطأت نفسك وحدها تعذبك، وهذه هي الكآبة، وأكبر مرض نفسي الآن في العالم هو الكآبة، لأنك شئت أم أبيت، علمت أم جهلت أنت مبرمج وفق منهج الله، فإذا خالفته وأنت تجهل منهج الله، لكن نفسك مجبولة عليه تصاب بالكآبة، التي هي عقاب ذاتي للإنسان.

إذاً الفطرة ليس معناها أنك كامل، لكنك تحب الكمال،

الصبغة:

أما حينما تنعقد الصلة مع الله عز وجل تدخل في الصبغة، فتصطبغ بالكمال لإلهي.

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)

(سورة البقرة الآية: ١٣٨)

فبين الطبع والفطرة والصبغة، للصبغة صفات أصيلة ثابتة عميقة لا يمكن أن تزول، فالكريم كريم، لكن الذي نراه في العالم أن الذكي أحياناً ببراعة فائقة يمثّل، ويبدو لك أنه أخلاقيّ، مادامت مصالحه متوافقة مع هذا السلوك الذكي فهو أخلاقي، أما إذا هددت مصالحه فلا بد من أن ينقلب إلى وحش كاسر، وهذا نراه رأي العين، واضحاً جلياً عقب أحداث أيلول، هذه الحضارة، وهذا الرقي، وحقوق الإنسان والديمقراطية، والعدالة، وتكافؤ الفرص، والعولمة، هذه القيم الرائعة التي طرحت من قِبل الغرب تنكر لها أيّما تنكر، وسقط كحضارة، وبقي كقوة غاشمة.

عندنا استثناء، يمكن للذكي أن يسلك سلوك الأخلاقي ما دامت مصالحه متوافقة مع هذا السلوك، أما إذا هددت مصالحه انقلب إلى وحش كاسر.

الطبع يقتضي النوم، ويقتضي الفردية، وأن تستمتع بالحياة وحدك، ولا تعبأ بأحد ، ويقتضي النظر إلى النساء، ويقتضي أن تخوض في فضائح الناس، ويقتضي أن تنام، أما التكليف فمعاكس للطبع:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات)

ثمن الجنة هو التناقض بين الطبع والتكليف:

ثمن الجنة هو التناقض بين الطبع والتكليف، التكليف ذو كلفة، متعب، هناك ممنوعات، ومحرمات، ومنهيات، ومكروهات، لكن الصبغة هي قمة الكمال البشري ، حينما تتصل بالله عز وجل تصطبغ النفس بكمال الله، هذا الكمال غير الكمال الناتج عن سلوك ذكي، هذا الكمال أصيل لا يتبدل، لا بتحقيق مصالحك، ولا بتعطل مصالحك، ولا بإقبال الدنيا، ولا بإدبارها، ولا بالغنى، ولا بالفقر، ولا بالشباب، ولا بالكهولة، لذلك قالوا: ـ دققوا في هذه الكلمة ـ من أبرز علامات الإخلاص ألا تتأثر لا بمديح الناس، ولا بذمهم عملك هُو هو، وما دام العمل يتأثر، ويتبدل، ويتغير عقب الذنب والنكران فأنت لست مخلصاً، ومادام العمل لا يتأثر إطلاقاً لا بمديح الناس ولا بذمهم، ولا بإقبال الدنيا ولا بإدبارها، فهذه من علامات الإخلاص.

العمل لا يزيد أمام الناس، ولا ينقص وحدك في خلوتك، هذه علامة ثانية من علامات الإخلاص، المخلص عمله هو هوَ، لا يزيد في جلوته، ولا ينقص في خلوته، والمؤمن الذي اتصل بالله عز وجل عمله هُو هو، لا يزيد بالمدح، ولا ينقص بالذم، فمن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به. أيها الإخوة، قضية أن تفكر قبل أن تتحرك قضية مهمة جداً، لأن ساعة الندم لمن عصى الله آتية، وآتية لا محالة.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

الحقائق التي جاء بها الأنبياء تكسف لكل إنسان يلاقي ربه، مسلمًا كان أو غير مسلم، وثنيًا أو ملحدًا، عابد صنم أو بوذيًا، سيخيًّا أو هندوسيًّا، أي إنسان حينما يأتيه الموت يرى الحقائق، ولكن بعد فوات الأوان، وعلى قمة هذه القصص فرعون، حينما أدركه الغرق قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

امتحن نفسك بماذا تُحب:

إذاً امتحن نفسك، هل تحب بعقلك، أم تحب بحواسك ؟ إن أحببت بحواسك فهذا مستوى متدَنٍ جداً يقترب من البهيمية، أما إن أحببت بعقلك فإذاً تحب الطاعات، تحب إقامة الصلوات، تحب إيتاء الزكاة، تحب الصيام، تحب غض البصر، تحب ضبط اللسان، تحب فعل الخير، تحب العطاء، أما إذا عطلت عقلك تحب الراحة، تحب أن تأكل وحدك، أن تستمتع بالحياة وحدك، وهذا دليل البعد عن الله.

جنة الدنيا القرب من الله:

أيها الإخوة الكرام، تعليق صغير: من ظفر بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة، في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة، فإنه لا يزال راضياً عن ربه، والرضا جنة الدنيا، أن ترضى عن الله هي جنة الدنيا، دائماً الكافر ساخط على الله، دائماً يشكو، بينما المؤمن تعظم عند النعمة مهما دقت.

فلذلك أيها الإخوة، جنة الدنيا في القرب من الله، والقرب من الله في الرضا عن الله، والرضا عن الله يتأتى من أنك تحب بعقلك، وتكره بعقلك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٣-٣٦) : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون وبنهاره إذا الناس مفطرون

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، أورد ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الفوائد بعضاً من حكم ابن مسعود رضي الله عنه.

حياة المؤمن

الحكمة الأولى: " ينبغي لحامل القرآن أن يُعرَف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يغتالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً حكيماً، حليماً سكيناً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً، ولا صياحاً ولا حديداً ".

تميز المؤمن ليس فقط بعبادته

تلك الحكمة المتعددة منطلق لحقيقة كبيرة في حياة المؤمن، فما لم يكن المؤمن متميزاً على من حوله في استقامته، في حديثه، في علاقاته، في أمانته، في صدقه، في عفته، في وفائه، في رحمته، في إنصافه، فلن يكون مؤمناً كما أراده الله عز وجل، ولن يستطيع المجتمع أن ينمو في ظل مؤمن لا يميزه عمن حوله إلا عباداته، هذه لا تكفي، الناس لا يشدون إليك بعباداتك، يشدون إليك بمعاملاتك، لا يشد الناس إلى الدين إن رأوا إنساناً يصلي، ولكنهم يشدون إلى الدين إن رأوا إنساناً وفياً صادقاً، عفيفاً مستقيماً، وقافاً عند كتاب الله، كيف يقول الله عز وجل

(وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً)

[سورة النصر: الآية ٢]

وأي إنسان له مظهر ديني، أو يؤدي عبادات، ويكذب، ويحتال، ولا ينجز الوعد، ولا يتقن عمله، ولا يكون منضبطاً في مواعيده، هذا يجعل الناس يخرجون من دين الله أفواجاً.

المشكلة أيها الإخوة الكرام، أن أوسع شريحة في المجتمع لا تعرف الإسلام من مرجعياته، ولكنها تعرف الإسلام من سلوك المسلمين فقط، معظم العالم اليوم حينما يرى المسلم مقصراً متخلفاً فقيراً، لا يتقن عمله، يقدم تصريحاً كاذباً ليحتال، مثل هذا المسلم يحمل الناس على أن يخرجوا من دين الله أفواجاً، مسلم آخر يشد الناس بصدقه، بأمانته، بعفته، بورعه، بإتقانه لعمله، هذا الذي شد الناس إلى الدين.

المؤمن وهو صامت أكبر داعية إلى الله فكيف إذا تكلم ؟

جعلت من هذه الحكمة منطلقاً، الفرق بين المؤمن وغير المؤمن ليس فرق عبادات شعائرية تؤدى، ولكنها فرق معاملات صارخة كاملة تظهر، لذلك قالوا كلمة رائعة: المؤمن وهو صامت أكبر داعية إلى الله، وهو صامت، فكيف إذا تكلم ؟ لا يمكن أن يغش الناس، لا يمكن أن يكذب، لا يمكن أن يقسو، لا يمكن أن يحتال، لا يمكن أن يتجاوز حده، لا يمكن أن يستعلي، لا يمكن أن يتكبر.

فلذلك أيها الإخوة الكرام، وأنت صامت يمكن أن تكون أكبر داعية إلى الله، لأن صدقك دعوة، ولأن أمانتك دعوة، ولأن عفتك دعوة، ولأن إنصافك دعوة، ولأن رحمتك دعوة، ولأن إنجاز وعدك دعوة، ولأن وفاءً بعهدك دعوة، فإن أردتم لدوائر الإسلام أن تتنامى فطبقوا منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخلاقي، لأن الله عز وجل منحه القرآن الكريم ، ومنحه الوحي، ومنحه المعجزات، ومنحه طلاقة اللسان، ومنحه كل الخصائص التي تعين على الدعوة، قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى)

[سورة الأعلى: الآية ٦]

أما حينما أثنى الله عليه أثنى عليه بخلقه، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: الآية ٤]

فعلُ الأنبياء بالمجتمعات فعلٌ لا يصدق، وقوة تأثيرهم تفوق حد الخيال، هم بشر، وتجري عليهم كل خصائص البشر، لكن الذين حولهم رأوا العفة، رأوا السمو، رأوا الرفعة، رأوا التواضع، رأوا الزهد، فلذلك إن أردنا لدوائر الدين أن تتنامى، ولدوائر الباطل أن تضيق فلنكن على منهج النبي الأخلاقي.

كيف يكون المؤمن فتنة للكافر ؟

أيها الإخوة الكرام، ما من آية تحضرني في هذا الموضوع الدقيق والخطير كقوله تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: الآية ٥]

كيف يكون المؤمن فتنة للكافر ؟ المؤمن إذا قصر في أداء واجباته، أو إذا احتال، أو إذا أدى تصريحاً كاذباً، أو إذا أخلف وعده، أو إذا لم يفِ بعهده، أو إذا قسا في معاملاته، الكافر يعتد بكفره، ويرى أن كفره هو الصواب، من الذي أقنع الكافر بكفره ؟ المؤمن حينما رفع شعار الإسلام، وسلك سلوك المنحرفين، لذلك إن أردت لمبدأ أن تحطمه، أن تنهيه فارفع أفكاره، وأعلنها، وتحرك بخلاف

هذه الأفكار، وما من مذهب تعلن مبادئه، وتخالف هذه المبادئ في السلوك إلا ويسقط، ما الذي صرف الناس عن الغرب بعد الحادي عشر من أيلول ؟ أن كل القيم التي جاء بها الغرب، ونشرها في العالم في سلوكه اليومي في بلاد وصل إليها، كان هذا السلوك مناقضاً لكل قيمه التي طرحها فسقط، وما من شيء يخالف أتباعه مبادئه إلا يسقط هذا المبدأ.

كيف يقوى الإسلام؟

الآن الإسلام لا يقوى بإلقاء الخطب، ولا بإلقاء الدروس، ولا بتأليف الكتب، ولا بعقد المؤتمرات، الإسلام لا يقوى الآن أن يرى الناس مسلماً متحركاً، أن يروا صدقاً أمامهم، أن يروا ورعاً أمامهم، أن يروا عفة أمامهم، أن يروا وفاء عهد أمامهم، هذا الذي يقوي الإسلام، فلذلك: " ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً حكيماً، حليماً سكيناً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً، ولا غافلاً، ولا صياحاً ".

أيها الإخوة الكرام، هذه حكمة، وأنت قد لا تملك طلاقة لسان، ولا تملك علماً غزيراً تلفت به النظر، ألا تملك خُلقاً قويماً ؟ هذا الخلق القويم وحده يدخل الناس في دين الله أفواجا، وأنا ـ والله ـ أعلم أن أناساً كثيرين تابوا إلى الله، ورجعوا إليه بسبب موقف يلفت النظر من مؤمن، فقد يكون المؤمن داعية وهو صامت، فكيف إذا كان داعية وهو ناطق ؟ وبين أن يكون المسلم الذي تربى في بلد إسلامي منفراً وهو صامت، فكيف يكون منفراً وهو يتهجم على الدين ؟

المسلم متحرك ؟

نحن الآن أيها الإخوة الكرام في أمسّ الحاجة إلى مسلم متحرك، كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام من أدق أوصافه أنه قرآن يمشي، فالمسلم مسلم يمشي، هذه واحدة.

عدم تعظيم المرشدين مع عدم تطبيق منهجهم:

الشيء الثاني: يوجد حكمة ذكّرتني بقول عالم جليل من كبار العلماء، إنه عبد الله بن المبارك، دخل إلى مسجده، فرأى أناساً كثيرين، وقد التفوا حوله، فقال هذا الدعاء، و الدعاء منهج، قال: " يا رب، لا تحجبني عنك بهم، ولا تحجبهم عنك بي "، كيف ؟ الإنسان أحياناً يقوى بمن حوله على حساب قربه من ربه، والإنسان أحياناً يهتم اهتماماً بالغاً لانتزاع رضا إنسان، وينسى طاعة الرحمن، فقد يكون التابع مفتوناً، وقد يكون المتبوع مفتوناً، فلذلك ابن مسعود خرج ذات يوم فاتبعه أناس، فقال

لهم: " ألكم حاجة ؟ قالوا: لا، و لكن أردنا أن نمشي معك، فقال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع "، ارجعوا.

قد يكون لك مرشد، لك داعية، لك شيخ، لك مرجع، أنا أرى أن تطبيق منهج الله عز وجل هو الشيء الوحيد الذي يرضيه، أما تعظيمه من دون اتباع منهجه فهذا لا يرضيه، و لا يرضي الله عز وجل.

فالإنسان يكون بأعلى درجات الوفاء لشيخه إذا طبق منهجه، يكون بأعلى درجات عدم الوفاء إذا بالغ بتعظيم شيخه، وبالغ بمخالفة منهجه، والمديح لا يكلف شيئاً، لكن الذي ينهض بهذا الدين التطبيق، فأنت تكون وفياً لمن كان سبب هدايتك، تكون بأعلى درجات الوفاء إذا طبقت هذا المنهج، وانتفعت به، وانتفعت به أسرتك، وتكون بأعلى درجات عدم الوفاء حينما تمدح ولا تطبق.

الغنى:

يوجد نقطة ثالثة، يا ترى هل ينبغي أن أكون غنياً، أو أن أكون قوياً ؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ...))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

فلي كلمة، وهي أنه إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله فينبغي أن تكون غنياً، لماذا ؟ لأن الفرص المتاحة للغني في العمل الصالح كثيرة جداً، ما دمت في الدنيا من أجل العمل الصالح فالفرص المتاحة للغني ليرقى بعمله الصالح فرص لا تعد ولا تحصى.

والله أنا أغبط الأغنياء، لأنه بإمكانهم أن يصلوا إلى أعلى درجات الجنة بمالهم، يقيم ميتماً، يزوج شباباً، يؤسس بيوتاً لسكنى الشباب المؤمن، يرعى الأيتام، يرعى الأرامل، يؤسس معهداً شرعياً، يعمل مستشفى، يعمل مستوصف، يوزع حاجات ثمينة جداً على الفقراء، فالغني بإمكانه أن يصل إلى أعلى مراتب الجنة بماله فقط، مادامت الجنة بالعمل الصالح:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: الآية ٣٢]

لذلك الغني أمامه فرص للعمل الصالح لا تعد ولا تحصى،

الشرط الشرعي للوصول للغنى:

ولكن بشرط أن يصل إلى الغنى وفق منهج الله بالطرق المشروعة، أما إذا كان طريق الغنى على حساب دينه وقيمه فالفقر وسام شرف له.

القوة:

إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله عز وجل فيجب أن يكون قوياً، لأن القوي بجرة قلم يحق حقاً، ويبطل باطلاً، بجرة قلم يقر معروفاً، ويزيل منكراً، بجرة قلم يقرب مخلصاً، ويبعد منافقاً، بتوقيع، فإذا كان التوقيع يلغى به منكر، وتوقيع يُحق به حق إذاً ينبغي أن تكون قوياً،

الشرط الشرعي للوصول القوة:

ولكن بشرط أن يكون طريق القوة سالكاً وفق منهج الله، أما إذا كان طريق القوة على حساب دينك وقيمك فالضعف وسام شرف لك.

من تطاول تعظماً حطه الله

أيها الإخوة الكرام، ومن هذه الحكم: " من تطاول تعظماً حطه الله ".
الله عز وجل عنده عذاب مهين، وعنده عذاب أليم، وعنده عذاب عظيم، فلذلك: " من تطاول تعظماً حطه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله، وإن للملك لمة وللشيطان لمة ".
أنا أرى بحسب النصوص أن كل إنسان معه ملك، ومعه شيطان، المَلَك يدنو منه فيأمره بالخير، ويعده بالخير، والشيطان يدنو منه فيأمره بالشر، ويعده بالشر، وأنت مخير، فإما أن تستجيب للشيطان، وإما أن تستجيب للملك، فلا يستطيع الملك أن يجبرك، ولا الشيطان أن يجبرك، لكن الملك يلهمك، والشيطان يوسوس لك، وأنت مخير، فإما أن تستجيب للشيطان، وإما أن تستجيب للملك، فلذلك: " من تطاول تعظماً حطه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله، وإن للملك لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله، ولمة الشيطان إيعاد بالشر، و تكذيب بالحق، فإذا رأيتم ذلك فتعوذوا بالله عز وجل من الشيطان الرجيم ".
الحِكم
أيها الإخوة الكرام، قالوا في تعريف الحكم: إنها تجارب بشرية مكثفة جداً في كلمات قد تكون خبرة أجيال مضغوطة في كلمات، فموضوع الحكم موضوع دقيق جداً، ولعل هناك كتباً ألفت في الحكم، الحكم والأمثال، الحكم تجارب صادقة عميقة حية، تقدم لك في كلمات معدودة، أحياناً تقرأ قصة في ألف صفحة، هناك قصص مغزاها خمس كلمات، لذلك الإنسان كلما ارتقى في سلم المعرفة لا

يحتاج إلى تمييع الفكرة بألف صفحة، يأخذها مضغوطة بكلمات، والحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها التقطها، بل إن الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة: الآية ٢٦٩]

تجارب بشرية مضغوطة في كلمات، لكن حكم الرحمن وكلام الرحمن هذه من عند خالق الأكوان، هذه مطلقة في صحتها، مطلقة في نفعها، لذلك لو اعتمدنا الحكم التي في القرآن الكريم ، و تتبعناها لكنا من أفضل المتعلمين لأثمن ما في هذا الدين من حكم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٤-٣٦) : اطلب قلبك في ثلاث موطن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، لا زلنا في فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، وقد أورد ابن القيم في كتابه الفوائد بعض الحكم التي نقلت عن ابن مسعود رضي الله عنه، ومن هذه الحكم:

اطلب قلبك في ثلاثة مواطن

يعني تفحص قلبك في ثلاثة مواطن، والمؤمن يرعى قلبه، لأن أثمن شيء تملكه القلب السليم، بنص الآية الكريمة:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

أمراض القلب تبدأ بعد الموت

ولأن أمراض الجسد مهما تكن خطيرة فإنها تنتهي عند الموت، بينما أمراض القلب تبدأ بعد الموت، وتكون سبب هلاك الإنسان إلى أبد الآبدين.

" اطلب قلبك في ثلاثة مواطن، عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسأل الله أن يمن عليك بقلب، لأنه لا قلب لك ".

أعراض مرض القلب

يعني إذا ذكرت الله، ولم تشعر بشيء، وإذا صليت فلم تشعر بشيء، وإذا تلوت القرآن فلم تشعر بشيء، فابحث عن قلب، لأنه لا قلب لك، ورأس مالك عند لقاء الله القلب السليم، ذلك القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله، ومن تصديق خبر يتناقض مع وحي الله ومن تحكيم شرع غير الله، ومن عبادة غير الله.

علاج للقلب

أيها الإخوة، كعلاج لقلب ميت، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)

(سورة الكهف الآية: ١١٠)

يعني الاتصال بالله، وأن يكون القلب سليم، وأن يكون مفعماً بمحبة الله:

(كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ)

(سورة الكهف الآية: ١١٠)\

العمل الصالح طريق القرب من الله

يعني أنه لا يبتغي بهذا العمل أحداً إلا الله، لأن طريق القرب من الله العمل الصالح، لكن اجهد أن يكون الإخلاص ملازماً لهذا العمل.

الإخلاص شرط قبول العمل الصالح

أيها الإخوة له قواعد، من علامة إخلاصك أن عمل الصالح لا يزداد أمام الناس، ولا يقلّ في خلوتك، لأن الله معك، في كل وقت، وفي كل مكان، وفي كل زمان، ومن علامة إخلاصك ألا يزداد العمل بالمديح، وألا يقلّ بالذم.

أحياناً يكون الإنسان صالحًا، وله عمل طيب، يذمه الناس امتحاناً له، فإذا ترك العمل الصالح عقب هذا الذم كان هذا كشفًا لحقيقة إخلاصك.

مخاطر كبائر القلوب

إخواننا الكرام، كبائر القلوب لا يتوب الناس منها، لأنها متغلغلة في أعماقه، وهي كالمرض الخبيث، فليحذر الإنسان الكبائر الباطنة، الكبائر الظاهرة يسهل التوبة منها، كإنسان مقيم على معصية، والمعصية واضحة، واضحة عنده وعند غيره، لذلك قد يتصاعد شعوره بالذنب فينتهي بالتوبة، إلا أن الكبائر الباطنة هذه قلما يتوب الإنسان منها، لأن صاحبها يعتقد أنه على صواب،

بعض أنواع الكبائر الباطنة

المبتدع

يقال: المبتدع لا توبة له، ليس باب التوبة مغلقاً أمامه، لا، لكن قلما يتوب، هو لا يتوب، من هنا ينبغي أن نحذر من الكبيرة الظاهرة مرة، وأن نحذر الكبيرة الباطنة ألف مرة،

الكبر

الكبر، الكبيرة الباطنة،

الشعور أنك لن تحاسب على ذنوبك، لأنك عند الله مقرب

الشعور أنك وحدك على الحق، وأن كل الناس تائهون، هذه كبيرة، الشعور أنك لن تحاسب على ذنوبك، لأنك عند الله مقرب، الآية الكريمة:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً)

(سورة الإسراء)

أيها الإخوة،

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

(سورة الحاقة)

قيل للنبي الكريم صلى الله عليه و سلم: مثّل بهم، لأنهم مثلوا بعمك حمزة، ففي بعض الروايات أنه قال:

((لا أمثل بهم، فيمثل الله بي، ولو كنت نبياً))

[أخرجه الطبراني أيضاً عن يعقوب بن إسحاق الحضرمي]

إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق يخاف من الله هذا الخوف فما بالك مطمئناً من أن تحاسب ؟

أنا لي باع طويل في العمل الصالح

أيضاً قولك: أنا لي باع طويل في العمل الصالح كبيرة باطنة، هذا لا يلغي المحاسبة، كل شيء له حساب، لذلك أيها الإخوة الكبائر الباطنة خطيرة، أنت بحاجة إلى مراجعة حساباتك، وتصحيح مسارك، مراقبة قلبك، والتدقيق في كل ما يجلب الهلاك للإنسان.

حرية في ممارسة الشهوة

أيها الإخوة،

((إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذِن اللهُ بهلاكها))

[ورواه الطبراني أيضا والحاكم عن ابن عباس]

ما هو الفساد ؟ لو أردت أن تصف بلدةً بأنها فاسدة، أو قوماً بأنهم فاسدون، أو مكانًا بأنه مكان فساد، لو أردت أن تدقق في حقيقة الفساد لما وجدت فساداً أكبر من حرية في ممارسة الشهوة بحق أو بباطل، بوجه مشروع أو غير مشروع، والحرية في كسب المال، مع أن شهوة المال وشهوة الفرج هما عوامل الفساد في الأرض، لذلك من ضبط شهوته ، وضبط ماله ودخله فقد سد على نفسه تسعة أعشار الفساد في الأرض، أن تسعة أعشار الفساد متعلق بالمال والشهوة، لذلك قال النبي الكريم:

((تَعِسَ عبدُ الدينار وعبدُ الدرهم))

[رواه البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنهما]

فالبطل الذي يجعل المال في خدمته

إخواننا الكرام، المال قد يوضع بخط عامودي، وهذا الخط مدرج، في مكان من التدريج ما فوقه أنت خادم للمال، وما تحته المال هو في خدمتك، فالبطل الذي يجعل المال في خدمته، لا أن يكون عبداً للمال، لذلك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

إن الإنسان ينتقل من كسب الرزق إلى شهوة الجمع، همه الوحيد أن يكون له أكبر رصيد مالي، مع أن الذي ينتفع منه هو رزقه فقط، الذي يملك ٩٠ مليار دولار ماذا يأكل ؟ وأين ينام ؟ وماذا يلبس ؟

القدرة على الاستمتاع بالحياة محدودة

إخوانا الكرام، هناك قضية دقيقة، القدرة على الاستمتاع بالحياة محدودة، لك أن تأكل كمية طعام محدودة، معك مليار، معك ألف مليار، لا تملك غير هذه الوجبة، هذا هو الرزق، فالقدرة على الاستمتاع بالمادة محدودة، له سقف، مهما تكن غنياً، تنام على سرير واحد ، وتركب مركبة واحدة، وتأكل طعاماً محدوداً، أما القدرة أن تسعد بقربك من الله فليس لها سقف.

لماذا نشقى ؟

إخوانا الكرام، أنت مخلوق لمعرفة الله، والقرب منه، والسعادة بجواره، وحينما تختار هدفاً محدوداً يبدأ الشقاء من هنا، لأنك أنت مصمم ومبرمج لهدف لا محدود، فاخترت هدفاً محدوداً، ما الذي

يحصل ؟ أنت حينما تختار هدفاً محدوداً، وتدركه يبدأ الشقاء، بل يبدأ الملل، طاقة كبيرة، إنسان كبير جداً في إمكاناته قلنا له: انسخ هذه الصفحة، يكاد ينتحر، انسخ هذه الصفحة، هو بإمكانه أن يخترع، فأنت مخلوق من أعلى مستوى، فإذا اخترت هدفاً أرضياً محدوداً بدأ الشقاء، أما إذا اخترت هدفاً عظيماً، أن تتعرف إلى الله، والله أيها الإخوة تبقى شاباً طول حياتك،

المؤمن لا يشيخ

المؤمن لا يشيخ، لأن هدفه أكبر من إمكاناته، والإنسان قد يشيخ في الأربعين، هدفه بيت، اشترى بيتًا، هدفه أن يتزوج، فتزوج، وأن يشتري مركبة، وكانت الحياة لا معنى لها.

ما هو سبب الأنحراف ؟

الآن نفسر لماذا يلجأ بعض كبار الأغنياء إلى القمار ؟ يمكن لإنسان أن يقامر بثروته ؟! يمكن أن يدفع ملايين الدولارات في ساعة واحدة ؟! ملل، حتى الانحرافات الجنسية، ملّ من المرأة، انتقل إلى الشذوذ، الانحرافات والملل سببها أنه اختار هدفًا محدودًا أحاط به واستوعبه، ثم ملّه، ولن تسعد إلا إذا اخترت هدفاً كبيراً، والهدف الكبير الوحيد أن تتقرب من الله عز وجل، فالمؤمن شاب دائماً لا يشيخ أبداً، شاب في التسعين، هذا الذي علّم ثمانين عامًا يقول للشاب في الطريق: كنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدك تلميذي، وكان في التسعين منتصب القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، فإذا سئل: ما هذه الصحة يا سيدي ؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر والملل فحفظها الله علينا في الكبر.

كيف نسعد؟

والله أيها الإخوة بإمكان كل واحد منا أن يكون أسعد الناس، أحد إخوانا الكرام توفي ـ رحمه الله ـ ذهب إلى الحج، وهنأته في بيته بعد أن جاء من الحج، قال لي كلمة لا أنساها، قال لي: ليس على وجه الأرض من هو أسعد مني، إلا أن يكون أتقى مني،

عندما نتقي الله نذق طعم الإيمان

وما لم تقل ليس على وجه الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني لم تذق طعم الإيمان،

المؤمن لا يعرف الخوف أو اليأس

أنت مؤمن وتخاف، مستحيل، مؤمن وتيئس، مؤمن وتكتئب، مستحيل، مؤمن وتتطامن أمام غني ؟ مستحيل، وقالوا:

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء)

تصور فرعون بكل قوته، وبكل جبروته، وبكل أسلحته يتبع شرذمة قليلة مع سيدنا موسى.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء)

احتمال النجاة صفر، والبحر أمامهم، وفرعون وراءهم، والنجاة صفر، البحر أمامهم وفرعون وراءهم، وهم قلة، وفرعون طاغية كبير:

(قَالَ كَلَّا)

(سورة الشعراء الآية: ٦٢)

(كلا) بخلاف كلمة (لا)، لا للنفي، أما كلا فللردع:

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

هل هناك من مصيبة أكبر من أن تكون في بطن حوت، وفي ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل ؟

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

الصحة النفسية أساسها الإيمان

أنا من عادتي أن أي أخ مريض شفاه الله أدله على طبيب متفوق باختصاصه، مؤمن، إلا الذي معه مرض نفسي أدله على الله، الله معك، وكل شيء بيده، الأعداء الكبار بيده ، الطغاة بيده، زوجتك بيده، أولادك، صحتك، شريانك، عصبك، دماغك، كل شيء بيده.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران الآية: ٦)

كل شيء يملك بيد الله عز وجل، فأنت حينما تؤمن ينبغي أن تكون صحيح النفس، والصحة النفسية أساسها الإيمان.

كان عندنا أستاذ في الجامعة من كبار علماء النفس بالشرق الأوسط، حدثنا أنه ذهب إلى مؤتمر في الصحة النفسية في بريطانيا، فألقى كلمة قال فيها: نحن في الشرق الأوسط أقلّ البلاد في العالم إصابة بأمراض النفس، لسبب بسيط جداً، هو أننا مؤمنون بالله.

تجد المؤمن يأتيه مصاب كبير، يقول لك: الحمد لله يا رب، الحمد لله على كل حال، وإنسان آخر يأتيه مصاب لا يحتمل، ويختل توازنه، ويصاب بانفصام شخصية.

لا حل لمشكلاتنا إلا في الإيمان

لذلك أيها الإخوة، لا حل لمشكلاتنا إلا الإيمان، ولحكمة بالغةٍ بالغة جعل الله هذا في الزمان أخطارًا لا تعد ولا تحصى، تأتي أخبار أنفلونزا الطيور، هذا المرض وحده يكفي، يمكن أن يدمر ١٥٠ مليونًا، وأخبار الأعاصير تكفي، وأخبار الزلازل تكفي، ٥٠ ألف إنسان في باكستان، وأربعة ملايين مشرد، الحياة الدنيا هكذا، أرادها الله دار ابتلاء،

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشدة، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

التوحيد حقيقة الإيمان

والله أيها الإخوة، لو لم يكن في الدين كله إلا التوحيد لكفى، ما التوحيد ؟ أمرك بيد رحيم، أمرك بيد غني، أمرك بيد قدير، أمرك بيد عادل، ولا يسلمك لأحد، هو خلقك، وهو ربك، بيده رزقك، بيده حياتك، بيده موتك، بيده سعادتك، بيده شقاؤك، الأمر بيد الله عز وجل.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

لذلك:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

إخواننا الكرام، لمجرد أن يقع الإنسان في الشرك ينخلع قلبه من الخوف.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية: ١٥١)

ولمجرد أن يوحّد الإنسان ربه يملأ الله قلبه أمناً وسكينة، وطمأنينة ورضاً وسعادة.

إطار الإسلام و مضمونه

الإسلام له شكل، وله إطار، لكن مضمونه أخطر من شكله بمئة مرة، إطاره أن تصلي، إطاره أن تأتي المسجد، إطاره أن تدفع زكاة مالك، أن تصوم رمضان، لكن مضمونه أنت أسعد الناس بأي وضع كنت، سواء كنت موظفًا بدخل محدود، أو بدخل غير محدود، غنيًّا قويًّا، أو ضعيفًا، امرأة أو رجلا، أنت حينما تؤمن بالله ينبغي أن تقطف ثمار إيمانك سكينة ، وطمأنينة، ورضاً.

سأقول لكم كلمة، لا أدري إذا كانت معبّرة عن نفسي لا يوجد إلا الله، هناك أقوياء، وطغاة، وظلام، لكنهم كلهم بيد الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية: ٨٤)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم .

هذه الحقيقة، الإيمان هو التوحيد،

إيمان غير منجي صاحبه

أما أن الله خلق الكون فهذه يعرفها إبليس.

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية: ٨٣)

إبليس مؤمن، مؤمن إيمانًا لا ينجيه من النار أبداً، والإيمان المنجي ألا ترى مع الله أحدا، وأن ترى يد الله تعمل وحدها، وأن ترى أن الله هو الظاهر، وهو الباطن، وهو الأول، وهو الآخر، وهو على كل شيء قدير، علاقتك معه فقط.

لا ترى مع الله أحدى

ملخص الملخص: أنت أمام وحوش مخيفة، كل وحش يمكن أن يأكلك بلقمتين، مئة وحش، لكنهم جميعاً مقيّدون بأزمة بيد جهة قوية عادلة رحيمة، أنت علاقتك ليست مع الوحوش، مع من يملكها، فإذا أرخى الذي يملكها الحبل وصلتْ إليك، وإذا شد الحبل أبعدها عنك، فعلاقتك مع الخالق، الدليل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ولحكمة بالغة بَالغة الله عز وجل يمكن أن ينصر دينه عن طريق العنكبوت، فلو رأى المطاردون رسول الله لقتلوه فورا، لأن الجائزة مئة ناقة لمن يأتي به حيا أو ميتا، لكن الله عز وجل ينصر دينه بأقل الأشياء، ويدمر الإنسان بأقل الأشياء، فلا تر مع الله أحدا، ولا تر يدا تعمل غير يد الله، لكن قد لا تفهم حكمة الله، هذا لا يمنع أن تستسلم، هذا الذي حصل قبل أربع خمس، أحداث أيلول، إذا أمد الله بعمرنا جميعا سوف نجد أن خيرها يفوق حد الخيال، مع أنها في ظاهرها مؤلمة، مع أن هناك حربا عالمية سادسة أعلنت على الإسلام، ومع ذلك مادام الشيء قد وقع فله حكمة بالغة، عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها، والآية الكريمة التي هي نهاية هذا الكلام:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية: ٢١٦)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٥-٣٦) : مساوئ الشهوات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

بعض الحقائق عن الشهوة

الشهوة حيادية

و قبل أن نمضي في الحديث عن مساوئ الشهوات لابد من تنويه إلى أن الشهوة أودعها الله في الإنسان، وهي حيادية، بمعنى أنها يمكن أن تكون سلماً ترقى بها إلى الله، ويمكن أن تكون دركات تهوي بها إلى الهلاك، لأنك مخير فهي حيادية، فحينما توصَف الشهوة بأنها سبب الهلاك فالحقيقة أن الذي اتخذ قراراً بالهلاك هو الإنسان.

الشهوة ليست سبب هلاك الإنسان

هل يمكن لمركبة من أرقى أنواع المركبات صُنعت لخدمة الإنسان أن يقودها الإنسان وهو مخمور، فيهوي بها في أعماق الوادي، ويقول: هذه المركبة شريرة أهلكتني ؟ لا، استعمالها بغير أصولها هو الذي أهلك الإنسان، فالشهوة ليست أبداً سبب هلاك الإنسان، بالعكس، لولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات.

الشهوة ترقى بها مرتين صابراً و شاكراً



إنك من دون شهوة لا تتحرك، لا تفعل شيئاً، الشهوة ترقى بها مرتين، ترقى بها صابراً، وترقى بها شاكراً، فإذا متعت نفسك بما أحل الله لك ترقى إلى الله شاكراً، وإذا امتنعت عن شهوة نهاك الله

عنها ترقى إلى الله صابراً، شاكراً وصابراً، سلماً ودركات، أنت المسؤول،

الشهوة قوة محركة

هل تتصور مركبة بلا محرك، عندئذ ليست مركبة، لابد لها من محرك، والعقل هو المقود، و الشرع هو الطريق.

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة

كلمات دقيقات وبليغات

الشهوة توجب ألم نفسي

أعلى منصب في أمريكا زلّت قدمه مع امرأة، فتحمل فضيحة لا تنتهي، واضطر أن يبكي، واضطر...، لذلك ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

سمعت عن إنسان سافر وزلّت قدمه في السفر، وانتقل إليه مرض الإيدز، من أجل أن يخفي هذا المرض عن زوجته وأولاده بذل جهداً لا ينتهي، ثم فضح، وانتهى عند أهله وأولاده، ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإما أن توجب ألماً وعقوبة، وقد يكون الإنسان في أعلى مكانة، فإذا خضع لشهوته سببت له هذه الشهوة آلاماً، وقد تسبب له عقوبات هو في غنى عنها.

لابد من ضرب مثل حتى أبين لكم كيف أن الإنسان يعاني من آلام نفسية لا تحتمل، لو أن قلماً ثميناً فُقِدَ في صف، فالمعلم أغلق الباب، وفتش الطلاب طالباً طالباً، يوجد طالب له مكانته، من عائلة محترمة، مظهره العام جيد، اشتهى هذا القلم فوضعه في محفظته، فلما فضح أمْرُه لم يتكلم المعلم معه لا كلمة، ولم يضربه، لماذا يكاد يموت من الألم ؟ هذا هو الألم النفسي، لذلك ورد: " إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب، لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، و إنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب ".



حينما يقف العبد بين يدي ربه، ويحاسبه، ويقول له: منحتك الوجود، منحتك النعم، منحتك الأمن، منحتك الغنى، ثم تفننت في إيذاء عبادي، وبثّ الذعر في قلوبهم، وهذه الحروب التي تجري ـ أشهد الله ـ أن الذين يقررون ضرب هذه المدن وإلقاء هذه القنابل الذرية واللهِ هم أشقى البشرية قاطبة، هم أغبى أصناف البشر، لأنهم ما أدخلوا الله في حساباتهم، ما أدخلوا اليوم الآخر في حساباتهم، هذه الشهوة قد توجب ألماً وعقوبة.

الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، وإذا كانت المرأة يمكن أن تدخل النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها، و لا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فما قولك بشعوب تدمر ؟ بشعوب تفتقر ؟ بشعوب تعاني ما تعاني ؟ من أجل قلة في العالم تتحكم بثرواته.

أول خطر من أخطار الشهوة أنها توجب ألما نفسيا

إنّ أذكى إنسان هو الذي يجتنب أن يؤذي إنساناً أو مخلوقاً، عصفور اصطدته لغير مأكلة، هذه إلى أين توصل ؟ يأتي يوم القيامة وله دوي كدوي النحل، يقول: يا رب، سله لمَ قتلني ؟ فإذا كان موضوع عصفور أو هرة يوجب النار فكيف بالذي يسحق شعوباً، و يعتدي على حرمات، و يبتز أموال الناس، و أكل ما ليس له بحق أن يأكل ؟

قال:

" فالصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها.

أول خطر من أخطار الشهوة أنها توجب ألماً نفسياً وعقوبة مادية، أو أنها تقطع لذة أكمل منها. لما لا يدرس الطالب، ويمضي وقتاً في دور السينما، ومع رفقاء السوء يخسر ويهان، أما الذي درس، ونال الشهادة بتفوق أقيم له حفل تكريم، يعلو في نظر الناس، و تصيبه مشاعر الغبطة والفرح والسعادة أضعاف مضاعفة عن ساعات قضاها زميله في فيلم، أو مع صاحب سوء.

الشهوة تقطع لذة أكمل منها


الذي لا يراعي قواعد صحته تأتيه آلام الأمراض

السوء الآخر للشهوة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، فقضية بالحساب حتى في الأمور المادية، لذلك الإنسان الذي يأكل كل ما يشتهي، ولا يرعى قواعد صحته كانت آلام الأمراض، وآلام التخلف الصحي أضعاف مضاعفة عن لذائذ الطعام والشراب، إنها قضية موازنة، وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة، وإما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة و ندامة.

تجد الذي ضبط نفسه، وأطاع ربه يرفع الله له ذكره، ويعلي قدره، تأتيه موجات من الفرح، موجات من الغبطة، موجات من السعادة، تفوق ملايين أضعاف لذة الشهوة الآثمة.

مرة ثانية، ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة.

وإما أن تسلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من سلمه

الإنسان يعيش بمكانته في المجتمع، يعيش باستقامته، يعيش بعفته، يعيش بأمانته إذا سلم عرضه، والعرض موضع الذم والمدح في الإنسان، أي مكانتك، كل شخص منا له مكانة في المجتمع، وقد يكون في أدنى درجة، لكنه مستقيم.

الحاجب الذي دخله أربعة آلاف، ومهمته أن يأتي بالقهوة والشاي إلى المدير العام، هذا إذا كان مستقيماً فله مكانة، مرتبته الاجتماعية لا علاقة لها بمكانته، مكانته باستقامته، يده نظيفة، لسانه

نظيف، ما أكل مالاً حراماً، ما ابتز إنساناً، ما كان سبب هلاك إنسان، فحتى أدنى مرتبة اجتماعية إذا رافقتها الاستقامة والعفة والصدق والأمانة تجد هذا الإنسان كبيراً.

والله أنا ذكرتُ هذه القصة مرات عديدة، إنسان محسن أراد أن يبني مسجداً في حي فقير ليس فيه مسجد، فكلف أحد الإخوة الكرام بالبحث عن الأرض، فوجد أرضاً مناسبة جداً، مربعة باتجاه القبلة، سعرها معقول، أبلغ المحسن الكبير كي يرى الأرض ميدانياً، فلما جاء هذا المحسن أعجبته الأرض، ووجد سعرها مناسبًا، سطر شيكاً بنصف قيمتها، فسأل صاحب الأرض، وهو مستخدم ورثها قبل شهر، قال له صاحب الأرض وقد أخذ شيكاً بنصف قيمتها: متى النصف الثاني ؟ فقال له: عند التنازل، قال له: أيّ تنازل ؟ قال: هذه الأرض سوف تغدو مسجداً، فلابد من أن تذهب إلى مديرية الأوقاف كي تتنازل عنها حتى أعطيك القسم الثاني، فأمسك الشيك، ومزقه، وقال: أنا أستحي من الله أن أبيع أرضاً لتكون مسجداً، أنا أولى منك أن أقدمها لله، هذا المستخدم دخله أربعة آلاف في الشهر، عنده ثمانية أولاد، تحت الخط الأحمر من الفقر، يقول هذا المحسن: واللهِ ما صغرتُ في حياتي أمام إنسان كما صغرت أمام هذا المستخدم، فأنت حينما تستقيم، ولو كنت في أدنى درجة اجتماعية كبير، وإذا انحرفت، وخالفت مبادئ فطرتك، وخالفت منهج ربك، و كذبت، ولم تكن أميناً، واعتديت على أعراض الآخرين، ثم افتضحت، تشعر أن هذه المكانة العليّة أصبحت في الوحل.

لذلك إخواننا الكرام، الآلام النفسية لا تحتمل، وإنّ العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب، لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى.

أعطيتك كل شيء فلماذا فعلت بعبادي ما فعلت ؟

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

[سورة الرحمن: الآية ٦٠]

والله أحياناً يقصر إنسان مع محسن كبير أسدى له معروفاً كبيراً، يكاد يموت من الألم، لكن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا.

إنّ الشهوات كالمخدرات تماماً، الشهوات في الدنيا كأنها مخدرات، متى يصحو الإنسان من خدره ؟ عند الموت يعلم حجم خطئه، هذا الذي ركب


الإنسان عند الموت يعلم حجم خطئه

مركبة، وأعطى السائق مبلغاً كبيراً، ورقة نقدية كبيرة، وردّ له السائق التتمة زيادة عشرين بنساً في لندن عما يستحق، هو إمام مسجد، فقال: ينبغي أن أرد هذه الزيادة، لكن لما جلس في المقعد قال: إنها شركة عملاقة، ودخلها كبير، و هذا المبلغ يسيراً لا يقدم ولا يؤخر، ولا عليّ أن آخذه، لكن غلبت فطرته على مؤامرته، قبل أن ينزل مدّ يده إلى جيبه، وأعطى السائق عشرين بنساً، ابتسم السائق، وقال له: ألست إمام هذا المسجد ؟ قال: بلى، قال له: و الله حدثتُ نفسي أن أزورك في المسجد لأتعبد الله عندك، ولكني أردت أن أمتحنك قبل أن آتي إليك، فانتبه، ووقع هذا الإمام مغشياً عليه ـ أغمي عليه ـ لأنه تصوّرَ عِظَمَ الجريمة التي كاد يقترفها لو أبقى المبلغ في جيبه، فلما صحا من غفوته قال: يا رب، كدت أبيع الإسلام كله بعشرين بنساً.

أحياناً توجد أعمال لا تحتملها، فالإنسان عندما يستقيم يسعى لراحة قلبه، تجد المستقيم ملكاً، المستقيم يشعر بنشوة، يشعر ببراءته، يشعر بطهارته، يشعر بسموه، ولو كان مستخدماً في دائرة، المرتبة الاجتماعية ليس لها علاقة بالموضوع، الزوج الكبير يحتل منصباً عريضاً، له دخل فلكي، إذا خان زوجته يصبح أمامها شيئاً تافهاً، أمام أولاده شيء تافه، أمام مَن حوله شيء تافه، فلذلك سألوا مرة ألف رجل: لماذا لا تخون زوجتك ؟ فجاءت الإجابات متفاوتة من حيث القيمة، أول مجموعة قالت: لا أستطيع، لأنها معي في المحل، معي في العمل، هذا أتفه جواب، وقسم آخر قال: لا أحتمل الشعور بالذنب، هذا أرقى، أما القسم الأرقى والأرقى قال: لا أحب الخيانة، قال تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

[سورة يوسف: الآية ٥٢]

وإما أن تسلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من سلمه

الإنسان يعيش بمكانته في المجتمع، يعيش باستقامته، يعيش بسمعته، هذه الحاجة الثالثة، أنت بحاجة للطعام والشراب حفاظاً عن الفرد، وبحاجة إلى زوجة حفاظاً عن النوع، بعد أن تأكل وتشبع، وبعد أن تتزوج وتتحصن فأنت أمام حاجة ثالثة أساسية، تحتاج إلى أن تكون ذا قيمة في المجتمع، القيمة لا تأتي من المال، تأتي من بطولة، تأتي من استقامة، تأتي من علم، لذلك قالوا: رتبة العلم أعلى الرتب.

أضخم ثانوية في دمشق وأعرق ثانوية قديمة جداً درستَ فيها إذا دخلت وجدت في مدخلها لوحة بأجمل خط في صدر البهو، كتب عليها: رتبة العلم أعلى الرتب، والآن الآية الكريمة:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: الآية ١١٣]

العظيم وصف فضله بأنه عظيم، في أي موضوع ؟ في العلم، لذلك الأنبياء جميعاً هناك آية متكررة:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة يوسف: الآية ٢٢]

أن تعرف الله، أنت المخلوق الأول، أن تعرف الحلال والحرام، أن تعرف سر وجودك، وغاية وجودك.

وإما أن تذهِب مالاً بقاؤه خير من ذهابه

الشهوات تحتاج إلى أموال طائلة، أحياناً الدخول إلى الملاهي يحتاج إلى مبالغ فلكية جداً، يؤذي الإنسان فيها صحته، ويغضب ربه، ويفقد ماله، ويشوِّه سمعته.

الذي يفطر في رمضان يشعر بالعيد بدناءة

وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه، الإنسان يعيش بمكانته يعيش بنقائه يعيش بسمعته.

وإما أن تضع قدْرًا وجاهاً قيامُه خيرٌ مِن وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذّ وأطيب من قضاء الشهوة

دائماً الشهوات وشيكة الانقضاء، نحن في رمضان الذي يفطر ويعصي ربه، ويتحدى خالقه، ولا يعبأ، بل يفطر في الطريق ويتحدى، هذا استمتع بالدخينة بضع مرات في اليوم، لكن حينما يأتي يوم العيد يشعر بدناءته، لأن الذين صاموا أفطروا، واستمتعوا بالطعام والشراب، وأبيح لهم ما كان مباحاً لهم قبل رمضان، لكن غيرهم فقدوا طاعة الواحد الديان.

أيها الإخوة الكرام، الشهوات تنقضي لذتها، وتبقى تبعتها، بينما الطاعات تنقضي متاعبها، وتبقى خيراتها.

وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك

طبق القانون حتى لا تقف موقف ضعيفا أمام إنسان

لو ارتكب الإنسان معصية شائنة، قد يأتي إنسان وضيع يناله بالأذى، وقد كانت له مكانة كبيرة، أحياناً على مستوى قانون السير، تمشي بطريق ممنوع، تظن نفسك ذكياً، فيكون الشرطي أمامك، فيوقفك، تترجى، وتصغر أمامه، وتقول: لا أعرف، ولم تكن مضطرًا أن تصغر، طبق القانون، وتبقى في أعلى مكانة، لأن هناك إنسانًا مكانته أكبر من أن يرجو شرطياً، لا يترجى، أُطبق القانون، ولا أقف موقفاً ضعيفاً أمام إنسان، هذه قاعدة، لذلك إياك وما يعتذر منه، والشيء الذي تضطر أن تعتذر منه لا تفعله، وابقَ رافع الرأس، أنا أرى الذين يخالفون قوانين السير يقفون موقفاً ضعيفاً أمام إنسان بالمرتبة الاجتماعية أقلّ منهم بكثير، لكن تتضعضع أمامه، لأنه سوف يسحب منك الإجازة أو الأوراق، واسترجاعها يحتاج إلى جهد ووقت، ويحتاج أن تعطل زمنًا، فأنت حينما تلتزم النظام تبقى في مكانتك، المواطن المستقيم حر طليق، يسافر، يأتي، لا يوجد عنده قيد، ولما يرتكب الإنسان جريمة يفقِد حريته الإنسان، ويصبح رهن اعتقال وسجن، ولاحظ حينما يقبضون على مجرم، انظر إلى وجهه، يخفض بصره، لا يستطيع أن يحد النظر في المصور من جريمته، إذاً على الإنسان أن يرعى مكانته.

وإما أن تجلب همّاً وحزنا وغمّاً وخوفا لا يقارب لذة

هناك لاعب كرة اتهم بالشذوذ، وسيق إلى المحاكمات، وعليه سجن ثلاثون سنة، وأمام المصورين والصحف والأخبار، كان لاعبًا بطلا فأصبح متهمًا بالشذوذ.

مرة جرتْ مناظرة بين رجلين، أحد الرجلين افتضح أمره في أمريكا بجريمة جنسية فصار يبكي على شاشة التلفزيون من شدة خجله من مكانته، وما آل إليه عند جمهوره من فضيحة.

وإما أن تنسَى علما ذكْره ألذّ من نيل الشهوة

قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية، لأن المعصية تنسي العلم.

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نـــور ونور الله لا يهدى لـعاصِ

***

وإما أن تشمت عدوا، وتحزن وليًّا

إنّ العدو يشمت والصديق يتألم، وإذا سقط الإنسان من عين الله، أو من عين الناس يتألم له الصديق، و يشمت به العدو، وأصعب شيء في الحياة أن يشمت بك العدو، لذلك في الدعاء: نعوذ بك من عضال الداء، ونعوذ بك من شماتة الأعداء، ومن السلب بعد العطاء.

وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلةٍ

قد يكون خطُّ الإنسان البياني صاعدًا، فهذه الشهوة المحرمة التي ارتكبها تقطع الطريق على نعمة. خطب إنسان امرأةً من أسرة محترمة، والفتاة جميلة، وديّنة، ثم اكتشف أهل الفتاة أن له معصية كبيرة قبل أن يخطب الفتاة، فرفضوا متابعة الزواج، فهذه الشهوة الطارئة منعت نعمة مقبلة، فضاعت منه.

وإمّا أن تحدث عيبا يبقى صفة لا تزول

قد يرتكب الإنسان خطأ يسبب له مرضًا دائمًا، أو يسبب له مرضًا قد يستمر عشرات السنين، وقد يكون هذا المرض دليل انحرافه، ووصمة عار بحقه، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق. الحقيقة ثمة تحليل عميق جداً لمن يؤثر شهوة في معصية الله عز وجل: كيف يخسر أنواع الخسارات التي لا تعد ولا تحصى، لذلك نقول: مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية ٧١]

والإنسان العاقل يخضع لتعليمات الصانع، وصانعك هو الله، وتعليماته القرآن الكريم والسنة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٦-٣٦) : الجانب الجمالي للإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أودع الله في الإنسان قوة إدراكية و قوة شعورية

لقد أودع الله في الإنسان قوة إدراكية، يتميز بها عن بقية المخلوقات، وأودع فيه قوة شعورية، ففي حياة الإنسان علم، وفلسفة، وفن، فالعلم ما هو كائن، والفلسفة ما ينبغي أن يكون، والفن ما هو ممتع،

الإسلام دين الفطرة

وفي الإنسان جانب جمالي، هذه حقيقة، فإنه يحب المنظر الجميل، ويحب البيت الجميل، ويحب الثياب الجميلة، ويحب الزوجة الجميلة، هذا جانب حقيقي، والإسلام اعترف بهذا الجانب، لأنه دين الفطرة.

لقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام بلالاً بأن يؤذن، لأنه أندى صوتاً، وهذه الأشياء الجميلة التي خلقها الله عز وجل لمن خلقها ؟ خلقها لنا.

الجمع بين الزينة التي سمح الله بها و السعادة الأبدية

الموضوع الآن دقيق جداً، ماذا بين أن يجمع الإنسان الزينة التي سمح الله له في الدنيا، وبين السعادة الأبدية التي أعدت له ؟ في النهاية الجنة كلها سعادة، الجانب الجمالي في الجنة له المقام الأول،

ما هي العبادة ؟

لأن أصل العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، لذلك يقول هذا العالم الجليل:

" لذة كل أحد على حسب قدره وهمته، وشرف نفسه ".

يعني أن كل واحد منا شاء أم أبى له متعة يتمتع بها في الدنيا، فلذة كل واحد منا على قدر همته، وشرف نفسه، فقد تبدأ اللذة من تناول طعام لذيذ، وقد تنتهي بالاتصال بالجمال المطلق، وهو الله عز وجل،

أشرف الناس نفساً مَن لذّته في معرفة الله

فأشرف الناس نفساً، وأعلاهم همة، وأرفعهم قدراً مَن لذّته في معرفة الله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ))

[أخرجه البغوي في شرح السنة، وقال النووي: هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح]

إن الإنسان حينما تكون ذروةُ لذته، وذروةُ سعادته، وذروة استمتاعه في معرفة الله ومعرفة كتابه، والعمل الصالح، واللقاء مع أولياءه، فهذا إنسان في أعلى مستوى، لأنه لذتُه توافقت مع ما كلّف به، تماماً كما لو أنّ إنسانًا مدمناً على المطالعة، فعُيّن أمين مكتبة، هذا العمل يتوافق مع هواه توافقاً تاماً، فلذة هذا الإنسان الأول في الإقبال على الله والعكوف عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله.

الإستمتاع بالمحرمات

أحيانا يستمتع الإنسان بأقذر عمل، وأسوأ عمل، وأحياناً يستمتع بالذات الإلهية بالإقبال عليه، والقرب منه، وقد قال بعض الناس: تنتهي لذتُهم إلى أخس الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء.

الآن في العالم تواصل إعلامي، وفي العالم عرض للذات يخجل الإنسان أن يفكر فيها، لا أن يقترفها، أن يفكر فيها، لأنها تهبط به إلى مستوى أخس الحيوانات، فأنت بين أن تكون أسعد الناس بالذات الإلهية، وبين أن يكون الإنسان أخس مخلوق في لذته.

أحياناً تذهب إلى ظاهر المدينة، فتجد مئات السيارات حول ملهى، لو سألت نفسك سؤالاً دقيقاً: لماذا جاء الناس إلى هذا المكان ؟ إنهم يأكلون، ويشربون الخمر، ويستمتعون بالراقصات، والغناء، هذه هي لذتهم، وهذه اللذة يُقبل الناس عليها أشد إقبال، إلا من عصم الله

لذة القرب من الله

وشهد الله أن المؤمن يتمتع بلذة عند قربه من الله، وعند خشيته له، وعند إقباله عليه ما لو وزِّعت على أهل الأرض الستة آلاف مليون لكفتهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

اشكر الله أيها العفيف

الآن لو عرض على الإنسان الخسيس الدنيء، الذي يستمتع بالقاذورات من الأقوال والأفعال ما يستمتع به الإنسان الأول الشارد لم يقبله، لذلك الذي يستمتع بالقاذورات يسخر من رواد المساجد، يقول لك: ماذا في هذا المكان ؟ ماذا يفعلون ؟ حياتهم مملة جافة، لأنه غارق في القاذورات. ولو عرضت لذائذ الثاني على الأول لخرج من جلده نفوراً منها، فاشكر الله أيها العفيف أنْ جعل استماعك بما يرضيه.

" إن أكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن ".

بالمناسبة، أي شيء ممتع خلقه الله عز وجل، هذا الشيء الممتع واسع، فإذا عبّرنا عن السعادة بمئة وثمانين درجة فمسموح لك من هذا الشيء الممتع سبعون درجة، فالمؤمن يبقى في هذه السبعين، وهو في هذه السبعين موصول بالله، وهذه السبعين تفضي به إلى ٣٦٠ درجة بعد الموت، فما دام في الجانب المسموح به من لذة البدن، يأكل الطعام الحلال، ويتزوج ، ويستمتع بما أحلّ الله له، ويبتعد عن أي شيء حرمه الله عليه، ما دام في هذا الحيز المسموح به فإنه يستطيع أن يجمع بين لذة البدن ولذة القلب، وأكمل الناس لذة من جمع بين لذة القلب والروح ولذة البدن، فهو يتناول لذاته المباحة.

ليس في الإسلام حرمان

بالمناسبة، ما مِن لذة خلقها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، فإنه ليس في الإسلام حرمان، بل الإسلام دين الفطرة.

قال:

" فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذائذ الدار الآخرة "

لو اقتربنا شيئا ما: أنْ تعمل بإخلاص، وتعمل عملاً متقناً، وتأخذ رزقاً حلالاً مئة بالمئة، وتشتري به طعاماً طيباً، فتأكل أنت وأهلك وأولادك هذا الطعام الطيب، وتستطيع أن تكون في قمة الإقبال على الله والاتصال به، هذه هي شهوة الطعام والشراب.

قد تشتهي المرأة، فتتزوج امرأة صالحة مؤمنة، تسرّك إن نظرتَ إليها، وتحفظك إذا غبتَ عنها، وتطيعك إنْ أمرتها، هذه اللذة الثانية يمكن أن تنالها في أعلى مستوى، وأنت في أعلى درجة من القرب من الله، واللهُ سبحانه ما حرمك، ما حرمك، لكن طهرك، لكن كرمك.

قال تعالى:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الأعراف الآية: ٣٢)

هم في الدنيا يستمتعون مع غيرهم بالجانب المادي من اللذائذ، يستمع بها المؤمنون وفق منهج الله، وفق الحيز الذي سمح لهم به، لكن هذه اللذائذ خالصة لهم يوم القيامة.

((إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر))

[رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو مهدي سعيد بن سنان]

لذلك أنا حينما أدعَى إلى طعام، ويغلب على ظني أن هذا الذي دعاني إنسان مؤمن وقريب من الله أدعو له من أعماق قلبي أن يجعل الله له نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة .

للمؤمن جنتان

أنت في الدنيا في أمان، وفي متعة طاهرة بريئة تقربك من الله، فإذا جاء الأجل انتقلت إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وهؤلاء الذين سمح الله لهم أن يجمعوا بين لذة الدنيا في الجانب المباح المشروع، مع لذة الآخرة هؤلاء قمم البشر، لأن الله عز وجل حينما قال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

ففي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، ويقول بعض العلماء: ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟.

أيها الإخوة، أما الذي استمتع بالقاذورات من الأقوال والأفعال، فهؤلاء يقال لهم يوم القيامة:

(سورة الأحقاف)

لذلك أمسك مرةً سيدنا عمر تفاحة فيما أذكر، وهمَّ ليأكلها أمسك فقال: " أكلتُها ذهبتْ ، وأطعمتُها بقيتْ ".

هذا المعنى أشار إليه النبي الكريم صلى الله عليه و سلم حينما وزع شاة على مرأى من زوجته عائشة رضي الله عنها، ولم يبقَ منها إلا كتفها، يبدو أنها اشتهت أن تأكل هذا اللحم، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

الحياة الدنيا مفعمة بالمسرات والأحزان و الآخرة بنيت على التكريم

إخواننا الكرام، إن الحياة الدنيا مفعمة بالهموم والأحزان والمشكلات، ولا تستقيم لإنسان، فقد يحصل على زوجة صالحة، ولا يُسمح له بأولاد أبرار، الأولاد العاقون، وهم مصدر شقائه في الدنيا، أقول هذا بشكل عام للناس جميعاً، وقد يكون له دخل كبير، وفي جسمه مرض خطير، وقد تكون له سمعة طيبة، ويعاني من ضغوط في عمله، على كلٍ الحياة الدنيا مفعمة بالمسرات والأحزان، ولكن الآخرة بنيت على التكريم.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق)

الفرق بين تمتعين

النتيجة أن هؤلاء تمتعوا بالطيبات، وهم أهلُ الله، وهؤلاء أيضاً تمتعوا بالطيبات.

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)

(سورة الإسراء الآية: ٢٠)

هذا تمتَّعَ بكلام ربه، والأنس به، والإقبال عليه، والتقربِ إليه، فتجلى الله على قلبه، وألقى عليه السكينة، وشعر أنه أسعدُ الناس قاطبةً، وذاك تمتنع براقصة، هؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع، لكن هؤلاء تمتعوا بها على وجه أذن الله به.

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)

(سورة الأعراف الآية: ٣٢)

هذا الذي جعله الله جميلاً من فاكهة، أو من طعام، أو زوجة صالحة، أو ولد جميل الصورة، هذا إنما خلقه الله لعباده، وهناك جانب مسموح به، فأولئك تمتعوا على الوجه الذي أذن الله لهم فيه، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء الآخرون تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة، وسواء أذن لهم فيه أم لا.

الآن دققوا:

" فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة "

لذلك إن أجمل كلمة أردّدها: من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً.

" فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة "

هذا هو الشقاء بعينه، فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم، لذلك طريق الإيمان كله خير، هكذا صممت أن تكون مؤمناً.

قال:

" فمن أحب اللذة ودوامها، والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا طريقاً إلى لذة الآخرة، بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله "

التمتع المباح له وظيفة إيجابية

إن الإنسان أحياناً في طريق الإيمان كأنك تمشي في الصحراء، من حين لآخر ترى واحة، أو نخلة وغديرًا، والإنسان أحياناً يذهب إلى نزهة، هو وأولاده وزوجته، هذه النزهة لذة مباحة، لكن لها وظيفة إيجابية، أنها تعينه على متابعة الطريق.

((روّحوا القلوب ساعة فساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت))

[رواه الديلمي وأبو نعيم والقضاعي عن أنس]

في هذا الزمن الصعب، وفي ضغوط الحياة، وتعقيداتها، أحياناً تعطيك نزهة قصيرة أنت وأهلك طاقة لمتابعة السير، وقد تكون هذه النزهة أساسية في حياة الناس الآن، أحياناً تجد الأسرة تضطرب، يظهر بعض العنف في البيت، السبب أن نفوسهم ضاقت ببيت صغير وهموم كثيرة، فقد تكون نزهة قصيرة إلى مكان جميل مفيدة، وكل شيء مسموح به من طعام وشراب ومناظر جميلة، هذه النزهة تعينك على متابعة السير، فلذلك الآباء العقلاء والموفقون من حين إلى آخر يروِّحون عن أسرتهم، هذا الترويح يعين الابن على متابعة الدراسة، يعين البنت على متابعة الدراسة، يعين الزوجة على متابعة العمل، والزوج على متابعة النشاط.

إذاً فليجعل المؤمن لذة الدنيا موصلة إلى لذة الآخرة، بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادته.

اللذائذ للمؤمن بحكم الاستعانة والقوة على طلب الدار الآخرة

أنا أتمنى أن يكون هناك تمايز بين لذات المؤمنين ولذات غير المؤمنين، هل يجلس المؤمن في مكان الغناء، والتفلت، ولعب النرد، ويقول: أنا واللهِ أروّح عن نفسي ؟!! هذا المكان ليس لك، هذا المكان يحول بينك وبين المتعة التي سمح الله لك بها، هذا المكان موبوء، فيجب أن يكون هناك تمايز بين لذات المؤمنين، ولذات المبعدين، يتناول المؤمن هذه اللذائذ بحكم الاستعانة والقوة على طلب الدار الآخرة، بالضبط كرحلة شاقة في الصحراء، من حين إلى آخر هناك استراحة، وتناول الطعام، ونسيم عليل، ومنظر الشجرة الجميلة، هذه الواحات لا بد منها، يجب أن تكون واقعيًّا في هذا، أنا لا أطالبك بنزهة فوق ميزانيتك، لكن أحياناً إلى مكان قريب، فيه إطلالة جميلة، أنت وأهلك، هذا يعطيك طاقة في متابعة السير، فكما تخطط للعمل يجب أن تخطط للذة طاهرة بريئة مسموح بها، تعينك على متابعة السير.

المؤمن لا يبحث عن اللذة لمجرد الشهوة

إن الذي يبحث عن اللذة لمجرد الشهوة والهوى فهو ممن زُويتْ عنه لذات الدنيا والآخرة معاً.
الآن:

" فليجعل ما نقص من لذة الدنيا زيادة في لذة الآخرة، ولا شط أنّ من أحبَّ دنياه أضرّ بآخرته "

هل يستمتع المؤمن كما يستمتع أهل الدنيا ؟ لا يستطيع ذلك، عنده قيود، عنده لوحة مكتوب عليها: حقل ألغام، فيقف عندها، ولا يرى أن هذه اللوحة تحدُّ من حريته، لكنه يرى أنها ضمان لسلامته، وأعظم شيء في الفقه أن ترى أن المحرمات هي ضمان لسلامتك، وليست حداً لحريتك، هذه المحرمات لا تتألم ممن حرمها عليك، بل تشكره، لأنه أبقاك طاهراً سليماً موصولاً بالله عز وجل، فإذا استمتع المسلم بما أحل الله له يستوفيها كاملة يوم القيامة.

لذلك أيها الإخوة، المؤمن الصادق يبحث عن سعادة أبدية، وهذه ثمنها، أن تأخذ من الشهوات بالقدر الذي سمح لك، فإذا أخذت من الشهوات بالقدر الذي سمح لك عندئذٍ ترقى إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

الله يبارك للمؤمن الصادق

ثمّة شيء يصعب تفسيره علمياً، وهو واقع، كيف أنّ أمور البركة لم ترد في الآلات الحاسبة، فيها فقط جمع، طرح، ضرب، تقسيم، وجذر، ونسبة مئوية، وذاكرة، وكل أزرار الآلة الحاسبة ليس فيها

زر البركة، لكن الله عز وجل يبارك للمؤمن الصادق، له دخل قليل ينتفع به أكثر من الدخل الكبير ممن فسق وفجر.

الآن لو أن إنسانًا منع نفسه من كل شهوة لا ترضِي الله يجعل الله له فيما أحل له متعة تفوق حد الخيال، التفسير العلمي هنا صعب، فهذا الذي غض يصره عن محارم الله يهيئ الله له زواجاً ناجحاً.

أنا أقول للشاب أحياناً: أنت حينما تغض البصر عن محارم الله كأنك تضع في علبة ليرةً ذهبيةً عن كل غض بصر عن امرأة لا تحل لك، هذه العلبة تمتلئ وتفتح يوم زواجك، فكل شيء منعت نفسك منه قبل الزواج تلقاه هناء وراحة وسعادة بعد الزواج، كل شيء محسوب، إنه إلهٌ عادل عدلا مطلقًا.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

دعك من الآخرة، وتعالَ إلى الدنيا:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

لا تكن إمعة فتهلك

بئس الإنسان الذي يستمتع بلذة محرمة تنقطع عنه في نهاية الحياة، ويفوته نعيم أهل الجنة، لذلك أيها الإخوة الحياة تحتاج إلى تأمل، وإلى قرار جريء، وإلى معرفة بالله، أما الناس الشاردون عن الله فهم إمّعة، فأيّ شيء شاع في مجتمعهم يقبلون عليه، ولو كان محرماً، لذلك حينما تهبط مدركاتُ الإنسان يصبح مع الخط العريض في المجتمع، الآن المجتمع فيه شرائح، أكبر شريحةٍ شاردةٌ عن الله، الدليل:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام الآية: ١١٦)

هؤلاء الناس الآن مع ما يعرض على الشاشة، مع الأفلام، مع المسلسلات، مع الإباحية، مع الرقص، مع الملاهي، هكذا، حتى رمضان يجعلونه شهر متع، شهر لقاءات وسفر، ومسلسلات، وأفلام، وضحك، وإطلاق بصر.

إن قضية ترك الطعام والشراب هذه يحسنها الفقير، أحياناً إذا حرمتَ إنسانًا من الطعام والشراب يكون صائمًا، هل معنى ذلك أن صيامه عبادة ؟!.

اللذة المباحة هي جسراً لسعادة الأبد

أيها الإخوة، قضية اللذة حاجة أساسية في الإنسان، والشرع ما أغفلها، لكن أعطاك جانبًا مسموحًا به، هذا الجانب يمكن أن يكون جسراً إلى سعادة الأبد، لذلك ليس في الإسلام حرمان، لكن فيه تنظيم،

الخير كله في طاعة الله والشر كله في معصيته

وأقول كلمة: إن المؤمن الصادق ـ لعلي لا أبالغ ـ يستمتع بالدنيا التي سمح له بها أضعافًا مضاعفة مما يستمتع الطرف الآخر.

اجلس مع مجموعة من المؤمنين، تقول: والله كنا في التجلي، والسرور، وكأنك في جنة، وقد يكون البيت صغيرًا، والطعام خشنًا، وأحياناً ليس هناك ضيافة إلا كأس شاي، لكن تشعر نفسك بجنة، ويذهب إنسان إلى مكان كله فضة، وكله ذهب، وكله أثاث راقٍ، وثريات، وتلعن المطعم شهرًا على هذه الفاتورة ، ويخرج مسمومًا بدنُه، وقد دفع مبلغًا غير معقول، ورأى زوجة فلان، وزوجة فلان، وهذه أحلى من زوجة، ويصبح نكدًا في بيته، ويشتري شقاءه بيده، ويدفع مالا فلكيًّا، ويلعن كل ساعة فكر فيها بالذاهب إلى هذا المكان، وتنغص عليه حياته الزوجية، ويرجع بخُفَّيْ حُنَيْنٍ.

دخل أحدهم إلى دار قمار في أمريكا، فلعب قمار، وكانت ثروته اثنين ونصف مليون دولار، خسرها في ليلة واحدة، جاء إلى البيت فأطلق النار على زوجته وأولاده الخمسة، ثم انتحر، دار القمار تنتهي بالإنسان إلى الموت، وإلى الشقاء، لذلك هذا من فعل الشيطان.

تجد المؤمن بين إخوانه وفي جامعه، وفي بيته في راحة نفسية، في تجليات قدسية، إنه بيت ملائكي، بيت في طهارة، بيت فيه وفاء، بيت فيه رحمة.

أيها الإخوة، إن الخير كله في طاعة الله، والشر كله في معصيته، ومستحيل أن تطيعه وتخسر ، أو أن تعصيه وتربح.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٧-٣٦) : أنواع الجمال

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع حكمة جديدة من حِكم كتاب الفوائد لابن القيم رحمه الله تعالى، عنوان هذه الحكمة: أنواع الجمال، وكما تعلمون أن الجمال جانب أساسي في حياة الإنسان، يزيد عند بعض الأشخاص، ويقلّ عند بعضهم الآخر، لكنه مطلب ثابت في حياة الإنسان، وإذا قلت: الجمال، أقصد به مطلق الجمال، الجمال في البيت، وفي الثياب، وفيما سوى ذلك.

الجمال المذموم

جمال الصورة

الله عز وجل ذمّ جمال الصورة، وتمام القامة والخلقة، فقال عن المنافقين:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ)

[سورة المنافقون: الآية ٤]

قد تجد إنساناً يعتني بجسمه وبثيابه، وبأثاث بيته، وبحديقته عناية تفوق حد الخيال، لكنه لا يعتني بقلبه، بل هو لؤمٌ على خبث، على خديعة، على احتيال، على كِبر، على عجرفة، على غطرسة، فجمال الصورة، بل المبالغة في العناية بجمال الجسم وأناقة الثياب وفخامة المنزل من دون قيم أخلاقية، ومن دون تعبد لله عز وجل هذا الجمال وحده من دون مضمون مذموم عند الله:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ)

[سورة المنافقون: الآية ٤]

جمال القول

ويوجد جمال القول:

(وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)

[سورة المنافقون: الآية ٤]

كلام فصيح مزخرف مزين

جمال المنزل

وقد قال الله عز وجل٠:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

[سورة مريم: الآية ٧٤]

أي: منظر بيوتهم، وحدائقهم، وهيئاتهم، وأجسامهم، وثيابهم، ومركباتهم شيء جميل جداً، وهذا الآن في العالم بلغ درجة تفوق حد الخيال، جمال البيوت، وجمال المركبات، ولاسيما الأثرياء، أي كانوا على أموال، وعلى هيئة حسنة.

في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

الآن يوجد قصور ثمنها بالمليارات، من يشتريها ؟ تجار المخدرات، لأنها أعلى تجارة في الأرض.

عاقبة الجمال المذموم

إن العناية الفائقة والترف والزينة قال الله عنها:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ)

[سورة يونس: الآية ٢٤]

إن في أعماقهم كفرًا، وفي أعماقهم شركًا، وفي أعماقهم استعلاء، أما في ظواهرهم فأناقة ما بعدها أناقة، وجمال ما بعده جمال، وفخامة ما بعدها فخامة:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

[سورة يونس: الآية ٢٤]

أجمل مدينة في أمريكا مدينة سان فرانسيسكو، البيت في أي مكان ثمنه ستمئة ألف دولار، أما في هذه المدينة فثمنه خمسة ملايين، خمسة وسبعون بالمئة من سكان هذه المدينة شاذون، فالآن عندنا ظاهرة جمال يفوق حد الخيال، وخسة، ولؤم، وانحراف، وتحلل يفوق حد الخيال، هذا الجمال المذموم الذي توعد الله صاحبه بالهلاك والتدمير.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

[سورة مريم: الآية ٧٤]

والله أيها الإخوة الكرام، كتعليق على ما يجري في العالم من جرائم، ومن قتل، واللهِ أتمنى أن أرى خيمة متواضعة فيها إنسان صادق، لأن الكذب أصبح ديدن البشر، يتكلم بخلاف الواقع، يقتل، و يقهر، و يسلب، و يقول لك: جئت من أجل حريتك، الكلام يعاكس الواقع

الجمال الحقيقي

إذاً كما قال عليه الصلاة و السلام:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

رُبّ بيت متواضع جداً فيه إنسان يرحم الناس، ولا يكذب، هذا البيت على تواضعه، وعلى خشونته، وعلى بُعده عن مركز المدينة، وكيف أن الشمس قد لا تزوره أبداً، قد يكون تحت الأرض، و الذي يسكنه مؤمن مستقيم، هذا المنظر الذي لا يرضي العين، ولكنه يرضي الرب، وذاك القصر المنيف يسكنه تاجر مخدرات، طبعاً الآن من الأعمال المربحة في العالم تجارة الرقيق الأبيض، والدعارة، دخلها بالمليارات، فنحن لسنا مع هذا الجمال، ونعوذ بالله من هذا الجمال، ينبغي أن نحتقره، ينبغي أن نركله بأقدامنا، هذا جمال المال الحرام، هذا جمال المال الذي جمع على حساب صحة البشر، وعلى حساب شباب الأمة،

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

أيها الإخوة الكرام، آية أخرى، قال تعالى:

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة طه: الآية ١٣١]

أنت إذا رأيت بيتاً جميلاً، أو مركبة فارهة جداً ادع بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ))

[متفق عليه عن أنس]

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز إذا دخل مكان عمله يتلو هذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[سورة الشعراء]

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة طه: الآية ١٣١]

ورد في بعض الأحاديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنْ الْإِيمَانِ، إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنْ الْإِيمَانِ، يَعْنِي التَّقَحُّلَ))

[أبو داود، ابن ماجه]

ثياب العمل: أحياناً قد تجد مؤمناً ثياب عمله ثياب خشنة جداً، لكنه مساء يغتسل، ويتجمل، لكن هذا الذي يعمل عملاً شريفاً، فيه جهد كبير، ولهذا العمل ثياب متواضعة هذا قلامة ظفره أفضل عند الله من أي إنسان جمع المال الحرام، وتأنق في ثيابه، وتأنق في مسكنه.

أيها الإخوة الكرام، من هذه المقدمة نخلص إلى أن الجمال في الصورة، وفي اللباس، وفي الهيئة، وفي المسكن، وفي الأثاث، وفي المركبة أنواع.

أرسل سيدنا عمر كتابًا إلى بعض الولاة، قال فيه: " أما بعد ؛ فقد نُمِيَ إلي أنه قد صار لك هيئة حسنة في مسكنك ومطعمك، ومشربك وملبسك، ومركبك، ليست لعامة المسلمين، فاحذر يا عبد الله أن تكون كالدابة مرت بواد خصب فجعلت همها في السمن، وفي السمن حتفها ".

أنواع مظاهر الجمال

لذلك الجمال في الصورة واللباس، والهيئة والبيت، والأثاث والمركبة على ثلاثة أنواع، منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم،

المحمود

فالمحمود منه ما كان لله، أنت مؤمن، وحولك أناس متشككون في الدين، فإذا ظهرت بمظهر سيئ، بثياب رثة، بهيئة ليست مرضية، ببيت فيه فوضى، ليس نظيفاً، بمحل تجاري لا تحسد عليه، بمركبة ممتلئة بالقاذورات، كيف يحترمك ؟ كيف يحترم دينك ؟ فأنت حينما تتنظف، وتتجمل، وتتأنق، ويكون لك هيئة حسنة، هذه الهيئة تعين على إكبار الناس لك، ولدينك، وما لم تكن متجملاً متأنقاً منظماً لا يحترم دينك لذلك كان عليه الصلاة والسلام له ثياب خاصة يرتديها إذا لقي الوفود، وقال:

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ، وَلَا التَّفَحُّشَ))

[أبو داود وأحمد عن أبي الدرداء]

الإنسان أحياناً يتأنق، ويتجمل، ويعتني ببيته، يعتني بغرفة الضيوف، يعتني بمركبته حتى إذا نظر إليه إنسان لا يزدريه، ولا سيما في عصر الأناقة التي بلغت حدها الأعلى، أنا لا أدعو إلى الإسراف، بل أدعو إلى الحد الأدنى من التجمل، الحد الأدنى من النظافة، الحد الأدنى من الانسجام.

قد يعمل الإنسان في الحقل الديني مثلاً، ويركب الدراجة بحذاء من دون جوارب، من دون شريط،

هذا منظر غير مقبول، كيف يقنع هذا الإنسان الناس ؟ لا يقنعهم، يقنعهم بحد أدنى من التجمل، من الثياب الحسنة، من النظافة، من الأناقة أحياناً، فهذا النوع محمود، لأنه لله، ويعين على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، الناس يستجيبون لإنسان حسن الصورة، في التعليم أحياناً أستاذ الديانة أنيق جداً، منظم، واضح، مواعيده صحيحة، ينتزع إعجاب الطلاب، أما التأخر الدائم، والثياب غير أنيقة، والألوان غير مناسبة، والموقف غير سليم يكون قد أساء لدعوته بهذه الطريقة، فكان عليه الصلاة والسلام يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب، ولباس الحرير في الحرب، قال لأحد أصحابه: يا فلان، إن هذه المشية يبغضها الله ورسوله إلا في هذا الموطن.

فالتجمل والأناقة، والعناية بالمظهر، وأنت تمثل هذا الدين هذا شيء جيد جداً، هذا الشيء قد يؤدي إلى إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وإغاظة عدوه.

المذموم

ما كان للدنيا، لقد كان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص]

ثم يقول الله عز وجل:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

[سورة القصص: الآية ٧٩]

هنا موضوع ثان، هنا موضوع استعلاء وتباهٍ، و كسر قلب الفقير، انظر إلي، انظر إلى مالي، انظر إلى ثيابي، انظر إلى مركبتي، هذا مطلب موجود عند بعض الناس، همّه أن يستعلي عليك، تدخل بيته يريك كل أرجاء البيت، انظر إلى هذا الأثاث استورده من إيطاليا، انظر إلى هذه اللوحة كلفتني مئة ألف ليرة، انظر إلى.... يريد أن يستعلي، والمذموم ما كان للدنيا وللفخر، وللخيلاء والتوسل والشهوات، وأن يكون هو غاية العدل، وأقصى مطلبه، لا يوجد له هدف آخر إلا التمتع في الدنيا، التأنق والتمتع والانغماس في الملذات المحرمة، طبعاً يتوسل بهذه الزينة إلى أن ينتزع إعجاب الفتيات أحياناً، وكم من إنسان قد يكون طالباً في الجامعة يبالغ في أناقته لهدف واحد، أن ينتزع إعجاب الفتيات من حوله، مثل هذه النية السيئة هذه أناقة يبغضها الله ورسوله، فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك، هذا هو المذموم، والمحمود ما كان لله، ولإعلاء كلمة الله،

لا يذم، ولا يمدح

وما سوى ذلك لا يذم، ولا يمدح، اشتريت حاجة هي أنيقة، اشتريت حاجة بسعر رخيص، لكنها غير أنيقة، لأن دخلك محدود، فلا هذا الجمال محمود، ولا ذاك مذموم، هذه قضية حيادية لا تمس لا المحمود ولا المذموم.

يجب أن نعبد الله بالجمال

المقصود من هذا الموضوع أنه يشتمل على أصلين عظيمين، أوله: معرفة، وآخره سلوك، يُعرف الله عز وجل بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء.

الله عز وجل جميل، الله عز وجل نظيف يحب النظافة، الله عز وجل طيب، لا يقبل إلا طيباً، يوجد جمال، الذات الكاملة جمالها مطلق.

الآن ينبغي أن نعبده بالجمال

المظهر

ينبغي أن نعبده بالنظافة، لا يوجد رائحة فم كريهة، لا يوجد رائحة جسم كريهة، لا يوجد رائحة جوارب كريهة، يجب أن تعبده بالنظافة، لأنه نظيف، يجب أن تعبده بالطيب لأنه طيب، قدم طعاماً طيباً، ولا تقدم طعاماً تكرهه، قدم شيئاً نفيساً، الفكرة الدقيقة الآن كما أن الله جميل ينبغي أن تعبده بالجمال.

الجمال واسع جداً، هناك جمال الأقوال، تجد إنساناً أنيقاً يمزح مزاحاً فاحشاً:

جمال الجسم مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

هو أنيق لكن بذيء.

ثمة إنسان كان يرتدي ثياباً أنيقة جداً، وتكلم كلاماً بذيئاً جداً، فقال له أحدهم: إما أن تقول قولاً كثيابك، أو أن ترتدي ثياباً ككلامك، أي هذه الأناقة والجمال لا تتناسب مع بذاءة اللسان، فإما أن ترتدي ثياباً من نوع بذاءة لسانك، أو تتكلم كلاماً من نوع جمال ثيابك، فالله عز وجل ينبغي أن نعبده بالجمال، بجمال المظهر، والنظافة، هذا الجمال في الأقوال.

الأفعال

والجمال في الأفعال: إذا أعطيت إنساناً عطاء ينبغي ألا تمن عليه.

فالله عز وجل يحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، فاللسان جماله بالصدق، و قلبه بالإخلاص، جمال القلب بالإخلاص، و المحبة، و الإنابة، والتوكل، جمال العين غض بصرها عن محارم الله، جمال الأذن ألا تستمع إلى الخنا والغناء، وما شاكل ذلك، وجمال البدن بإظهار نعمة الله عليك في اللباس، والتطهير من الأنجاس و الأحداث، والأوساخ و الشعور المكروهة، والختانُ وتقليم الأظافر، فيعرفه الناس بصفات الجمال، ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة.

أيها الإخوة الكرام، أدق فكرة في هذا الدرس أن الله جميل، و ينبغي أن تعبده بالجمال، بجمال القول، وجمال الفعل، وجمال الثياب، والنظافة، والأدب، والأفعال المحمودة، والجمال مطلق، يوجد حركة جميلة، أحياناً تجلس فتضع رجلا فوق رجل باستعلاء، هذه جلسة غير جميلة، أما الجلسة الأديبة فهي جلسة جميلة.

أحياناً تقود مركبتك بجلسة فيها كبر جنابي، اجلس جلسة هادئة، يوجد جلسة جميلة، يوجد كلام جميل، يوجد حركة جميلة، أحياناً يوجد مشي فيه استعلاء، كبر، فلذلك أيها الإخوة الكرام، الله جميل يحب الجمال، و ينبغي أن نعبده بالجمال، جمال الأقوال والأفعال، والصفات والمظهر،

المقصود بجمال المظهر

وإذا قلت: جمال المظهر فلا أقصد الشيء الذي يكلف أموالاً طائلة، قد تكون من أقل الناس دخلاً، ومن أجمل الناس ثياباً، ثياب نظيفة، ألوانها منسجمة فقط، قد تكون من أقل الناس دخلاً، ومن أجمل الناس ثياباً، أنا لا أقصد أبداً بالجمال المكلف، هذا شيء لا علاقة له بدرسنا، لكن بإمكانك أن ترتب بيتك، أن ترتب مكتبك، أن ترتب عيادتك، أن ترتب دكانك، أن تصلح من شأنك، قال عليه الصلاة و السلام:

((أصلحوا دنياكم، و اعملوا لآخرتكم))

[الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف]

أحياناً تُزيل المدفأة فتبقى الأشرطة معلقة طوال العام، وهذا منظر مزعج جداً، أو باب له صوت مزعج ضع له قطرة زيت يذهب الصوت، دائماً أشياء تالفة غير منضبطة، غير متقنة، فحياة المسلم إذا لم يوجد بها جمال ينفر الطفل من البيت، إذا كان في البيت جمال يجذب الأبناء للبيت، فإذا أهمل شخص بيته، أهمل مظهره ينفر الناس من حوله، الجمال مطلب أساسي في الحياة، والمؤمن يستخدم الجمال لله، ولإعلاء كلمة الله، ولكف الألسنة عن أن يُنال بذم قبيح.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٨-٣٦) : أنواع الابتلاء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الإسلام للكون و الحياة و الإنسان

أيها الإخوة الكرام، لقد قدم الإسلام للإنسان تفسيراً عميقاً جداً ودقيقاً ومتناسقاً للكون وللحياة والإنسان، وبحسب المنظور القرآني والنبوي

خلق الإنسانُ للجنة في الأصل

خلق لجنة عرضها السماوات والأرض، ولأن الله هو الخبير، خبير بطبيعة النفس البشرية،

النفس البشرية لا تسعد إلا عقب جهد مبذول

النفس البشرية لا تسعد إلا عقب جهد مبذول من قِبل الإنسان، دقق في الحياة الدنيا، الذي ورث مالاً عريضاً وهو جاهل لم يبذل جهداً في تحصيله، ولم يبذل جهداً في تثقيف نفسه، تجده تافهاً على الرغم من غناه، أما الذي نال شهادة عليا بجهد كبير فهو يستمتع بالحياة أضعافاً مضاعفة مما يستمتع بها الجاهل.

الجنة التي خُلق الإنسان لها حياة دنيا يمتحن فيها

إذاً حكمة الله تقتضي أن تكون لهذه الجنة التي خلق الإنسان لها حياة دنيا يمتحن فيها، هل من معهد على وجه الأرض في القارات الخمس بلا امتحان ؟ مستحيل.

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

(سورة الأنفال الآية: ٤٢)

لو أن المدرس أمر بعدم نجاح الطالب بعلمه، يدّعي الطالب ويقول: إنه أول طالب في الصف، أما عقب الامتحان فيسكت.

إذاً أول نقطة في هذا الدرس، لا بد من أن تمتحن، شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

مستحيل أن إنساناً ينجو من الابتلاء، مهما كان عظيماً، حتى لو كان نبياً.

عَنْ سَعْدٍ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ))

[رواه الترمذي، وابن ماجه وابن حبان والحاكم]

أنت حينما توطن نفسك على أنه لا بد من أن تبتلى تتقبل الامتحان بنفس راضية، والابتلاء هو الامتحان، والامتحان عند الله بزمرتين من المقررات، بالسراء، هذه زمرة، وبالضراء هذه زمرة، بإقبال الدنيا أو بإدبارها، بالقوة أو بالضعف، بالغني أو بالفقر ، بالصحة أو المرض، بزوجة رائعة مؤمنة، أو وزوجة متعبة، لمجرد أن توطن نفسك على أنك مبتلى تتلقى هذا الابتلاء على أنه متوقع، وعلى أنه شيء طبيعي في الحياة، فلا ينجو إنسان كائناً من كان، مؤمناً أو غير مؤمن، من ابتلاء في ماله، في نفسه، في أهله، فيمن حوله في صحته.

لذلك أيها الإخوة، لا بد من الابتلاء، ولا خلاص لأحد إلا بالابتلاء، لا يمكن أن تنال الشهادة إلا بامتحان، بالضبط يجب أن تعد الابتلاء امتحانًا، لا يمكن أن تعطى دكتوراه إلا بامتحان، صعب،

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

أنواع الإبتلاء

الإبتلاء بالسراء

الآن أيها الإخوة، النقطة الدقيقة أنه يمكن أن تبتلى بالسراء، بالغنى، أنت حينما يأتيك المال فيجب أن تعلم أنك محاسب عليه، لذلك الناس يوم القيامة يسألون: من أين اكتسبوا ؟ وكيف أنفقوا ؟ فهم أربع فرق: فريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام، فيقال: خذه إلى النار، جمعه من حلال من تجارة مشروعة، لكنه أنفقه على الموائد الخضراء، والليالي الحمراء، فيقال: خذوه إلى النار. وفريق جمع المال من حرام، عنده ملهى، وأنفقه في حلال، تزوج، وأنجب أولادًا ، وربى أولاده، فيقال: خذوه إلى النار.

وفريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، هذا بديهي أنه إلى النار.

لكن الفريق الرابع جمع المال من حلال، وأنفقه في حلال، هذا يحاسب، قال: قفوه، فسألوه: هل تاه بماله على من حوله ؟ هل قال من حوله: يا رب، لقد أغنيته بين أظهرنا، فقصر في حقنا.

فأجمل ما في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام انتظر، انتظر، ثم قال: فما زال يسأل ويسأل، وهذا شيء ممل، فما زال يسأل ويسأل.

الإبتلاء بالضراء

إذاً أن توطن نفسك على أنه لا بد من أن تبتلى، وزمر الابتلاء زمرتان: السراء والضراء، بما يرضيك، وبما لا يرضيك، بما يسرك، وبما لا يسرك، بما يسعدك، وبما لا يسعدك.

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

(سورة الأنبياء الآية: ٣٥)

والفتنة الامتحان.

الآن أيها الإخوة، إلى بعض الآيات:

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الكهف)

شيء جميل، لكنك لا تملك ثمنه، أتصبر عنه أم تكسب المال الحرام من أجله ؟ هذا ابتلاء،

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

، تسكن في بيت والقانون معك، والبيت ليس لك، وأصحابه في أمسّ الحاجة إليه، و لكن هذا البيت أرقى، أيعجبك هذا البيت فتغتصبه بقوة القانون أحياناً ؟ امتحنك الله عز وجل، أم تعطيه لأصحابه لأنهم أحق به ؟ وعندك بيت آخر، هم ليسوا مكلفين أن تسكن في بيت كبير بأجر يسير.

وقت الإمتحان

صدقوا أيها الإخوة، أنك ممتحن في كل دقيقة،

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)

(سورة الأعراف الآية: ١٦٨)

يجعلك قوياً، هل تدعوك قوتك إلى ظلم الناس ؟ إنسان قدم لك نصيحة تسحقه، لأنك قوي، إنسان لم يبالغ في تعظيمك فتوقع به أذّى كبيرًا ؟ القوة امتحان، أعطاك مالاً، هل تنفقه في المعاصي والآثام، أم في البر والإحسان ؟

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الأعراف الآية: ١٦٨)

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

مدة الإمتحان و نتيجته

أحياناً البلاء قد تنجح فيه، وأحياناً لا تنجح، لكن الدقة وسأوضحها بمثل:

لو أن رجلين عاشا بعمر محدود، كل واحد عاش ستين عامًا، واحد امتحانه الفقر، والثاني امتحانه الغنى، افتراضاً لو أن الغني سقط في امتحان الغنى، فاستعلى بماله، وأنفقه في الحرام، ولو أن الفقير فرضاً نجح في امتحان الفقر، فصبر، وتجمل، وانتهى العمر، الفقير الذي عانى من قلة الدخل، وعانى من شغف العيش، ومن خشونته سيتمتع من جنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، والذي رسب في امتحان الغنى تمتع بالمال وقتًا محدودًا انتهى بالموت، وسيدفع ثمن هذا الرسوب إلى أبد الآبدين،

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

النص الآخر:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

(سورة البقرة)

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)

(سورة النساء الآية: ٧٩)

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران)

وطّن نفسك على أن تُمتحن

هذه آيات في كتاب الله، في مجملها يتضح أن الابتلاء حتمي، لذلك حينما سئل الإمام الشافعي رحمه الله: " أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال: لن تمكن قبل أن تبتلى ".

أنا بهذا الكلام لست متشائماً، لكنني واقعي، وطن نفسك على أنه لا بد من أن تمتحن، حتى ولو كنت مؤمناً.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

أيها الإخوة، آية أخرى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

عند المصيبة لا تلومن إلا نفسك

يمكن أنه كلما أصابتك مصيبة ـ لا سمح الله ولا قدر ـ أن تلوم زيداً أو عبيداً، أو فلاناً أو علاناً، فلان غدرني، وفلان أساء لي، لكن لو كنت فقيهاً، لو كنت متعمقاً في الدين لا تلومن إلا نفسك.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ـ الآن دققوا ـ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

الخير الذي أصابك محض فضل من الله.

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ))

شيئًا ما أعجبه، زواجًا غير موفق، تجارة غير رابحة، جارًا سيئًا جداً.

((وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

إخوانا الكرام، هذه بطولة، كلما أصابك مكروه دعك من الناس، ما الذي فعلته حتى أستحق من الله هذا ؟ تجد الإنسان الجاهل صخّابًا، يلعن فلانًا، ويلعن علانًا، ويندب حظه، ويتبرم ويسخط، ويقول

لك: الزمن صعب، وما فيه خير، واتّق شر من أحسنت إليه، هذا كلام إنسان لا يعرف الله، أما حينما تعرف الله تقرأ قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية: ١٤٧)

فيقشعر جلدك.

اتهم نفسك، لا تحابِ نفسك، اتهم نفسك، الله عز وجل غني عن تعذيبنا، غني عن إيقاع الأذى بنا، غني عن الألم، غني عن الفقر، هو غني، لذلك: عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمن بما يصلحك، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد .

إذا كنت في كل حال معي فعن حملي زادي أنا في غنى

***

الله موجود، ولا موجود سواه.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية: ١٠)

لا تقل: الطغاة البعيدون أوقعوا الأذى بنا، نحن السبب، وتقصيرنا جلب عدوان الطغاة علينا، بتفلتنا من منهج سلط ربنا الأعداء علينا.

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه، ولا يلومن إلا نفسه))

[علل ابن أبي حاتم]

صدقوا أيها الإخوة، أن منتهى العقل أن تلوم نفسك وحدها، أنا مقصر، هناك واجب لم أؤدّه، هناك معصية ارتكبتها، هناك مال ليس مشروعاً اكتسبته، هناك علاقة آثمة فعلتها، فاستحق من الله هذا التأديب، أنت حينما تتعامل مع الله في هذا المنطق، وبهذا الفهم، وبهذا التنزيه للذات العلية، لا يلومن أحد إلا نفسه،

لوم نفسك لا يعني عدم المطالبة بحقك

لا أنفي أن تطالب بحقك، لا، هذا موضوع ثانٍ.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

(سورة الشورى)

تطالب بحقك، هل أسمح لإنسان أن يقود مركبة بشكل طائش، وأن يرتكب حادثًا وأن أقول: هذا ترتيب الله ؟ لا، أحاسبه، وأضعه في السجن تأديباً له، هذا موضوع آخر ، أنا أتحدث عن التوحيد، لئلا تحقد على أحد، هذا الذي أوقع بك أذىً سمح الله له أن يفعل ذلك، ولولا هذا الذي وقع بك له حكمة بالغة قد تكشفها بعد حين لما وقع، لذلك عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أخرجه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء رضي الله عنه]

أنا أخشى أن يفهم من كلامي هذا أنه إذا دخل إلى بيت إنسانٍ سارقٌ يقول: هكذا ترتيب الله، ماذا نفعل ؟ سمح الله له، وتقف أنت مستسلمًا كما يفعل المسلمون اليوم، ينتظرون رد الفعل، هم لا يفعلون شيئاً، ينتظرون ماذا يفعل بهم، بين أن تفعل، وبين أن يفعل بك فرق كبير.

أوضحُ مثلٍ حديث الإفك:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور الآية: ١١)

أن تُتّهم السيدة الأولى، السيدة عائشة بالزنى ؟ خير، هكذا قال الله، لأن الله عز وجل امتحن المؤمنين، الذي ينطوي على إيمان ضعيف، أو الذي يقترب من النفاق روّج الخبر وفرح به، وفضح نبيهم، وأما المؤمن فظن في نفسه خيراً، واللهُ فرَزَ المؤمنين، أنت قد تقول: إن الذي روج الخبر لا ذنب له إنسان لأن الله شاء أن يفتضح هذا الأمر.

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

ردققوا في هذه الكلمة: التوحيد لا يعفي من المسؤولية، حديثي فقط من أجل ألا تحقد، من أجل ألا تنقم على أحد، من أجل ألا تسحق، لكن الخطأ خطأ، ومحاسب عليه.

أضرب مثلًا آخر: لو جاء مريض في حالة إسعاف، والطبيب المناوب يدير حديثًا آثمًا مع ممرضة، قال لهم: دعوه قليلاً، فمات، لو أن الطبيب قال: سبحان الله ! مات بأجله، هذا إنسان كاذب، يحاسب كقاتل، لأنه قصر، كان من الممكن أن يسعفه.

رتقول: هكذا ترتيب الله عز وجل، وترتيب سيدك، وماذا بيدنا، وما بيدنا شيء، هذا كله كلام زعبرة وتلبسة، أنت حينما تؤمن أن الذي وقع أراده الله هذا لا يعفيك من المسؤولية، تحاسب، لكن التوحيد من أجل ألا تحقد، من أجل ألا تندب حظك، من أجل ألا تتهم الله بالظلم، دقق:

(فَاعْلَمْ)

ما قال: فقل:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية: ١٩)

كل شيء بيده، وإن جاءني شيء لا يعجبني، جاءني قضاء مكروه، قال:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

(سورة محمد الآية: ١٩)

ما علاقة القسم الثاني بالقسم الأول ؟

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

، كل شيء وقع أراده الله، يا رب، لماذا أوقعت بنا هذا المصاب ؟ قال له:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

، لولا أنك فعلت شيئاً يستوجب هذا لما وقع، هذه الحقيقة المرة، لكن من السهل جداً أن تقول: استعمار، والموساد ، والغرب، وطغيان، القضية سهلة جداً، أنت مرتاح، لا تقدم ولا تؤخر، والأخطاء كلها أنت مصرٌّ عليها، وتتهم الطغاة في العالم، لا، الله عز وجل بيده كل شيء،

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

الإيمان بالقضاء والقدر لا يلغي السعي

الفكرة في هذا الدرس: أنه إذا أصابك بغي فينبغي أن تنتصر،

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

ولكن ينبغي ألا تحقد، لا تحقد، هذا الذي أوقع الأذى بك سمح الله له لحكمة بالغة بَالغةٍ بالغة، إذا كشفت لك ذبت لله محبة وشكراً.

كم من إنسان سُلّط على إنسان، فكان هذا التسليط سبب هدايته، وسبب توبته، أخشى ما أخشاه أن يفهم الدرس خطأً، أن نستسلم، أن نقعد، أن ننتظر ماذا يفعل بنا، الحياة فيها فعل، وفيها رد فعل، الإنسان الموفق يفعل، ويضع الآخرين في موقف حرج ، يتصرفون بحسب ما خطط، أما إذا قصر واستسلم، ومال إلى الراحة، ينتظر ما يفعل به ، الآخرون يخططون له، وهو ينتظر ماذا سيفعلون ؟ هذه مشكلة كبيرة جداً، البطل هو الذي يفعل، ويوقع الآخرين في حرج، الآخرون مكلفون برد فعل لفعله، أما إذا ترك المبادرة، واستسلم، ينتظر ما يفعل به، وهذه مشكلة كبيرة، في النهاية إما أن

تخطط، وإما أن يخطط لك، إما أن تخطط، وإما أن تكون رقماً لا معنى له في خطة عدوك. إذاً الإيمان بالقضاء والقدر لا يلغي السعي، والإيمان بالقضاء والقدر لا يلغي المسؤولية، والإيمان بالقضاء والقدر لا يعني أن تستلم.

أوضح شيءٍ لص دخل بيتًا، هل تقول: دخل بمشيئة الله، لا إله إلا الله، لكن أن تنهض، وتقبض عليه، وتسلمه للشرطة، ما كل قضاء نستسلم له، أما المرض ما بيدنا شيء، الأطباء قالوا: مرض عضال، أنا أستسلم، ماذا أفعل، أما عدو اقتحم بلادي أستسلم ؟ ممكن أن أصحح هذا الخطأ، لا أصحح ؟ هذا كلام مرفوض.

الناجحين في ابتلاء القوة والغنى قلة، وأن الناجحين في ابتلاء الضعف والفقر كثرة

الملخص: لا بد من أن نبتلى، شئنا أم أبينا، وقد نبتلي بالغنى، وقد نبتلى بالقوة، لكن الملاحظة أن الناجحين في ابتلاء القوة والغنى قلة، وأن الناجحين في ابتلاء الضعف والفقر كثرة، فلما سئل النبي عليه الصلاة والسلام، وخُيِّر: أتحب أن تكون نبيا ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يرماً فأشكره.

امتحان الفقر والضعف قد يكون أسلم من امتحان القوة، الغني يطغى أحياناً، والدليل:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

حينما يغتني الإنسان ينسى الله عز وجل، وهذا شيء ـ واللهِ ـ ملاحظ، في البلاد الغنية جداً أهلها استغنوا عن الله عز وجل، استغنوا عن طاعته، والبلاد التي تعاني ما تعاني لعل هؤلاء في العناية المشددة، الضغوط التي عليهم لعلها تدفعهم لباب الله عز وجل ، الضغوط التي لا تحتمل لعلها تدفعنا جميعاً إلى الصلح مع الله، لذلك:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

أختم هذا الكلام بقول الإمام الشافعي مرةً أخرى: " يا إمام، أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى ".

وطن نفسك أن هناك امتحانًا، وقد يكون الامتحان صعبًا، والبطولة ليست ألا تبتلى، البطولة أن تنجح فيما تبتلى، لست بطلاً إن لم تبتلَ، لكنك بطل إذا ابتليت، ونجحت في الابتلاء،

امتحانات النبي

امتحان الفقر

النبي عليه الصلاة والسلام امتحن بالفقر فصبر، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ:

((دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ فَقُلْنَا: لَا، قَالَ: فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ))

[مسلم]

امتحان الغنى

ابتلي بالغنى فأنفق، نجح، امتحن بالقهر في الطائف، فصبر:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى))

[السيرة النبوية]

امتحان النصر

امتحن بالنصر بمكة، دخل مطأطأ الرأس،

امتحان فقدان الولد

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عن أنس]

امتحن بتطليق البنتين

طلّقت بنتاه،

وامتحن بسمعة لا تحتمل بزوجته السيدة عائشة، وامتحن بالهجرة، امتحن بالغنى، والفقر، والنصر، والقهر، وموت الولد، وتطليق البنت، امتحن امتحانات لا تعد ولا تحصى، لذلك قال عن نفسه:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنهما]

هذا المقام العلي الذي وصله بعد امتحان طويل.

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة الآية: ١٢٤)

متى جعله إماما ؟ بعد أن امتحن ونجح.

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

(سورة الأنفال الآية: ٤٢)

تمتحن بالفقر، هل تمد يدك إلى الحرام ؟ تمتحن بالغنى، هل تنفق المال على ملذات لا ترضِي الله، تمتحن بالقوة هل تسحق من يعارضك ؟ يا رسول الله، مثّل بهم، مثّلوا بعمك حمزة، قال: لا أمثل بهم فيمثل الله بي، ولو كنت نبياً.

وجد تمرة على السرير، قال: يا عائشة، لولا أنني أخاف أنها من تمر الصدقة لأكلتها، تمرة اشتهت نفسه أن يأكلها، تمرة واحدة، الآن يبلع كل شيء، لا يعرف أحرام هو أم حلال.

أيها الإخوة،

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

أسأل الله عز وجل أن يعيننا على أن ننجح في الابتلاء.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (١٩-٣٦) : أسباب الصبر عن المعصية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف الصبر

أيها الإخوة الكرام، يمكن أن يعرف الإيمان بكلمة واحدة: إنه الصبر، لأن الله أودع في الإنسان الشهوات، وبإمكانه من خلالها أن يفعل كل شيء، لكن الله سمح له بأشياء، وحرم عليه أشياء، فحينما يضبط نفسه، ويتحرك في المساحة المسموح بها يكون مؤمناً، وحينما يتحرك من دون قيد أو شرط يكون كافراً، إذاً الإيمان هو الصبر.

الضبط بحث في علم النفس، يوضح هذا البحث الفرق بين الحيوان والإنسان، أيضاً في الحيوان شهوات، عند الحيوان المؤثر يقتضي الإجابة الفورية، كيف ؟ ضع أمام قطة قطعة لحم تجد استجابة فورية في أكلها، تملكها، لا تملكها، يجوز، لا يجوز، لعلها تحرج صاحب هذه اللحمة، مادام هناك طعام تشتهيه فلابد من أن تأكله، الحيوان تضربه فيضربك، لكن أحياناً الأب يضرب ابنه، والابن يبقى واقفاً، لعله يضرب صديقه لو ضربه، أما لو جاء الضرب من قِبل الأب يبقى في مكانه من دون أن يتحرك، الأمثلة كثيرة جداً، فالفرق بين الحيوان والإنسان أن في الحيوان مؤثر الاستجابة، والإنسان مؤثر تفكير استجابة، هذا ينقلنا إلى أن الإنسان أيضاً عنده شهوات، وهناك مؤثرات، لكن الإرادة التي هي قرار يلي المحاكمة، الإرادة تصميم على شيء تصميم على الامتناع، أو على الإقبال، القرار الذي يلي المحاكمة هو الإرادة.

أنواع الصبر

فلذلك أيها الإخوة، في هذا الدرس سأتحدث عن أسباب الصبر عن المعصية، بالمناسبة هناك صبر على الطاعة، أنت حينما تصلي عشرين ركعة هذا شيء متعب، إنك تصبر، وأنت في الصلاة، والأقرب إلى الراحة أن تبقى في البيت، هناك صبر على الطاعة، هناك صبر عن المعصية، وهناك صبر على قضاء الله وقدره، فأنواع الصبر ثلاثة.

بنود المحاكمة التي تسبق قرار الابتعاد عن المعصية

الحديث اليوم عن الصبر عن المعصية، المحاكمة التي تسبق قرار الابتعاد عن المعصية ما بنودها؟

علم العبد بقبحها و دناءتها

لأن القاعدة الأصولية أن الحسن ما حسنه الشرع، وأن القبيح ما قبحه الشرع، ولو ما أعجبك القبيح، ولم يعجبك الحسن، لأن هذا الشرع من عند خالق السماوات والأرض، ومن عند الخبير، و هو أعلم منك بأسباب سلامتك وسعادتك، فالمؤمن مستسلم لله عز وجل.

أضرب على هذا مثلاً دقيقاً: أن عالماً من دمشق ذهب إلى أمريكا، والتقى بمسلم حديث عهد بالإسلام، لكن من أساتذة الجامعات المتفوقين، وطُرح موضوع الخنزير، وهذا العالم الدمشقي جزاه الله خيراً تحدث ساعة وزيادة عن مضار لحم الخنزير، وعن الدودة الشريطية، وعن، وعن... فكان جواب هذا العالم: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه، أنا لا أحتاج لكل هذه التفاصيل، لأن الذي حرمه هو الخالق، ببساطة بالغة أنت مع طبيب تقرأ على لوحته بورد، يحمل البورد، لا تفكر أن تناقشه، لا تفكر أن تعترض عليه، لأنك واثق من علمه، فإذا حرم الله عليك شيئاً كمؤمن لا تحتاج إلى تعليلات، لأن هذا من عند الخبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: الآية ١٤]

إذاً حينما تعلم أن هذا الشيء محرم، وأن الله ما كان ليحرمه إلا لأنه يفسد عليك سلامتك وسعادتك، ولك ثقة بالله عز وجل تستجيب.

بالمناسبة، هذا الذي لا يقدم على شيء، أو لا يدع شيئاً إلا إذا علم الحكمة منه هذا لا يعبد الله، يعبد ذاته، لذلك قالوا: علة أية أمر أنه أمر.

تصديق سيدنا الصديق لرسول الله حينما قيل له: " إنه عرج إلى السماء قال: إن قال هذا فقد صدق".

هناك جزء في حياتنا أساسه الثقة، ألا تثق أن هذا القرآن كلام الله ؟ أثق، ألا تثق أن الله هو الخير المطلق والرحمة المطلقة ؟ أثق، إذاً مادام الله قد حرمه انتهى الأمر، قال له: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله قد حرمه.

العلاقة بين الشيء المحرم ونتائجه علاقة علمية

فحينما يحرم الله شيئاً يجب أن تعلم أن العلاقة بين الشيء المحرم ونتائجه علاقة علمية، معنى علاقة علمية أيْ علاقة سبب بنتيجة، أنا حينما أمنع ابني أن يجلس على مقعد معين فهذا المنع وضعي، المقعد أعد للجلوس، لكنني لسبب أو لآخر منعته على أن يجلس على هذا المقعد بالذات،

فإذا جلس فقد عصاني، لكن العلاقة بين المعصية وبين النتيجة ليست علمية، إنما هي وضعية، جلس على مقعد أعد للجلوس، لكن الأب منعه، فلما جلس عاقبه، فالعلاقة بين العقوبة والجلوس ليست علاقة علمية، بل هي علاقة وضعية، الأب وضع هذه القاعدة، أما حينما يضع الابن يده على المدفأة، وهي مشتعلة تحترق اليد، نقول: العلاقة بين وضع اليد واحتراقها علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة، أنت حينما توقن أن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة تستسلم لله عز وجل.

الحياء من الله

فإن العبد متى علم أن الله ينظر إليه، وأنه بمرأى ومسمع، وكان يستحي من ربه، يستحي أن يعصيه، والله مطلع عليه هذا سبب آخر.

علمه اليقيني أن المعاصي تزيل النعم

أنت حينما تعصي الله كأنك تطلب من الله أن يزيل عنك النعم، وهذا المعنى ورد بآية قرآنية، قال تعالى:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

[سورة سبأ: الآية ١٩]

معنى ذلك أن تكون المسافة بين البلدين مسافة طويلة، لا نبات، ولا شيء من هذا القبيل، أحيانا تنتقل مثلاً من بلد إلى بلد، لكن الطريق كله أخضر، وكله أكمات، وكله أشجار، وكله أنهار، لا تشعر أن المسافة طويلة، أما حينما تنتقل فرضاً من حمص إلى دمشق غير انتقالك من طرطوس إلى اللاذقية، يوجد فرق كبير.

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

يعني يا رب امحق بلادنا، يا رب اجعل بلادنا جرداء، هل في الأرض قوم يدعون بهذا الدعاء ؟ ما معنى الآية إذاً ؟ أنت حينما تعصي الله كأن لسان حالك يقول: يا رب دمرني، يا رب أزل عني النعم، يا رب امحقني، يا رب أفقرني، يا رب عاقبني، لسان حالك هكذا، إذاً السبب الثالث أن المؤمن يوقن أن المعاصي تزيل النعم، قال تعالى:

(لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

[سورة الجن: الآية ١٦]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: الآية ٦٦]

قال:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

خوف الله وخشية عقابه

إن لكل سيئة عقاباً، حتى إن بعض الشباب ممن تتلمذ على بعض الشيوخ، وقد أعلمه شيخه أن لكل سيئة عقاباً، فلما زلّت قدمه بحسب كلام شيخه هو ينتظر العقاب، لم يحدث شيء، مضى أسبوع، وأسبوعان، ثم ناجى ربه فقال: يا رب، لقد عصيتك فلم تعاقبني ؟ قيل: وقع في قلب هذا الشاب: أنْ يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟

أنت حينما تكون في طاعة فالطريق إلى الله سالك، والخط ساخن، والخط مفتوح دائماً، أما حينما تعصي الله فالطريق إلى الله مسدود، والخط غير ساخن، ومقطوع، وما قيمة جهاز هاتف غال جداً، لكن بلا خط هاتفي، لا قيمة له إطلاقاً، فالإنسان حينما يعصي الله يقطع العلاقة بينه وبين الله.
حدثني أخ زار هولندا، وتصفح مجلة رأى فيها إعلانًا لهاتف خلوي، أن رجل دين تشع الأنوار من رأسه موصول بالله مرت فتاة متبذلة، فأحدّ النظر فيها، فأطفأت أنواره، ثم قيل له: بهذا الخط تعيد الاتصال مع الله، هذا كإعلان، لكن الإنسان حينما يعصي الله ينقطع، ويصبح خطه مع الله مقطوعاً، وطريقه إلى الله غير سالك، إذاً السبب الرابع خوف الله وخشية عقابه.

السبب الأقوى لترك المعاصي حب الله

الذي يحب الله عز وجل، والذي يسوق نفسه إلى بابه بدافع الحب هذا أعلى من الذي يسوق نفسه إلى بابه بدافع الخوف، لأن العلاقة التي أرادها الله بين العباد ورب العباد علاقة حب، لذلك الله عز وجل قال:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: من الآية ٢٥٦]

لا يريدك إلا أن تأتيه طائعاً، أن تأتيه محباً، أن تأتيه بمبادرة منك، لأنه يحبهم، ويحبونه، أراد الله أن تكون العلاقة بينه وبين عباده علاقة حب، فالذي يعصي الله يعبر عن عدم حبه لله، فحينما تنعقد صلةُ الإنسان بالله يخشى على هذه الصلة أن تنقطع، هو يستقيم لأنه يحب الله، هذا الذي أحب فتاة سواء قيس لبنى أو مجنون ليلى، يحبها وبعيره يحب ناقتها من شدة محبته لها، يضاف إلى هذا البند أن المحبة وحدها لا تكفي، بل لابد من أن تقترن بإجلال المحبوب، فقد يحب الإنسان ابنه الصغير، لكنه لا يجله، ينبغي أن تقترن محبة الله عز وجل بالإجلال، جل جلاله.

بالمناسبة، أنت في علاقاتك الاجتماعية قد تجد إنساناً تحبه، ولا تجله، أو إنسان له والدة يحبها حباً جماً، لكنها غير متعلمة، هو معه دكتوراه، فيحبها، ويتمنى رضاها، وهو في خدمتها، لكنه يعلم أن أفقها ضيق جداً.

مرة امرأة ما صدقت أن الإنسان صعد إلى القمر، الدليل أن حجمه صغير جداً، لا يتسع لإنسان، هكذا ثقافتها، إنسان ألقى درساً في المسجد، وظن أن حبل السرة فيه هواء يتنفس الجنين عن طريقه، فالإنسان أحيانا يكون أفقه محدودًا، ويتكلم، قد تحبه، ولا تجله، وأحيانا يكون عندك أستاذ في الجامعة تقدر علمه، ولا تحبه، تقول عنه: لئيم، قاس، لا يرحم، تجله ولا تحبه، وقد تحبه ولا تجله، لكن أعظم ما في الذات الإلهية أنك بقدر ما تجله بقدر ما تحبه.

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن: الآية ٧٨]

الفطرة

الله عز وجل فطرك فطرة عالية عزيزة، تحب أن تكون عالياً، تحب أن تكون عزيزاً، هذه الفطرة تمنعك أن تعصي الله، فكيف بإنسان له مكانة في المجتمع، والطريق ممنوع، لا يمر في الطريق الممنوع مع أنه أقصر، يقول لك: أنا لا أتضعضع أمام شرطي، مكانتي لا تسمح لي أن أعتذر أمام شرطي، فيسلك الطريق الأطول المسموح، ولا يسلك الطريق الأقصر، لأن مكانته كبيرة جداً.

قوة العلم بحتمية عاقبة المعصية

أحد الأسباب أيضاً التي تمنعك أن تعصي الله: قوة العلم بحتمية عاقبة المعصية، والله أيها الإخوة، وهذا الكلام خذوه على محمله الحقيقي: يكاد المؤمن، يكاد لا تعني أن الشيء وقع، لو قلت: كدت أقع هل وقعت ؟ هذا الفعل عجيب في اللغة، إن أثبته فهو منفي، وإن نفيته فهو مثبت، ما كدت أقع حتى قمت، معنى هذا أنني وقعت، مع أن الفعل منفي، أما كدت أقع، لم تقع، يكاد المؤمن يعلم الغيب، هل يعلم الغيب ؟ لا، أما حينما ترى إنسانا يأكل أموال الناس بالباطل، حينما ترى إنسانا يزهق أرواح الناس بالباطل يجب أن تعلم علم اليقين أنه لابد له من مصير أسود، تكاد تعلم الغيب، لذلك الإنسان المستقيم أنا أكاد أقول: تنتظره حياة طيبة، والإنسان المنحرف أكاد أقول: تنتظره مصائب تلو المصائب، هذه قضايا ثابتة، أنت لو قيل لك: إنسان يركب مركبة في طريق ضيق، عن يمين الطريق واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، والطريق كله انعطافات، وفي الليل وفجأة انطفأ ضوء المركبة، تقول: الحادث حتمي، الطريق متعرج، فالحادث بالمئة مئة، هل معنى ذلك أنك تعلم الغيب ؟ لا، تعلم القوانين، و كذلك الذنوب تميت القلوب، وتفقر بعد الغنى، والرزق ينقص بعد العطاء، ويحرم حلاوة الطاعات، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ وكل ذنب يستدعي ذنباً آخر، والإنسان

بالتعبير المعاصر باللغة الأجنبية (ديناميكي)، ويقابله (ستاتيك) أي سكوني، فكل طاعة تستدعي طاعة، يقول: تداعيات، مصطلح يستخدم بالأخبار، المعصية تداعياتها معصية أخرى، معصية ثالثة، رابعة.. والطاعة تداعياتها طاعة ثانية، ثالثة، رابعة، خامسة، ويعلم الإنسان أن هذه المعصية فوت عليه من الخير الشيء الكثير.

ثبات شجرة الإيمان في القلب

شيء آخر يدعو إلى ترك المعاصي، وهو جامع لكل هذه الأسباب: ثبات شجرة الإيمان في القلب، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، حتى أكون واقعيا المعاصي محببة، هؤلاء المنغمسون بالمعاصي، كالبهيمة تماماً، رأوا قطعة لحم فأقبلوا عليها، ألغيت المحاكمة في أذهانهم، المعاصي تتوافق مع الطبع، والمعاصي تتناقض مع الفطرة، فلذلك لو أن المعاصي غير محببة لابتعد الناس عنها، أكبر شاهد أن العمل الحرام محبب، والعمل الحلال فيه مشقة،

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

هكذا استرخاء، تأكل ما تشاء، تلتقي مع من تشاء، تفعل ما تشاء، تتكلم ما تشاء،

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد]

هناك جهد، يقول لك: تكاليف، أي ذات كلفة، تكلف الإنسان جهداً ومشقة، فقوة الإيمان في القلب تدعو العبد إلى الصبر عن المعاصي، وكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، هذا أكبر سبب يعين على الصبر، قوة الإيمان، و هناك شواهد كثيرة من حياتنا.

دخل طالب كلية الطب، فبنى آمالا أن يأخذ دكتوراه، ويسافر إلى بلاد بعيدة فيأتي بالبورد، ويفتح عيادة، وهو في أناقة، في ملبسه، أناقة في بيته، محترم، معزز، مبجل، دخلٌ فلكي، يدعى لمؤتمرات، هذه الصورة الجميلة، وهو يدرس الساعة الثانية، وهو يقول: سأتابع حتى أنجح، ما الذي يدعوه إلى الصبر على الدراسة ؟ هذه الرؤية لمستقبل الإنسان حينما يتخرج، فلذلك أنت حينما تعلم ماذا ينتظر المؤمن من سعادة أبدية تصبر على كل شيء.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢٠-٣٦) : علم النفس الإسلامي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع حكمة من حكم ابن القيم رحمه الله تعالى، لكن هذه الحكمة متعلقة بشأن نفسي، إن صح التعبير، متعلقة بعلم النفس الإسلامي،

لمن هذا الحديث

ولا بد قبل أن أشرح هذه الحكمة من أن أستبعد إنساناً خارج السلوك إلى الله، تماماً كما لو تحاور طالبان في الجامعة، وكل منهما بث همه لأخيه، الأول يشعر بكآبة أحياناً، لأنه يرى هذا الفرع على من إمكاناته، والثاني يشعر براحة، لأن هذا الفرع متناسب مع ميوله، هناك شخص ثالث أمي لا يقرأ ولا يكتب، متعته في لعب النرد، وصحبة الأراذل، وهو في قمة نشوته إذا انخرط في هذا الوسط المتدني، فهذا الثالث لا علاقة له بالموضوع إطلاقاً.

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

***

فالإنسان إن كان بعيداً عن طريق الإيمان لم يسلك طريق الإيمان، لم يبحث عن الحقيقة في الكون، لم يبحث عن أسباب سلامته وسعادته، لم يفكر في آخرته، هذا الإنسان لا علاقة له بالموضوع إطلاقاً، سروره هذا في سذاجة، وفي إغلاق، وفي بُعد عن أن يكون في عداد هؤلاء.

أحوال الناس

الآن بشكل دقيق: ألا تشعر أحياناً أنك في قمة سعادتك ؟ وتشعر أحياناً أخرى أنك متضايق، وأنت في طريق الإيمان، ذلك أن بعض التابعين يقول: " التقيت مع أربعين صحابياً ما منهم واحداً إلا وهو يظن نفسه منافقاً "، من شدة خوفه من الله، ومن شدة حرصه على أن يكون من الناجين.
وقال بعضهم: " المنافق يعيش في حال واحد أربعين عاماً، والمؤمن يتقلب في اليوم بأربعين حالاً "، حالة رضا، حالة قلق، حالة خوف، حالة سرور، حالة إقبال، حالة جفاء، حالة حجاب، لأنه صادق، ولأنه يبحث عن رضاء الله عز وجل، يعتوره أربعون حالاً، بينما المنافق لأن أهدافه مادية محضة، وقد تحققت، هدفه المتعة، هدفه المال، هدفه المتع الرخيصة، يقول لك: أنا أسعد الناس، كلامه صحيح ضمن أفقه، وضمن محدوديته، ومستواه المتدني، إذاً هذا الذي لم يسلك طرق

الإيمان، ولم يبحث عن رضاء الله عز وجل ، ولم يفكر بالآخرة، ولم يبحث عن سلامة نفسه وسعادتها، هذا خارج الموضوع.

الآن وأنت في طريق الإيمان، وأنت في رحلة معرفة الله، وأنت في رحلة العمل الصالح، ألا تشعر أحياناً أنك سعيد جداً، وقد تأتي أحيان أخرى قد تشعر بانقباض، ومعظم الإخوة الكرام يشكُون هذا الوضع، في البدايات كان في قمة سعادة التي لا تعدلها سعادة، يقول لي: أحدهم كدت أطير من شدة السعادة، ثم تخبو هذه الأحوال، فينكر قلبه، وفي داخل برنامجك اليوم أن تراقب قلبك، مقبل هو أم معرض، متألق أم خافت، في إقبال أم في إدبار، في نشاط وفي العبادة أم في ضعف في أداء العبادات، في تفاؤل أم في شيء من التشاؤم، هل دخلت في هذا الموضوع ؟ إن دخلت في هذا الموضوع فهذا الدرس يعنيك.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

الحال الأول: مَن فقد أنسه بين الناس ووجد الأنس في الوحدة فهو صادق لكنه ضعيف

يعني في بيته، في خلوته، وحده يشعر بسعادة، فإذا كان مع الناس فقد هذه السعادة، وأحياناً يكون الإنسان في الحج أو العمرة، وما دام يطوف وحده، ويناجي ربه ويبكي، ويدعو فهو في قمة سعادته، لمجرد أن يلتقي بأخ في أثناء الطواف ويمشيان معاً فقَد حاله، أنا أنصح إخوتنا في العمرة أو في الحج أن ينفردوا، هذا وقت شحن، وقت خلوة مع الله، لا وقت لقاء مع الناس، اللقاء مع الناس في بلدك، أما في الحج والعمرة فأنت بحاجة إلى خلوة مع الله عز وجل.

إذاً هناك إنسان وحده يشعر بالتألق، يشعر بحال، فإذا خالط الناس فقَد هذا الحال، هذه حالة. هذا لا يستطيع مَن يقود مِن حوله، حاله أضعف من أن يؤثر فيمن حوله، لكنه إذا انفرد مع نفسه في خلوته يتألق، هذا أقرب إلى أن يكون عابداً، ليس عنده إمكان أن يؤثر في الآخرين، وما عنده حال قوي يغلب أحوالهم.

لكن المشكلة أنه لا له حال بالوحدة، ولا له حال مع الناس، هذا خارج موضوعنا، هذا خارج هذا الدرس.

الحال الثاني: ومن وجده بين الناس، وفقده في الخلوة فهو معلول

بين الناس له سمعة طيبة، وطليق اللسان، إذا جلس بين الناس تألق، لكن لا يستطيع أن يجد هذا التألق في خلوته، لا نقول: هو سيئ، لكن عنده مشكلة، هناك مخالفة تحجبه عن الله إذا خلا معه، هناك تقصير أبعده عن الله إذا خلا معه

إخواننا الكرام، الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، لك أن تكون مع الناس، الأنبياء كانوا مع الناس، لكنهم إذا خلوا بأنفسهم كانوا في تألق.

النبي عليه الصلاة والسلام يؤم أصحابه، كان لا يثقل على أصحابه في الصلاة، كان أخف الناس صلاة في تمام، لكنه إذا خلا ليصلي أطال.

مرةً اقتدى به بابن مسعود والنبي لا يعلم، فقرأ صلى الله عليه و سلم سورة البقرة، فقال ابن مسعود: لعله يركع، ثم قرأ آل عمران، لعله يركع، ثم قرأ النساء، حدثنا ابن مسعود عن صلاته في خلوته شيئاً لا يصدق.

ألك حال مع الناس ؟ في مسجدك ؟ أم في خلوتك ؟ طبعاً إن لم تشعر بشيء لا هنا ولا هنا فهناك مشكلة كبيرة جداً.

الحال الثالث: ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

هذا الذي يفقد حاله مع الناس وفي خلوته ميت.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: ٢١)

لا يتأثر لا بقرآن، ولا بذكر، ولا باتصال، ولا لموعظة، ولم تنحدر من عينه دمعة، ولا يشعر بوجل، مع أن المؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال)

الحال الرابع: من وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي

تجلس بمجلس، تلفت النظر، يطغى حالك على حالهم، يطغى الحق على الباطل، يطغى القرب من الله على البعد عنه، لذلك ورد في بعض الآثار: " أولياء أمتي إذا رؤوا ذكر الله بهم ".

كلما ارتقيت في سلم الإيمان إذا رآك إنسان يفكر في أن يتوب إلى الله، يفكر أن يصطلح معه، يفكر أن يتابع عمله الصالح، هذه أعلى مستوى، الذي يفقد أنسه بين الناس ويجده في الوحدة فهو صادق، لكنه ضعيف، والذي يجد أنسه مع الله وفي الناس وفي الوحدة وفي الخلوة فهو صادق قوي، لذلك

هناك موضوعان، موضوع الاختلاط والعزلة، والمقياس أنك إذا جلست مع عدد من الناس، واستطعت أن تؤثر فيهم، وأن تغيّر مسار الحديث، وأن تغيّر مسار القيم في هذه الجلسة فكن مع الناس، وإن وجدت نفسك، وأنت مع الناس قد فقدتَ أحوالك، وفقدتَ منطقك الإيماني فابتعد عنه، إنها لعبة شد الحبل، إن استطعت أن تشدهم إليك فكن معهم، وإن خفت أن يشدوك إليهم فابتعد عنهم. أيها الإخوة، إذاً معنا أربع حالات: من يفقد أنسه بين الناس، ويجده في الوحدة، فهو صادق ضعيف. ومن يجده بين الناس، ويفقده في الخلوة فهو معلول، هذا عنده مشكلة، إما في عنده شبهة لم تحل، أو عنده صغيرة هو مصرّ عليها، وإذا أصر العبد على ذنب حجبه عن الله، وقد يكون صغيراً، وإذا كانت عنده شبهة فهذه الشبهة تحجبه عن الله عز وجل، أو عنده صدق، لكنه معلول، عنده مشكلة بصحته لا بد لها من معالجة، ومن فقد أنسه بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجد أنسه في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي.

أنواع الفتح

الآن متابعة لهذا الموضوع:

ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيدُه إلا منها

الفتح أيضاً كلمة لا يعرفها إلا من ذاقها، أحيانًا تقرأ القرآن فتشعر بانطلاق عجيب، تقرأ ساعة أو ساعتين، وتشعر أن لك صوتاً ندياً، أنت في الأصل لا تملك هذا الصوت، تشعر براحة وبانطلاق، وبنمو، هذا حال، إذاً: مَن كان فتحه، من كان تألقه، من كان حاله، من كان إقباله في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها، واللهُ عز وجل حكيم، أقامك مقاماً وأنت في الخلوة، هكذا أقامك الله عز وجل.

ومن كان فتحه بين الناس في نصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم

إذا أراد أن يزداد فتحُه فيجب أن يبقى مع الناس، لأن الله أقامه في الدعوة، أقامه في التعليم، أقامه في خدمة الخلق، أقامه خادماً لهم، يتألق إذا خدمهم، مزيده من الأحوال والقرب، والتألق، بين الناس، إذاً ليكثر لقاءاته مع الناس.

ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث أقامه وفي أي شيء استعمله

هذا مرتبة أعلى بكثير، لأن الله عز وجل أحياناً يلقي في قلبك السكينة وأنت وحدك، في نزهة، أنت منفرد مع الله عز وجل تتأمل آيات الله، تستمع إلى آيات القرآن، تشعر بقرب من الله عجيب، وهناك إنسان يحترم قرار الله عز وجل

سيدنا أبو هريرة كان أكثر أصحاب رسول الله رواية عن رسول الله، أقامه الله في رواية الحديث، سيدنا خالد لم يروِ حديثًا عن رسول الله، كان قائداً، فهو يخطط في المعركة في أعلى درجات القرب، لكن بغير بكاء، فكل واحد يقيمه الله عز وجل مقاماً يتناسب مع صدقه ومع إمكاناته، ومع رغبته واختياره، وهناك إنسان يستسلم لله حيث أقامه، فتح عليه مع الناس، يزداد، فتح عليه في الخلوة يزداد، فتح عليه بعمل صالح، فتح عليه بالتأليف، تجد الشخص قد فتح الله عليه بالتأليف، لا يستطيع أن ينطق كلمة في درس عالم، له ٥١ مؤلفًا، ١٠٠ مؤلف، وفي مصر عالم ما ترك كتابًا، ولكن كل أشرطته أصبحت كتباً، الله عز وجل فتح عليه في إلقاء الدروس، فكان حوله فريق كبير جداً أخذوا هذه الدروس، وفرغوها، وقلبوها إلى كتب، له مئة كتاب تقريباً، ما ألف واحدًا منها، إلا أنه ألقى الدروس، وهذه الدروس فرغت، ونقحت، وأصبحت كتباً.

هذه حالةٌ إنسانٍ راضٍ عن الله، مستسلم له، فتح عليه في الخلوة، فهو يزداد في خلوته مع الله، فتح عليه في جلوته يزداد في جلوته مع الله، فأشرف الأحوال ألا تختار لنفسك حالة، اللهم خر لي، واختر لي، يا رب، أنا جندي للحق، استعملي كما تريد.

أحيانا ينجح الإنسان في بناء المساجد، يقول لك: بنيت عشرين مسجدًا، فتح الله عليه في بناء المساجد، وإنسان آخر فتح الله عليه في التأليف، وغيره فتح الله عليه في الدعوة، لذلك قالوا: إما أن تؤلّف القلوب، وإما أن تؤلف الكتب، تأليف الكتب أقلّ أثراً وأطول أمداً، تأليف القلوب أعمق أثراً وأقلّ أمداً.

هناك علماء كان في درسهم أربعمئة عمامة، فلما انتقلوا إلى الرفيق الأعلى انتهى الدرس، لكن لهم كتب، هذه الكتب بعد ألف عام ينتفع الناس بها، فإما أن تؤلف الكتب، وإما القلوب، وإما أن تكون في خدمة المساجد، وإما أن تكون في إعمار المساجد، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، لكن من هو الشقي ؟ الذي لم يستعمله الله عز وجل.

على ماذا يقلق المؤمن؟

كنت أقول دائماً: لا تقلق على هذا الدين، إنه دين الله، ولكن اقلق ما إذا سمح الله أو لم يسمح أن تكون جندياً له، الله عز وجل قادر أن ينصر دينه بالرجل الفاجر، واللهُ قادر أن ينصر المسلمين بأعدائه، لكن هذا حرمان للمؤمنين.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد الآية: ٤)

لذلك قل: يا رب، خر لي، واختر لي، تفتح علي وأنا بين الناس، أنا راضٍ، تفتح علي، وأنا في خلوتي، أنا راض، تفتح علي بعمل صالح، أنا راض يا رب، تفتح علي في الدعوة، أنا راض، تفتح علي في التأليف، لكن الشقي الذي ليس عنده عمل يتقرب به إلى الله، الشقي الذي يأتي يوم القيامة صفر اليدين، ماذا فعلت، أم ماذا كنتم تعملون ؟

المؤمن متميز

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(سورة المدثر)

إخوانا الكرام، لاحظوا الآن في الإعلام الدولي، الناس يخوضون مع هذا الإعلام، توضع مسلسلات فيتابعونها، وأخبار يتابعونها،

(نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

أيْ ما له رأي شخصي، وبالتعبير المصري بهذه الهيصة، هيصة منخرط فيها ،

(نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

(سورة المدثر)

لكن المؤمن متميز، المؤمن لا يتأثر في بيئته، بل يؤثر في بيئته، المؤمن لا يكون همه الطعام والشراب، ولا المتعة الأخرى، ولكن همه طاعة الله عز وجل.

كيف يكون المؤمن مع الله

قال:

كن مع مراده منك، ولا تكن مع مرادك منه.

" عبدي، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

ما هو الإيمان ؟

أيها الإخوة، لا شك أن الإيمان عِلم، والإيمان عقيدة، والإيمان فهم، والإيمان حقيقة، ولا شك أن الإيمان حال مع الله، وأن الإيمان سعادة، وأن الإيمان تألق، وأن الإيمان قوة نفسية كبيرة جداً،

الآن المؤمن القوي إذا انهار الناس فهو متماسك، وإذا تشاءموا هو متفائل، وإذا يئسوا فهو راض عن الله، هناك فرق جوهري بين المؤمن وغير المؤمن، أحياناً يأتي على الناس حال إحباط، حالة خطيرة جداً، طبعاً الآن هناك إحباط شديد، وشعور أن الكافر متفوق جداً، وأمره نافذ، ويتسلى بالشعوب الضعيفة، ويتفنن في إذلالها، وأنت تنتمي لشعب مِن بلد نامٍ، فهناك حالة إحباط عامة، المؤمن أرجو الله أن يتجاوزها، أن يثق بالله عز وجل، أن يثق بنصره، أن يثق بأن الله لا يتخلى عنا، فثمة شعور وإدراك عام، الله عز وجل كلفني أن أعبده، وأنا لست قوياً أستطيع أن أغير مسار العالم، أنا ضعيف، أنا يكفيني أن أطيعه، وعلى الله الباقي، وأجمل آية في هذا الوقت:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

تنتهي مهمتك أن تعبد الله، طبعاً أن تحمل هم المسلمين، أن تخفف عنهم، لكن قد لا تستطيع أن تعل شيئاً، اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك، ولا أملك، أحيانا أتألم، أحيانا أبكي، وأنا أشاهد ما يجري في العالم، أحيانا أدعو الله أن يخفف عن المسلمين، لكن هو أرحم مني، وله حكمة قد لا أعرفها، فأنا راض عن الله، ومستسلم له.

فيا أيها الإخوة، كما قال سيدنا عمر: " تعاهد قلبك "، لا حظ نفسك هل هناك راحة ؟ وإقبال ؟ وتألق؟ لك حال مع الله ؟ أما الذي ليس به حال لا مع الناس، ولا في خلوته فهذه مشكلة كبيرة جداً. أحياناً يشتبه على الطبيب الوفاة، يجس النبض، ليس هناك لا حركة، ولا رفة ، يقول: ائتوني بمرآة، فيضعها على أنف المشتبه به، ليس هناك بخار ماء، ولا نَفَس، ائتوني بمصباح، فيضعه في عينه، ما صغرت الحدقة، يقول لهم: عظّم الله أجركم، هذا ميت، لا نبض، ولا تنفس، ولا استجابة للضوء، فهو ميت، أحياناً يكون الإنسان ميتًا، لا خير فيه، دابة في الليل جيفة في النهار، في النهار حديثه نتن، ومزحه جنسي، وتعليقاته سخيفة، ونفس مستكبرة، مثل الجيفة، بالليل دابة، هذا خارج موضوعنا، أما إذا كان طالبان في الجامعة أحدهما عنده كآبة، والثاني عنده تألق يتحاوران. نحن درسنا في الحالة الثانية.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢١-٣٦) : القرآن الكريم كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته:

أيها الأخوة الكرام، مع حكمة من حكم ابن القيم ـ رحمه الله عز وجل ـ في كتابه الفوائد، يقول: " القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال. قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

(سورة الرحمن)

فإذا تجلى بجلباب العظمة والجلال تخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الله، فيستنفذ حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، فلا يحب إلا الله بحسب ما عرفه من صفات جماله، ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فإذا أراد من الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه كل الإباء، فتبقى المحبة له طبعاً لا تكلفاً ".

سيدنا عبد الله بن رواحة عُيّن القائد الثالث في معركة مؤتة، أول قائد استشهد أمامه سيدنا زيد بن ثابت، وثاني قائد استشهد أمامه، فجاء دوره، وكان شاعراً، قال بيتين يستغرقان عشر ثوان:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيتِ وإن توليتِ فقد شقيـتِ

***

وأخذ الراية، وقاتل بها حتى قتل، النبي عليه الصلاة والسلام أطلعه الله على ما جرى في مؤتة، فقال: أخذ الراية أخوكم زيد، فقاتل بها حتى قتل، وإني أرى مقامه في الجنة، ثم أخذها أخوكم جعفر، فقاتل بها حتى قتل، وإني أراه يطير بجناحين في الجنة، سيدنا جعفر ذو الجناحين، وسكت النبي عشر ثوان بقدر تردد عبد الله بن رواحة، فقالوا: ما فعل عبد الله ؟ قال: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، تردد عشر ثوان في بذل أغلى ما تملك، روحك ونفسك، هبط المقام، فكيف حال المسلمين اليوم ؟ إنهم غارقون في

المعاصي، والآثام، والاختلاط، والغيبة، والنميمة، والكيد لبعضهم، هذا يفسر لكم كيف أن عشرة آلاف صحابي رفرفت راياتهم في أرجاء الأرض، وحاربوا أقوى دولتين وقتها تماماً كاليوم كيف لو أن جماعة في دولة نامية متخلفة صحراوية، تستطيع أن تهزم القوة الأولى في العالم بأسلحتها الجبارة، النسبة واحدة.

الله عز وجل يريد من الإنسان أن يهابه و يحبه ويخافه ويرجوه:

وإذا تجلى بصفات الرحمة، والبر، واللطف، والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوي طمعه، وسار إلى ربه، وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جدّ في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في الغلة أغرق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

يتجلى تارة باسم الجلال، وتارة باسم الكمال، وتارة باسم الرحمة، بالجلال تهابه، بالكمال تحبه، بالرحمة ترجوه، والله عز وجل يريدك أن تهابه، وأن تحبه، وأن تخافه، وأن ترجوه، قال: يا رب، إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.

التعليق: ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، وإذا تجلى بصفات العدل، والانتقام، والغضب، والسخط، والعقوبة قمعت النفس الأمارة، وبطلت، أو ضعفت قواها من الشهوة، والغضب، واللهو، والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعونتها فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر، صفات العدل.

والله سمعت قصة من قريب لي من ثلاثين عاماً، أن إنساناً نَقَم على هرة، فشنقها، فقال له رجل يعرف الله: تب إلى الله، واستغفر من ذنبك، وادفع صدقة، فازداد سخرية وكبراً، هذا كان ضابطًا في الجيش العثماني، انسحبت قوات الجيش العثماني، وأصبح من أكبر معاوني كمال أتاتورك، وعينه حاكم إزمير العسكري، وبعد عشرين عاماً أمر كمال أتاتورك بأمر معين في الزي، فلم يستجب صديقه هذا الحميم فشنقه، وهو ضابط أمام مركز عمله في إزمير، هذه سمعتها من قريب لي، فلما ذهبت إلى تركيا قرأت كتاباً عن كمال أتاتورك، فإذا فيه هذه القصة، ووجود هذه القصة في الكتاب أكدت لي هذه الحقيقة، الله عز وجل عدل، واللهِ ينبغي أن ينخلع قلبك لو قتلت حشرة، ينبغي ألا تقتل، فكيف بهؤلاء الذين يبنون مجدهم على أنقاض الشعوب ؟ كيف بهؤلاء الذين يبنون غناهم على إفقار الناس ؟ يبنون أمنهم على خوفهم ؟ يبنون غناهم على فقرهم ؟ يبنون عزهم على ذلهم ؟

في الجلال خوف من الله وفي الكمال محبة وفي العدل ضبط وفي السمع والبصر حياء:

صدقوا أيها الأخوة، هناك دراسة نفسية أن أغبى صنف في المجتمع البشري هم الطغاة، لماذا هم أغبى صنف ؟ لأنهم حينما تحركوا بقوتهم لم يدخلوا الله في حساباتهم، والله عز وجل منتقم، والله عز وجل يقول:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

إذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتش.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي، والعهد والوصية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع انبعثت في النفس قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها، وتذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي، وإذا تجلى ربنا بصفات السمع والبصر والعلم ـ أي تتكلم يسمعك، تتحرك يراك، تضمر شيئاً في نفسك يعلمه ـ إذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم انبعثت من العبد قوة الحياء فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته الله، فتبقى حركاته، وأقواله، وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى، وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، و معيته الخاصة لهم انبعثت في العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا به، وبكل ما يجريه على عبده، ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه، والتوكل معنىً يلتئم من علم العبد بكفاية الله له، وحسن اختياره لعبده، وثقته به، ورضاه بما يفعله ويختاره له.

أرأيتم مجموعة هذه الصفات، إذا تجلى الله عز وجل بها على قلب المؤمن انبعثت في قلب المؤمن نشاطات تناسب هذه التجليات، ففي الجلال خوف، وفي الكمال محبة، وفي العدل ضبط، وفي السمع والبصر حياء، وفي الأمر والنهي مبادرة إلى الطاعة، وفي الكفاية: قل: حسبي الله ونعم الوكيل، هو الحسب،

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

هذه الصفات تجعل الإنسان مطمئناً لا يخاف.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن:

أيها الأخوة الكرام، الفرق بين المؤمن وغير المؤمن فرق كبير، ليس فرقاً أن هذا يصلي، وهذا لا يصلي، لا، الفرق أعمق بكثير، إذا خاف الناس جميعاً، وسحقوا، و أحبطوا، هو لا يخاف، لأنه يعلم علم اليقين بأن مصيره بيد الله، وأن الله لا يسلمه لأحد،

(إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

قال: وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب، والجوارح، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه، وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

الله سبحانه وتعالى يتجلى على عبده بصفات ألوهيته تارة وبصفات ربوبيته تارة أخرى:

هذه المعاني أيها الأخوة الكرام هي ثمرات الاتصال بالله عز وجل، وقضية الصلاة ليست كما يتوهمها الناس، أنه سقط الوجوب وإن لم يحصل المطلوب، مادمت في اتصال مع الله عز وجل، وفي قلبك طمأنينة، وفي قلبك خوف مقدس، وفي قلبك رجاء، وفي قلبك انضباط، وفي قلبك محبة، وفي قلبك هيبة.

قال: وجماع ذلك كله أنه سبحانه وتعالى يتجلى على عبده بصفات ألوهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة أخرى.

الربوبية الإمداد، والألوهية التسيير.

فيوجب له شهود صفاته الألوهية، والمحبة الخاصة، ويورث هذا له الشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه في طاعته و بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دونما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية، والتوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل، والخضوع، والانكسار له، وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في ألوهيته، وألوهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه، وقدره ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وبره ولطفه وإحسانه، ورحمته في قيومته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته، وستره، وتجاوزه، يشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً:

أيها الأخوة الكرام، هذا الذي ما فكر في أسماء الله الحسنى، ولا سار في طريق معرفة الله المعرفة التفصيلية ما عرفه.

أحياناً الإنسان المقصر يسب الدين، هل تعلم ماذا يعني ذلك ؟ أنه نال صفراً في إيمانه، الذي تردد عشر ثوان في تقديم روحه وحياته في سبيل الله هبط مكانه، فكيف الذي يتفنن في إيذاء خلقه ؟ كيف الذي يبني غناه على إفقار الناس ؟ كيف الذي يتفنن في إيذاء الخلق ؟ شهد الله أن الإنسان حينما يكتشف مصيره في تفلته، وفي تجاوزه، وفي أكله المال الحرام، وفي عدوانه على أعراض الناس، والله كما ورد في بعض الأحاديث حينما يرى مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، كلما ازددت عقلاً ينبغي أن تزداد منه خوفاً، وكلما ازددت عقلاً ينبغي أن تزداد له حباً، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، هو الحقيقة المطلقة، ولا حقيقة سواه، وكل الفلاح والنجاح، والفوز والتفوق، والعقل والذكاء في التقرب منه، وكل الضلال والشقاء، والعماية والغباء، في عمل شيء يبعدك عنه، هذه الحقائق سوف يكشفها أهل الأرض جميعاً عند الموت،

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ)

الشهوة غطاء

(فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

أنت حينما تعرف الله فقد وصلت إلى كل شيء، وحينما تغفل عنه فاتك كل شيء، إنه عمر قصير، ونحن جميعاً سوف نموت، بعد كم من السنين لا ترى واحداً منا فوق الأرض ؟ كلنا في مقبرة الباب الصغير، قبر المرحوم فلان، لكن ما الذي يبقى ؟ فاعل الخير خير من الخير، الخير مهما كان عظيماً محدوداً، أنشأ مئة مستشفى جيد، أنشأ مئة مدرسة إسلامية جيد، انقضت الحياة الدنيا، هذا الذي تقرب إلى الله بهذا العمل يسعد بعمله إلى أبد الآبدين، لذلك فاعل الخير خير من الخير، وفاعل الشر شر من الشر، الذي ألقى قنبلة على هيروشيما، ومات من جراء هذه القنبلة كما قرأت ثلاثمئة ألف إنسان في عدة ثوان، القصة مضى عليها ما يزيد على سبعين أو ثمانين عاماً، هؤلاء لو لم تلقَ عليهم هذه القنبلة لماتوا، الشر الكبير انتهى بعد مئة عام، أما هذا الذي أراد أن يقتل ثلاثمئة ألف إنسان في عدة ثوان، هذا يشقى بعمله إلى أبد الآبدين.

بطولة الإنسان أن يكون له عمل طيب يستمر بعد موته:

البطولة أيها الأخوة الكرام، أن يكون لك عمل طيب يمتد بعد موتك، وهذه أعظم الأعمال الصالحة، الأعمال التي تمتد بعد الموت تستمر بعد الموت، الآن إذا تدبرت القرآن، وأجرته من التحريف،

وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين، وأفكار المتكلفين، ولو أن الله عز وجل كلف نبيه المعصوم المخلوق الأول الذي لا يخطئ أن يفسر القرآن لانتهى القرآن، لأن ثمة إنساناً أعطى كل آية معناها، وانتهى الأمر، القرآن الكريم كلام الله، لا تحدّ معانيه، هناك حكمة بالغة جداً من أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفسره، لأن معانيه متجددة، أحياناً آية تقرأها لألف و ثلاثمئة عام عادية، يأتي حدث كبير تشعر أن هذه الآية اكتسبت معنى آخر، لذلك سيدنا علي قال: " في القرآن آيات لما تفسر بعد "

إذاً أيها الأخوة الكرام، ليلة القدر من معانيها أن الله عز وجل إذا تجلى عليك في هذه الليلة لأهلية معك، ولسبب قدمته لله عز وجل خير لك من ألف شهر، من أن تعبد الله عبادة جوفاء ثلاثة وثمانين عاماً، ليلة القدر خير من ألف شهر، أسأل الله لي ولكم أن يفتح علينا.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢٢-٣٦) : أصل الخير والشر من قبل التفكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الفكرة أصل الخير و الشر

أيها الإخوة الكرام، الإنسان تأتيه خاطرة، فإن لم يعالجها معالجة صحيحة انقلبت إلى فكرة، فإن لم يتفحص هذه الفكرة انقلبت إلى شهوة، فإن لم يقيّم هذه الشهوة انقلبت إلى إرادة، فإن لم يقف في وجه إرادة لا تليق به انقلبت إلى عمل، فإن لم يتب أصبحت عادة، ومن أصعب الأشياء أن يدع الإنسان عاداته، إذاً الخير يبدأ من فكرة، والشر يبدأ من فكرة.

جاء زعيم غطفان ليحارب النبي العدنان عليه الصلاة والسلام، وهو في خيمته قُبيل اشتباك المسلمين في معركة الخندق، جرى حوار بينه وبين ذاته، اسمه نعيم بن مسعود، وهذا قبل أن يسلم، هذا الحوار حوار ذاتي، قال نعيم يخاطب نفسه: يا نعيم، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ ماذا فعل هذا الرجل حتى تقاتله ؟ هل أسفك دماً ؟ هل أنتهك عرضاً ؟ هل سلب مالاً ؟ أين عقلك يا نعيم ؟ هؤلاء الذين معه أناس صالحون، فلماذا أتيت لتحاربهم ؟ ـ فكرة ـ فانتفض من إضجاعه، وتوجه إلى معسكر النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل على النبي، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: نعيم ؟! قال: نعيم، قال: ما الذي جاء بك ؟ قال: جئت مسلماً، قائد جيش غطفان جاء ليحارب النبي العدنان، فكر تفكيرًا سليمًا لحظة فانقلب إلى مؤمن، وهل تصدقون أنه فعل شيئاً كان أحد أكبر أسباب النصر في معركة الخندق، أجرى الله على يديه نصر المسلمين، والمسلون قبيل هذه المعركة كان وجودهم قضية ساعات.

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

إنسان يرقى إلى مراتب العظماء لفكرة أجراها، وحوار صادق تبعه.

أيها الإخوة، الحكمة اليوم لابن القيم رحمه الله تعالى، وهي في أنواع الفكر، يمكن أن تستخدم هذا الفكر في مئة مليون مجال ومجال، لكن المجالات التي تنفعك في دنياك وآخرتك محدودة، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

" أصل الخير والشر من قِبل التفكر ".

الآن أكبر جريمة تبدأ بفكرة، وأكبر بطولة تبدأ بفكرة، فكرة تنتهي بك إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وفكرة تنتهي بصاحبها إلى نار جهنم، وبئس المصير، لذلك أخطر شيء في الإنسان فكره، وما من عمل يقوم به الإنسان في القارات الخمس من آدم إلى يوم القيامة إلا ويسبقه تصور، فإن صح تصورك صح عملك، وإن انحرف تصورك انحرف عملك.

الفكر في مصالح المِعاد

إذاً الخير الكبير يبدأ بفكرة، والشر المستطير يبدأ بفكرة، فأصل الخير والشر من قبل التفكر، فإن الفكرة مبدأ الإرادة، وأنفع الفكر ـ الآن دققوا ـ الفكر في مصالح المعاد لأن الآخرة أبدية سرمدية، لأن الخسارة العظمى خسارة الآخرة.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية: ١٥)

أنفع الفكر التفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، كيف أصل إلى الجنة ؟ وكيف أعرف أسباب الوصول إلى الجنة، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، أربعة مجالات للتفكير، كيف أفوز بالجنة ؟ وما طرق الوصول إليها ؟ وكيف أجتنب النار ؟ وما هي طرق الابتعاد عنها ؟ أربع مجالات هي الأولى في عالم التفكير.

أحياناً لعلكم شاهدتم من يحلق ويمسك المقص، ويضرب عشرات الضربات بالهواء، وضربة واحدة على الشعر.

فالإنسان أحياناً معظم تفكيره فارغ، بلا معنى، مضيعة وقت، هذا إن لم يكن التفكير سبب شقائه، ومعصيته، وانحرافه،

الفكر في مصالح الدنيا

فهذه أربعة مجالات، من أجلّ المجالات، كيف أصل إلى الجنة ؟ وما الطرق الموصلة إليها ؟ وكيف أجتنب النار ؟ وما الأسباب التي بها أجتنبها ؟ أربعة مجالات، ويليها أربعة:

أفكر في مصالح الدنيا، وفي طرق تحصيلها، كيف أبحث عن عمل شريف دخله يعينني على زواج، وشراء بيت، وتربية أولاد، مقبول ؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمت أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا التي فيها معاشنا))

[سنن الترمذي]

إذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت، إذاً كيف ابحث عن عمل شريف يرضي الله ، وكيف أكتسب منه رزقاً يعينني على تحقيق مصالحي في الدنيا المشروعة ؟ فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، كيف أتجنب الزوجة السيئة ؟ كيف أتجنب الولد العاق ؟ كيف أتجنب الأمراض ؟ كيف أتجنب العار ؟ هناك مرض وبيل سببه ضعف الوعي الصحي، سببه إهمال القوانين التي جعلها الله قوام الصحة، وكيف أتجنب الأولاد السيئين لا بد من تربيتهم في وقت مبكر ؟

الإنسان الناجح الذي يجعل فكره في ثمانية مجالات

إذاً ثمانية مجالات، من هو السعيد ؟ من هو الناجي ؟ من هو الفالح ؟ من هو الناجح ؟ من هو المتفوق ؟ الذي جعل فكره ونشاطه العقلي، وخواطره في ثمانية مجالات، الجنة وطرق الوصول إليها، اجتناب النار وطرق الابتعاد عنها، مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، مفاسد الدنيا وطرق اجتنابها، وعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء، تفكر بعملك مسموح، تفكر بتطوير عملك مسموح، تفكر في نمو دخلك مسموح، تفكر بالزواج مسموح، تفكر بشراء مأوى مسموح، تفكر بمعرفة الله ضروري، تفكر بحضور مجلس علم تعرف فيه سر وجودك، وغاية وجودك، ومنهج ربك ضروري، كيف تجتنب مزالق أهل الدنيا، كيف تجتنب مزالق المعصية، ثمانية مجالات ينبغي أن تشغل عقلك بها، وينبغي أن تشغل فكرك بها، وينبغي أن تشغل خواطرك بها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء، ورأس القسم الأول التفكر في خلق السماوات والأرض، من أجل أن تعرفه، والتفكر في نعمه من أجل أن تحبه، والتفكر في بلائه من أجل أن تخاف منه، والتفكر في أمره ونهيه من أجل أن تطيعه، والتفكر في طرق العلم به من أجل أن تصل إليه، والتفكر بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى من كتابه وسنة نبيه، وما والاهما، وهذا الفكر يسبغ لصاحبه المحبة والمعروف، فإذا فكر الإنسان في الآخرة وشرفها، ودوامها، وفي الدنيا وخستها، وفنائها أثمر له ذلك في الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكر الإنسان في قصر الأمد، وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت.

الفكر الضائع أو المحرم

يمكن أن تفكر، ولا أبالغ بمليون موضوع، كلها لا تنفعك لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هي مضيعة وقت، ادخل إلى مكتبة قد تجد فيها مئة ألف كتاب، هناك كتاب واحد كتاب مقرر تمتحن فيه بعد أسبوع، العقل كل العقل أن تدع كل هذه الكتب، وأن تقرأ هذا الكتاب الذي سوف تمتحن به بعد

أسبوع، ويبنى على هذا الامتحان نجاحك، وعلى هذا النجاح تعيينك في الوظيفة، وعلى هذا التعيين دخل، وعلى هذا الدخل زواج وشراء بيت.

إذاً لا بد من أن تصطفي، هذه الأفكار الثمانية الآخرة وطرق تحصيلها، والنار وطرق اجتنابها، والمصالح في الدنيا وطرق تحصيلها، والمفاسد وطرق اجتنابها، هذه الأفكار الثمانية تعلي همة المرء، وتحي نفسه بعد موتها، وتجعله في واد، والناس جميعاً في واد آخر، أنت في واد والناس في واد، وبإزاء هذه الأفكار الرديئة التي تجول في أفكار أكثر الخلق كالتفكر.

الآن دققوا، نبدأ بموضوعات ليست مجدية إطلاقاً، مضيعة وقت، ولا يبنى عليها حكم شرعي، كالتفكر فيما لم تكلف به، ولم تحط به فيما لم تكلف به، ولم تحط به، من فضول العلم الذي لا ينفع، يمكن أن نجري مناظرة تبقى سنوات، يا ترى آدم كان طوله كطولنا ؟ ٦٠ مترًا ؟ ما الذي يجدي من هذا الموضوع ؟ والله هناك آلاف الموضوعات التي تمزق المسلمين، وتضعف قدراتهم، وتجعل بأسهم بينهم، وهي لا تقدم ولا تؤخر، أحياناً الله عز وجل ذكر قصة في القرآن، ما سكت القرآن عنه نبحث فيه، امرأة العزيز بعد أن تابت إلى الله، هل تزوجها يوسف ؟ والله لا أعرف، ولا كنت وقتها، والقرآن سكت عنه، وينبغي أن نسكت عنه نحن، هذا اسمه فضول الفكر، نخوض، ونأتي بالأدلة، الآن من حين لآخر تطالعنا بعض الجماعات الدينية بفكر جديد، أن آدم ليس أبا البشر، هناك آدم قبله، وتنشأ في بلد إسلامي صراعات ومماحكات، وحوارات.

احفظ هذه القاعدة: أي موضوع لا يبنى عليه حكم شرعي لا جدوى من البحث فيه

مرة زارني طبيب، والله أنا أحترمه وأجلّه، قال لي: ألفت كتاباً عن مرض النبي الذي مات فيه، قلت: اسمح لي أن أقول لك: هذا الموضوع لا فائدة منه إطلاقاً، لأن النبي مات، ألف مكانه كتاباً حول وصايا النبي الصحية كي ننتفع بها.

عود نفسك أي موضوع لا ينقلب إلى حكم شرعي تنتفع به دعه، الآن نحن مشكلتنا من وقت وعيت على الدنيا إلى الآن عندنا في رمضان مشكلة كبيرة، صحة صومنا ، واختلاف المطالع، والبلد الفلاني أثبت أول رمضان يوم كذا، وإلى متى هذا الخلاف ؟ النبي قال:

((صومكم يوم تصومون))

[أخرجه البيهقي في السنن عن أبي هريرة]

أنت في بلد إسلامي، وفيه قاض شرعي هو المسؤول، وكان صيامك ٢٩ يومًا، الحد الأدنى، انتهى، بعد أسبوعين من رمضان:" يا ترى صح صيامنا ؟ والله كأن هذا القمر بدر، هناك خطأ في صيامنا، وإلى متى نمضي حيتنا في هذا الخلاف ؟ أو في خلاف آخر، التراويح كم ركعة، إلى متى؟ نحن نتمزق، ونستهلك بموضوعات لا تقدم ولا تؤخر.

مرة سُئلت على الهواء في إذاعة عن ركعات التراويح، قلت صلِ ٨، و١٢ و٢٠، وببيتك، وبالمسجد، ولا تفعل مشكلة.

كفى مشاكل، اختر موضوعات مجدية، اختار موضوعًا يبنى عليه حكم شرعي.

الفكر في ذات الله

الآن التفكر في ذات الرب، ممنوع، خطوط حمراء، العقل البشري ليس له أن يصل إلى هذه الحقيقة، لأن النبي قال:

((تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله فتهلكوا))

[أبو الشيخ <ابن حبان> عن ابن عباس]

والله هناك كتب ومؤلفات في البحث في ذات الله عز وجل، كيف يعلم، وكيف لا يعلم، أنت معك منهج، وكلفك الله أن تطيعه، ولم يكلفك أن تبحث في ذات الله عز وجل، وهذا الموضوع في حوله خطوط حمراء، لأن عين العلم بالله عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به.

أنت واقف أمام بحر، سألت واحدًا: كم لترًا هذا البحر ؟ البحر الأبيض المتوسط كم لتر ؟ إن قال لك: لا أعلم فهو عالم، وإن قال لك: ثلاث مليارات و٧٧٦ يكون جاهلا، وأيّ رقم يدلي به فهو جاهل، لأن معرفة كم لترًا هذا البحر هذا فوق طاقة البشر.

إن عين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به، عود نفسك تقول: لا أعلم، الإمام أحمد ابن حنبل من كبار الأئمة جاءه وفد من الأندلس، معه ٣٧ سؤالا، فأجاب عن ١٧، قيل له: والباقية ؟ قال: لا أعلم، قالوا: أنت لا تعلم ؟! قال: قولوا لهم: الإمام أحمد لا يعلم.

عود نفسك إذا كان الموضوع فوق طاقة البشر أن تقول: لا أعلم، هناك ألف سؤال الآن، أنا لا أملك عنه جوابًا، لكني واثق أن الله حكيم، ورحيم، وعادل، أنا أثق بكمال الله، ولا أعلم الحكمة المحددة من هذا الذي يحدث الآن، لكن بعد حين تكشف، بعد حين تكشف هذه الحكمة.

الآن الفكر في ذات الإله وصفاته مما لا سبيل للعقل أن يصل إليه، هذا الموضوع ممنوع البحث فيه،

الفكر في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع ولا تضر

متفوق في الشطرنج، خير إن شاء الله، متفوق في الموسيقا، في أشكال التصوير، في تحنيط الطيور، في مليون حرفة ومصلحة، أولاً هي غير مشروعة، وإن كانت مباحة فلا جدوى منها،

ومنها الفكر في موضوعات، ولو أنها صحيحة فلا حظّ للنفس منها، لا بخير ولا بشر، هناك موضوعات لو بلغ الإنسان غاياتها لا تزكو نفسه بها، لذلك النبي الكريم أشار لهذا الموضوع قال:

((اللهم إن أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن عين لا تدمع، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع، ومن أذن لا تسمع))

[ورد في الأثر]

الفكر في الشهوات

الفكر في الشهوات، واللذات وطرق تحصيلها.

مرة كنت في الخليج أحضر مؤتمر الأسرة، أجرت بعض الجهات مقابلة مع عالم ثلاث ساعات في العلاقات الحميمة بين الزوج وزوجته، والله شيء يندى له الجبين، تفاصيل ! كان له أن يقول: اجتنب الحيضة والدبر، والباقي كله مباح، دخل في المباح وفي تفاصيل لا يستطيع الإنسان سماعها فعالم ولا متابعتها فعالم ولو كان وحده، ثلاث ساعات في علم لا ينفع، في شيئين محرمين، والباقي مباح، أما الدخول في التفاصيل فليس بمفيد، طبعاً هذه الندوة يشاهدها الصغار والكبار فعالم والشباب والشابات، فهناك علم لا ينفع، وإن كان للنفس فيها لذة، لكن لا عاقبة لها فيه.

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

في مجال من مجالات التفكير توسم عند الله بأنك جاهل،

الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون

الآن الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، العالم العربي من دون بترول ما مصيره ؟ الآن بالبترول ما لنا مخلصين، اترك من دون بترول مثلاً، لو أن إنسان أصبح ملكاً ماذا يفعل، مت تصبح قل لنا.

سألني مرةً أحدهم سؤالا: ما حكم اقتناء القنبلة النووية ؟ قلت له: قبل أن تسأل ما الحكم اقتن هذه القنبلة أولاً، بعد هذا أجيبك.

هناك مجالات لا تقدم ولا تؤخر،

الفكر جزئيات أحوال الناس

الآن الفكر في جزئيات أحوال الناس ومداخلهم ومخارجهم، وما إلى ذلك.

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ))

[رواه الترمذي وابن ماجه، عن أبي هريرة]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

الفكر في دقائق الحيل والمكر

تجد الرجل يسهر إلى ساعة متأخرة من الليل، والحديث عن زيد، لماذا طلق زوجته ؟ يا ترى خانته ؟ عنده رغبة جامحة في أن يتبع عورات الناس في بيوتهم، الفكر في دقائق الحيل والمكر، أساليب لا تقدم ولا تؤخر.

قال أحدهم لأبيه: أنا قرأت كتابًا عن تزوير العملة، فن تزوير العملة، هل تستطيع أن تعمل هذا العمل ؟ أو كتاب عن سرقة البنوك، أو عن ملفات الأمن الجنائي في بلد أصبحت مكشوفة من خمسين سنة، قرأ كتابًا ممتعًا، هناك موضوعات ممتعة، لكنها غير مجدية.

أنواع الشعر وصروفه وأفانينه

أنواع الشعر وصروفه وأفانينه في المدح والهجاء، تجد المديح لا يقدم ولا يؤخر، أحد الشعراء وهو البحتري مدح ثلاثين خليفة وحاكما وأميرا، ثم هجرهم، قبل أن يأتي يمدحه، ثم يذهب فيهجيه، هناك غزل، هناك هجاء، هناك موضوعات لا تقدم ولا تؤخر، مثلاً الشاعر الفلاني شاعر الغزل الإباحي تجد له مكانة كبيرة، ويتحدث عنه، وله أسبوع معين، لو أنني قيمت نشاطاتنا الفكرية تقييما شرعيا تسعة أعشارها باطلة، ولا جدوى منها إطلاقاً، ومنها الفكر في تصورات ذهنية غير موجودة بالأصل، حتى هذه موجودة في الفقه، أحياناً أحكام حالات لا تقع بالمليون سنة مرة، بها أحكام معينة، ولها تفاصيل.

الخلاصة

إخواننا الكرام، أن الحقيقة الحديث عن الجوانب الغير مجدية بالفكر لا تعد ولا تحصَى، فالبطولة أن تفكر في ثمان في الآخرة، وطرق تحصيلها، في النار وطرق اجتنابها، في مصالح الدنيا وطرق جلبها، في مفاسد الدنيا وطرق الوقاية منها، هذا شيء ينفعك في دينك ودنياك، والدعاء الشهير:

((اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إلينا مردنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢٣-٣٦) : أغلق باب التوفيق عن الخلق في ستة أشياء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من حكم العالم الجليل ابن القيم رحمه الله تعالى أنه نقل قولاً لشقيق بن إبراهيم يقول شقيق ابن إبراهيم البلخي:

" أغلِق باب التوفيق عن الخلق في ستة أشياء"

التوفيق لا يكون إلا من الله

بالمناسبة يوجد آية واحدة تبين أنه لا ينجح شيء في الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بتوفيق الله:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة هود: الآية ٨٨]

تجارة، زواج، تعليم، طبابة، أي موضوع خطر في بالك إن لم توفق من قِبل الله لا ينجح، وقد تملك كل أسباب النجاح ولا توفق، وقد تفتقر إلى معظم أسباب النجاح وتوفق، فالتوفيق ليس بالذكاء، وليس بالأخذ بالأسباب فقط، ولكن التوفيق برعاية الله عز وجل

أسباب إغلاق باب التوفيق

يقول هذا العالم:

" أغلِق باب التوفيق عن الخلق في ستة أشياء"

إخواننا الكرام، المسلمون ولاسيما في هذه الأيام عندهم حيرة شديدة، ما سبب تأخرنا ؟ ما سبب ضعفنا ؟ ما سبب فرقتنا ؟ ما سبب أننا في الدرجة الدنيا في المجتمعات البشرية ؟ وهذه حقيقة مؤلمة، لكن لابد من تحليل، لذلك أي إنسان يعطيك تحليلاً دقيقاً لسبب تخلف المسلمين هذا الموضوع كأنه يعزف على وتر حساس في قلب كل واحد منا، التحليل أو التشخيص كلاهما له مؤدى واحد، لكن البديل والحل، ويوجد مصطلح جديد اسمه ورقة العمل، ماذا نفعل ؟ فهذا تحليل رائع، وجامع مانع،

قال:

اشتغالهم بالنعمة عن شكرها

الكافر مع النعمة، المؤمن مع المنعم

لو سألتني عن فرق دقيق دقيق بين مؤمن وكافر، الكافر مع النعمة، المؤمن مع المنعم بالضبط، لذلك الغرب تفننوا في الاستمتاع بالنعم، وتفوقوا، وقطعوا أشواطاً كبيرة جداً، كيف يستمتعون بالنعمة ؟

أحياناً نبني بناء ونجعل النوافذ صغيرة، الآن يوجد أبنية الحائط كله نافذة، وأنت مستلق في الفراش ترى البحر، يستمتعون بالنعم بشكل يفوق حد الخيال، الأكمل أن تكون مع المنعم، لا مع النعمة،

إذا كنت مع المنعم ترقى إلى الله

قال: " اشتغالهم بالنعمة عن شكرها"

الغافل عن المنعم هو كالدابة

حتى يكون المعنى واضحاً: تصور إنسانًا دعي إلى الطعام، وهو ضيف الشرف، فتفنن صاحب البيت بإكرامه بدءاً من استقباله، أرسل له ابنه ليأتي به من بيته، واستقبله بالترحاب، و بالورود، و بالعصير، و بالمقبلات، وألوان الطعام، والحلويات، والفواكه، والمشروبات، القهوة، والشاي، وهذا الضيف ضيف الشرف عينه على الطعام، وعينه على الفواكه، يأكل بنهم، ولا يلتفت لصاحب البيت، فلما أكل وشرب، وشبع، انطلق إلى الباب وغادر البيت، هذا دابة.

صدقوا أيها الإخوة الكرام، هناك أناس في تعاملهم مع الله كالدواب، يأكل، يشرب، مزحه قاس، منتقد، ظنون، أي إنسان يُذكر أمامه يفند له أخطاءه، يتهمه، وهو بريء، أنا أقول: دابة، لا يوجد عندي كلمة أعبر بها عن تفلت إنسان، دابة فلتانة، فأن تشتغل بالنعمة، وتنسى المنعم، تدخل إلى بيتك، لك أولاد، عندك زوجة، لك دخل، لم لا تقول: يا رب، لك الحمد ؟ كم ممن لا مأوى له ؟ كم ممن لا طعام عنده ؟ كم ممن لا زوجة له ؟ لك مكانتك، بعملك يحترمونك، تدخل فيقفون لك، كم من إنسان مهان ؟ عندك أولاد يحترمونك، هذه نعمة كبيرة جداً،

بقدر ما تشكر بقدر ما ترتقي عند الله ومقومات الشكر

والشكر أيها الإخوة الكرام، في الحقيقة علم وحال وعمل بالضبط.

علم:

يجب أن تعلم أن كل نعمة أنت فيها هي من الله:

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

[سورة النحل: الآية ٥٣]

الآن أنت برمضان، أحياناً تعطي هذه نعمة لا يعرفها معظم المحسنين، هذا المحسن بالذات الذكي كان ممكنا أن يقف بطابور طويل و معه هويته يبصم لك، ويأخذ على العيد مئتي ليرة، أنا لا أنسى أحد الإخوة الكرام عندما تبرع محسن ببيت ليكون مركز تأهيل مهني، أقيم لهذا المحسن حفل تكريم، فكل الذين تكلموا أثنوا على هذا المحسن إلا هذا الأخ، قال له: أيها الأخ الكريم، كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين من جمعيتنا، وأن تقف في صف طويل، وأن تقدم الهوية، وأن تأخذ المئتي ليرة، وأن تبصم، مع الله لا يوجد ذكي، قد تجد إنساناً بذكاء عجيب وهو فقير، يموت من الجوع، وتجد إنساناً بسيطاً وهو غني كبير، فأنت حينما تعلم أن هذه النعمة من الله هذا نوع من الشكر لا بذكائك، ولا بحنكتك، ولا بخبراتك، إنها توفيق من الله.

أحياناً أب يقول لك: أنا ربيتهم، تعبت، يوجد آباء أذكى منك، وعنده ابن عاق، وعنده ابن جاهل، ماذا تفعل ؟

فلمجرد أن تعزو توفيقك، مكانتك، اختصاصك، دراستك الجامعية، بيتك، أن تعزو هذه النعم إلى الله فأنت على شكر، يوجد نوع من الشكر.

هذا العلم.

حال:

قلبك ممتن من الله، يا رب لك الحمد، حمداً كثيراً طيباً، مباركاً يا رب. أحياناً يمشي الإنسان في الطريق، كل الطريق يقول: يا رب لك الحمد.

فالآن الحالة الثانية: أن يمتلئ القلب امتناناً من الله.

عمل:

الحالة الثالثة هي أرقى شيء: أن تقابل هذه النعم بخدمة الخلق، تنطلق لحالة لا تفرق أبداً، إنسان يجب أن تريحه، أن تطعمه، أن تكرمه، أن تدخل على قلبه الشعور بالأمن، أن تطمئنه.

أحياناً الطبيب يرغب أن يخيف المريض في أثناء الفحص على قدر ما يتأفف، يميته، هو يظن أنه إذا تأفف يصبح طبيبًا مهمًا جداً، ويربط المريض معه، لا، طمئنه، الحالة عادية جداً وبسيطة. بقدر ما تكون قريبًا من الله تحسن للخلق، لا تخيفهم، لا تبتز أموالهم، ترحمهم، يوجد أشخاص فنانون في الابتزاز، إذا شعر أنك مضطر إلى هذه السلعة يضاعف ثمنها فوراً، كأن يكون آخر محل مفتوح، وعنده حالة إسعافية، ومضطر، ولهفان، عندي قطعة واحدة، وأخذتها غالية جدا، لمجرد أن تقابل نعم الله بخدمة الخلق فأنت في أعلى مراتب الشكر، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً)

[سورة سبأ: الآية ١٣]

يغلق باب التوفيق إذا اشتغلنا بالنعمة، ولم نشتغل بشكرها، النبي عليه الصلاة والسلام كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت، أكلت، هناك إنسان لا يستطيع أن يأكل، يتغذى بالسيروم، قضيت حاجتك، هناك إنسان يحتاج من يأخذه إلى الحمام، نعمة كبيرة، عندك أولاد، هناك إنسان ما عنده أولاد، عندك زوجة، هناك إنسان ما عنده زوجة، فلذلك من علامات التوفيق أن تشتغل بشكر النعمة لا بالنعمة نفسها.

ورغبتهم في العلم وترك العمل

البند الثاني الذي يمنع التوفيق

العلم أصبح نوعًا من التجارة

ما أدخل بحساباته أبداً تطبيق ما يعلم، لكن أصبح العلم عنده هدفاً، العلم يعمل مكانة، يعمل شهادة، يعمل لقبًا، يعمل تعظيم الناس، فالعلم أصبح نوعًا من التجارة، من تعلم العلم ليصرف وجوه الناس إليه فليتجهز إلى النار، أي ينتزع إعجاب الناس.

كنت أقول دائماً: إذا أعجبك علمك فهذا من شهوة العالم، العالم له شهوة، أن يعجبه علمه، وإذا أعجبك إخوانك فهذا من إخلاص العالم،

يجب تقيس نفسك لا بقدر ما تعلم، بل بقدر ما تركت أثراً في الناس

إذا استفاد الناس، وتأثروا، وطبقوا، وسعدوا بهذه الدعوة عندئذ تسعد، لا تسعد بما عندك، تسعد بما تمكنت من إيصاله للناس.

" ورغبتهم في العلم وترك العمل"

أخطر شيء يصيب الأمة الإسلامية انفصال العلم عن العمل

والله حدثني أخ قال: دخل أستاذ في معهد شرعي، وألقى درساً عن التواضع، شيء لا يصدق، جاء بنصوص، جاء بآثار، جاء بقصص، شيء لا يحتمل من شدة إعجاب الطلاب بهذا الدرس، هو دخل إلى غرفة المدرسين بشعور بالاستعلاء والكبر، ما عنده نفس أن يتكلم مع أحد، ويعلمهم التواضع، وهو ليس متواضعاً، أخطر شيء في الأمة أن ينفصل العلم عن العمل، أوضح شيء طبيب يدخن، إن حدثك عن التدخين يفوق الناس جميعاً عن مضاره، وهو يدخن، معنى ذلك أن الحديث عن مضار التدخين أصبح حرفة، وهو يدخن، أخطر شيء في الأمة أن ينفصل العلم عن العمل، الصلاة في وقتها في المسجد، وقد يسهر في ناد ليلي، كيف اجتمع عنده السهر في ناد ليلي والصلاة ؟ الدين صلاة، وبالمسجد، وبوقتها، أما علاقاته المالية، علاقاته العاطفية فليس لها علاقة بالدين إطلاقاً، وأخطر شيء يصيب الأمة الإسلامية هو هذا، انفصال العلم عن العمل.

المسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة

الذنب براق، هناك شهوة آنية، هناك شيء يدفع الإنسان إلى أن يقترف الذنب، و التوبة عنده وهْم، أنه بعد حين يحج بيت الله الحرام، و تغفر له ذنوبه، ومن يضمن أن ينتظر إلى سنة أو سنتين ؟ حركته نحو الذنب والتوبة والمعاهدة لله عز و جل فيها تباطؤ.

الاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم

الآن يوجد حالة دقيقة جداً، وهي منتشرة في معظم بلاد المسلمين، الاغترار بصحبة الصالحين، وترك الاقتداء بفعالهم، يجب أن يدعي فلان على عقد القران، جاء فلان، وألقى كلمة رائعة، لكنه ليس مطبقاً لشيء من دعوة فلان، يعيش على مزاجه، إذا دعا العلماء إلى عقد القران كأنها وردة يزين بها صدره، ولمن في بسلوكه اليومي لا يوجد التزام أبداً، ولا يوجد انضباط، ولا يوجد تطبيق، لكن كلما التقى بعالم يكيل له المديح أنواعاً منوعة، ويثني عليه، يا سيدي نحن تباركنا بكم، تباركت فيه، ولست مطبقاً شيئاً من كلامه !!! هذه حالة موجودة.

والله مرة عقد قران في مكان في دمشق، دعي نخبة أهل البلد والخطباء، أنا أقول:سامحهم الله، أثنوا على الأسرتين الدمشقيتين المتصاهرتين العريقتين، أما عرس النساء فكان في الشيراتون، ووزعت الخمور، وجيء بالراقصات، وجيء بالصحفيين، وصوروا هذا العرس، والنساء شبه عرايا، وعرضت الصور في الصحف، لأسرتين دمشقيتين متصاهرتين عريقتين، وعلى البطاقة: الطيبون للطيبات، لمَ لمْ تكتب الخبيثون للخبيثات ؟

يوجد شعور أنه أنا أدعو فلانًا، أدعو فلانًا، أدعو فلانًا، نصور، هناك ألبوم، نري الناس من حضر العقد، من جاء، من ألقى كلمات، لكن لا علاقة لك بالعلم إطلاقاً، ولا بالتطبيق، ولا يوجد شيء تنضبط به في البيت، هذا مرض أيضاً، أنا لذلك عقب هذه القصة صرت أدقق، أني لا ألبي دعوة عقد قران إلا إذا كان الداعي ملتزماً، وإلا يتاجر بها، فالأولى أن المتفلت لا تلبى دعوته، لأنه يتمنى أن يصعد على كتفيك.

إدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها

الحديث عن المشاريع والعملات، والتجارة والاستيراد، تجد عشر ساعات، وهو ناس نفسه، احكِ له كلمة عن الدين تراه يريد أن ينام، ويقول: والله أرجو ألا تؤاخذني، لا يوجد عندي وقت أجلس معك جلسة أخرى، لمّا دخلت بموضوع ديني ينصرف، أما في الموضوع الدنيوي يسترسل معك بلا حدود،

وإقبال الآخرة عليهم، وهم معرضون عنها

والله مرة كنت في بلد في أمريكا، دعاني مركز إسلامي إلى إلقاء محاضرة، دعاني أول سنة اعتذرت، الثانية، الثالثة، الرابعة وعدته أن آتيه، فالموعد الساعة التاسعة ليلاً، وبين مكان وجودي، والمكان المدعو إليه مئة وستون كيلو مترًا، وبدأ الثلج يتساقط، خطر في بالي خاطر أن أعتذر، فلما اتصلت هاتفياً، واعتذرت شعرت أن الدنيا قامت، ولم تقعد، قال لي: أربع سنوات ننتظر فلبيت الدعوى، ثم وصلت الساعة التاسعة والنصف، قال لي إنسان كلمة والله أموت ولا أنساها، قال لي: هل تعلم كم من ميل قطعته لأسمع هذه المحاضرة ؟ قلت له: كم ؟ قال لي: ستمئة ميل، ألف كيلو متر، قلت: بالشام الدين ميسور، بالمساجد يوجد دروس، يوجد خطب، يوجد كاسيتات، يوجد أشرطة، من شدة التصحر الروحي هناك قال لي: والله ألف كيلو متر، أي ستمئة ميل، قاد مركبته ليستمع لهذه المحاضرة، أنا قلت في نفسي: والله لو اعتذرت، وعلمت هذه المعلومة أموت، ولا أنسى هذا الخطأ، فنحن العلم هنا ميسور، الجوامع مفتوحة، العلماء كثر، هنا إقبال الآخرة عليهم، وهم معرضون عنها، فإقبال الدنيا إقبال الآخرة في هذه البلدة، والناس معرضون عنها.

يوجد إنسان زاهد في الدين، لا يوجد عنده وقت، لا يرغب أن يسمع كلمة حق، وهو محاط بدعاة، وبمساجد، و بدعوة، و يوجد إنسان يقود مركبته ستمئة ميل ليستمع إلى محاضرة ساعة، من يركب مركبته ألف كيلو متر ليسمع محاضرة ساعة ؟ لأنه يوجد تصحر، فإذا كنت في بلد فيها دروس، فيها خطب، فيها دعوة إلى الله، الأمور ميسرة، يوجد أشرطة، يوجد سيديات، يوجد محاضرات، بعد ذلك لا يمكن أن تدخل إلى مكان إلا مقابل أتعاب، للمحامي أتعاب، الطبيب له عيادة، الآن تدفع مقدماً، لا يمكن أن تدخل إلى مكان إلا بمقابل، إلا في بيوت الله من دون قيد أو شرط، هكذا أراد الله عز وجل أن يكون هذا الدين مبذولا لكل البشر، فالدين موجود، و المساجد موجودة، و لا يوجد رسوم دخول، و لا يوجد تعقيدات، والناس زاهدون، ببلاد أخرى الدين مفقود، والناس يبحثون عنه.
أيها الإخوة الكرام، مرة ثانية:

" أغلق باب التوفيق عن الخلق في ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، و رغبتهم في العلم و تركهم العمل، و المسارعة إلى الذنب و تأخير التوبة، و الاغترار بصحبة الصالحين و ترك الاقتداء بفعالهم، و إدبار الدنيا عنهم و هم يتبعونها، و إقبال الآخرة عليهم و هم معرضون عنها

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه:

أيها الأخوة الكرام، قد نغفل أحياناً عن خصائص النفس البشرية يستنبط هذا من قوله تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

(سورة الشمس)

فكما أن هذا الجسم له قوانين، وفيه أجهزة، وفيه نسج، وفيه طريقة في عملها عجيبة جداً، كذلك بنفس الإنسان قوانين قد نكتشف بعضها، من هذه القوانين مثلاً أن النفس البشرية تحب الكمال في كل شيء، تحب البيت الفخم الواسع الجميل، تحب الزوجة الجميلة، تحب المركبة الفارهة، هكذا فطر الإنسان لكن هذه الفطرة حيادية يمكن أن تكون سلماً ترقى به، أو دركات تهوي بها، لماذا في الدنيا تحب الكمال ؟ تحب أعلى دخل، أجمل بيت، أجمل زوجة، أجمل سيارة، لماذا في أمر الآخرة تريد الدرجة الدنيا ؟ هنا المشكلة، لذلك إذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه، قال تعالى:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

بطولة الإنسان أن يطلب النجاح في الآخرة:

الإنسان العادي يصلي، و يصوم، و يحج، و يزكي، و يؤدي الفرائض، و يعمل، و يكسب المال، و يستمتع بالمال، و لا شيء عليه، هذا شأن أصحاب اليمين لكن شأن السابقين السابقين:

(أولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(سورة الواقعة)

فلماذا في الدنيا تحب الدرجة العلمية العليا ؟ لا ترضى بالليسانس تريد الدكتوراه، و تريد أن تكون مؤلفاً، و تريد أن تكون عالماً، و إذا كنت في الجامعة تريد أن تكون أستاذاً ذا كرسي، و لماذا في شأن الآخرة تريد الدرجة الدنيا ؟ طبيعة النفس تحب الكمال، تحب قمة النجاح، لكن البطولة أن تطلب النجاح في الآخرة، لذلك هناك السابقون السابقون:

(أولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(سورة الواقعة)

و هناك أصحاب اليمين، أصحاب اليمين ناجون لكنهم ليسوا في أعلى درجة، لذلك حينما تقرأ هذه الآية يخاطب الله بها أحد أنبيائه الكبار أولي العزم سيدنا موسى، يقول له:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي

(سورة طه)

من هذا القبيل سأل أحدهم عالماً كم الزكاة يا سيدي ؟ قال: عندنا يا بني أم عندكم ؟ قال: كم دين يوجد ؟ أنا أعلم أن هناك ديناً واحداً، قال له: عندكم اثنان و نصف في المئة، أما عندنا العبد و ماله لسيده.

طبعاً ها المعنى ليس بعيداً عن كتاب الله:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

كل حياته، و كل ذكائه، و كل ملكاته، و كل قدراته، و طلاقة لسانه، و خطابه، و بيانه، و وقته، و عقله في خدمة الحق، هذه مرتبة عالية لماذا لا نطمح إليها ؟

من كان صادقا أعانه الله في إنجاز أعمال لا تتناسب مع قدراته أبداً:

يوجد موضوع أخواننا الكرام أحدث نفسي به من وقت طويل يلفت النظر، أنك إذا كنت صادقاً مع الله أعانك الله، و أنجزت أعمالاً لا تتناسب مع قدراتك أبداً، و لكن تتناسب مع صدقك لأن الله عز وجل يقول:

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)

(سورة الإسراء)

أي الإنسان يعيش أقل من خمسين سنة قبل ألف سنة يترك مؤلفات هي في كل بيت، لبعد ألف سنة هي في كل بيت، الإمام النووي ترك الأذكار، ترك شرح مسلم، ترك كتباً من أجمل الكتب، رياض الصالحين، القرطبي ترك تفسيراً بعد ألف عام قلما تجد طالب علم ليس عنده هذا التفسير، ابن القيم صاحب الفوائد علماء المسلمين عالة عليه، تارك مئات المؤلفات، الآن يوجد كومبيوتر، يوجد أرشيف، وسائل المعرفة مسهلة جداً، كان كله كتابة باليد تشعر أن الذي أجراه الله على أيديهم يفوق طاقة البشر معونة من الله، الله عز وجل يعينك على قدر همتك، و على قدر إخلاصك، و على قدر صدقك، فلماذا في الدنيا نحب المكانة العلية و الدرجة العلمية العالية و المنصب الرفيع ؟ تريد أن تكون المدير العام لا تقبل معاون مدير، لو لك إمكانات جيدة، و عرضوا عليك معاون مدير لا تقبل إلا أن تكون المدير العام، أحياناً لا تقبل أن تكون معاون وزير إنما تريد أن تكون وزيراً، لماذا في الدنيا تحب أن تكون في المقدمة و لماذا لا تكون في الآخرة كذلك ؟ لذلك الصحابة الكرام تنافسوا

في الآخرة فالذي ظهر منهم يفوق حدّ الخيال، و الله كأنهم بشراً ليسوا كالبشر، إنهم ملوك الدار الآخرة، الإنسان كل ما يملكه يقدمه للدعوة، قال له: يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ قال: الله و رسوله، نحن الآن نطالب الإنسان أن يأتي إلى المسجد فقط، أن يحضر درس علم فقط، نطالب الإنسان أن يؤدي واجباته فقط، أن يضبط لسانه، أن يكف أذاه عن الناس فقط، ونعده ولياً صالحاً.

المحروم من بخل بالدعاء والطلب :

فذلك أيها الأخوة أنا أرى أن المحروم من بخل بالدعاء، من بخل بالطلب، ملك الملوك قل له: أريد بيتاً يعطيك قصراً، أريد مركبة يعطيك طائرة، أريد قلم رصاص يعطيك قلم رصاص، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

الخالق العظيم يقول لك: هذا طموحك هذا منتهى أملك، يوجد أشخاص أنا أعدهم تافهين جداً، ليس له هدف في الحياة إلا بيت، ملك يقول لك: بعد ثلاث وثلاثين سنة أخذنا بيتاً ـ الحمد لله ـ قبو شمالي بحي من أسوأ أحياء دمشق، ليس له هدف ثان إلا أن يتملك بيتاً، أحياناً تأمين، تعويض إضافي، هذا منتهى طموحه، لكن علو الهمة من الإيمان، لو أنك تعرفت إلى الله لارتقت أهدافك، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، المؤمن يفرح بفضل الله، يفرح برحمة الله، يفرح إذا أطلق الله لسانه في نشر الحق، يفرح إذا أجرى الله الخير على يديه، يفرح فيما يعطي لا فيما يأخذ، وهذا مقياس دقيق جداً، هناك من يفرح إذا أخذ وهناك من يفرح إذا أعطى، زارني أخ قال لي: والدي ترك ألف مليون، أنا تأثرت ألف مليون كيف جمعها ؟ يحتاج إلى قدرات عالية جداً في التجارة، وفي بناء البيوت، وفي العقود، وفي البيع والشراء، مرة أخ تمنى عليّ أن أعزي بشخص توفي وترك خمسة آلاف مليون، مات في فندق بسكتة قلبية، وعمره لا يزيد عن خمسة وخمسين عاماً، وجمع هذا المبلغ من بلد بيت الله الحرام، ولم يصلِ ركعتين في حياته، ولم يحج، ولم يعتمر، والله أيها الأخوة هذا الخبر ترك في نفسي صدمة، إنسان يجمع خمسة آلاف مليون دون أن يأخذ من أبيه شيئاً، بجهده الشخصي، كم شركة هو وكيلها ؟ نوع إدارته، نوع ضبطه للأمور، ببساطة بالغة وهو في فندق احتشاء قلب، سكتة قلبية، ينتهي كل شيء، حياة تافهة تقول: أنا، أنت ميليمتر وربع قطر شريانك التاجي إذا أغلق انتهت كل أملاكك، انتهت كل مكانتك، أحياناً يكون ملكاً أعتقد أن الخثرة الدماغية لا تساوي رأس دبوس في شريان فقد حركته، فقد نطقه، انتهى بمكان يفقد ذاكرته، يدخل عليه ابنه يقول له: من أنت ؟ يخرج من معمله متجهاً إلى بيته، بقي ساعتين في الطريق لا يذكر أين بيته،

بقدر رأس الدبوس من الدم لو تجمد في أحد أوعية الدماغ انتهى الإنسان، انتهت مكانته، انتهت هيمنته، تقول: أنا، من أنت ؟ أنت لا شيء.

كنت لا شيء فأصبحت به خير شيء في الورى قد طبعك
لا تؤمل من سواه أملاً إنما يسقيك من قد زرعـــك

***

انظر في شأن دنياك إلى من هو أدنى منك فذلك أحرى ألا تحتقر نعمة الله عليك:

يا أيها الأخوة لما لا تكن همتنا عالية ؟ لما نرضى في شأن الآخرة بالدون ؟ النبي عليه الصلاة والسلام علمنا قال: " انظر في شأن دنياك إلى من هو أدنى منك فذلك أحرى ألا تحتقر نعمة الله عليك ".

هناك أمراض تجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، الله عافاك هذه نعمة كبيرة، دائماً المؤمن بالإيجابيات لا بالسلبيات، يفكر فيما أعطاه الله، أعطاك سمعة طيبة، لست ملاحقاً، لست متهماً، أعطاك زوجة سمعتها جيدة لا تستحي إنها زوجتك، والله مرة إنسان في هذا المسجد استوقفني وبكى كالأطفال، قلت له: خير إن شاء الله، قال لي: ابنتي حاملة من ابني وكلاهما في السجن والله هذه مصيبة، الذي عنده أولاد لا أقول أولياء لكن سمعتهم طيبة، الذي عافاه الله من الأمراض الخبيثة العضالة نعمة كبيرة، انظر لمن هو أدنى منك فذلك أحرى ألا تحتقر نعمة الله عليك.

في أمر الأخرة ينبغي أن توازن نفسك مع المتفوقين:

أما في شأن الآخرة لا ينبغي أن تنظر إلى أراذل الناس وتقول: أنا ولي، في أمر الآخرة ينبغي أن توازن نفسك مع المتفوقين، مع أصحاب رسول الله، مع المؤمنين الصادقين، من أجل أن تشحذ الهمة، كي تكون في مصافهم، ولذلك قالوا: علو الهمة من الإيمان، بقدر ما تكون مؤمناً تكون عالي الهمة.

هناك شيء أساسي في هذا الدرس أحياناً يجري الله على يديك عملاً صالحاً عظيماً لا يتناسب أبداً مع قدراتك، ولكن يتناسب مع إخلاصك، ومع صدقك، ومع إلحاحك في الطلب، فاسأل الله من فضله، ولو سألت هؤلاء الخبراء في شأن المال تجدهم كانوا فقراء، وكانوا فقراء فقراً مدقعاً، لكنهم أصروا على أن يكونوا أغنياء فصاروا من كبار الأغنياء، لو أن هذا الطلب كان في أمر الآخرة في المعرفة، قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

لماذا ؟ لأنه منقطع عند بيت رائع، يجب أن تعلم أنه لا بدّ من أن تغادره في أحد الأيام دون أن ترجع إليه، هذه حقيقة، كلما دعيت إلى تعزية في أرقى أحياء دمشق، والبيت ثمنه خمسون مليوناً، سبعون مليوناً، أتعظ موعظة بالغة، صاحب هذا البيت هو الذي صمم هذه التزيينات، هو الذي صمم هذه الكسوة، هو الذي اشترى هذا الأثاث، أين هو ؟ في القبر، لذلك ابدأ من النهاية قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك الآية: ٢)

كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول: "الحمد لله الذي رد إليّ روحي - يعيش يوماً بيوم - وعافاني في بدني، وأذن لي بذكره ".

على الإنسان ألا يجعل همته العلية في الدنيا زائلة:

أيها الأخوة: الدنيا ساعة اجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة، اثنا عشر متكلماً توفاهم الله عز وجل كان شخصاً صار خبراً، النعوات بالطريق، كان شخصاً ملء السمع والبصر بقي خبراً، مرة كنت راكباً في طائرة من المغرب إلى دمشق، في تونس مع العفش أو الحقائب هناك تابوت، هذا ذهب إلى الرباط على أنه رجل، معه هوية، وجواز سفر، رجع بضاعة، هذا يخلص في الجمرك تماماً، له أوراق، فالإنسان يسافر إنساناً يرجع بضاعة لا تعرف.

أيها الأخوة ملخص هذا الدرس قوله تعالى:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

كن من السابقين السابقين، لا تجعل همتك العلية في الدنيا، الدنيا زائلة فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه:

هذه الدنيا ؛ القصور، المركبات، الطائرات، هذه ما أتيحت لأحباب الله، ما أتيحت لنبيكم عليه الصلاة والسلام، إذاً لا قيمة لها عند الله، نشأ في الصحراء، وعندما فتح مكة قال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، معقول سيد الخلق، وحبيب الحق، وزعيم الأمة، ونبي، ورسول، نام بخيمة وهو الفاتح، يستطيع أن يصادر أكبر بيت في مكة أليس كذلك ؟ انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة.

أيها الأخوة من أحبّ دنياه أضر بآخرته ومن أحبّ آخرته أضر بدنياه، هناك صفقة كبيرة جداً، ربحها ثمانون مليوناً، لكن المادة محرمة، أو طريقة التعامل محرمة، فالحلال صعب، ودخله قليل،

أما الحرام سهل، ودخله كبير، وهذه حكمة أرادها الله عز وجل، فأرجو الله عز وجل أن يجعلنا من الذين عرفوا الحقيقة، نحن أحياناً نتحدث عن الحقيقة بحدث واحد نريد الحقيقة المطلقة، عرفوا سرّ وجودهم، وغاية وجودهم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢٥-٣٦) : أقسام الزهد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١١-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أقسام الزهد:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، عنوانها أقسام الزهد. الحقيقة أن أشد الناس زهداً هم الذين زهدوا في الآخرة، بينما المؤمن الذي يبدو لك أنه زاهد في الدنيا هو من أشد الناس طموحاً، طمح إلى الآخرة، طمح إلى جنة عرضها السماوات والأرض، طمح إلى الأبد، وزهد في الدنيا، بينما أهل الدنيا يقول الله عنهم:

(إنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

(سورة الإنسان)

فالبطولة أن تضحك آخراً لا أن تضحك أولاً، من ضحك أولاً ضحك قليلاً، وبكى كثيراً، ومن ضحك آخراً بكى قليلاً، وضحك كثيراً.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

١- الزهد في الحرام وهو فرض عين على كل مسلم:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: الآية ٣٦)

المحرمات ليست داخلة في حسابه إطلاقاً، لا يشتهيها، ولا يتمناها، ولا يتمنى أن يكون محل من انغمس في هذه الشهوات، يقول الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

القلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله، فالزهد في الحرام فرض عين على كل مسلم.

٢ـ الزهد في الشبهات:

الله عز وجل لحكمة بالغة جعل قضايا واضحة كالشمس، بينات، وجعل قضايا محيرة، من زاوية مباحة، ومن زاوية محرمة، هذه الشبهات، إن نظرت إليها من زاوية لا شيء فيها، ومن زاوية ثانية هي محرمة، فالشبهات هي مشكلة المشكلات، الحلال بين والحرام بين، السرقة واضحة، الزنا واضح، القتل واضح، الخمر واضح، والحلال واضح، الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والصدق، والأمانة، والعفة، الشبهات بينهما.

سألك إنسان: تحدثت عن إنسان فاجر، يا ترى هل هناك من فائدة أن تتحدث عنه ؟ اذكر الفاجر بما فيه يحذره الناس إنْ سئلتَ عنه، جيد، لكن ما أحد سألك عنه: لو سئلت فلا مانع، لكن لمْ تسأل أنت، ماذا تفعل حينما تروّج للفاحشة، وتكثِر من ذكرها ؟ تضعف ثقة المؤمن بالمجتمع الإسلامي، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ)

(سورة النور: الآية ١٩)

الحرام حدي والحلال حدي أما الشبهات فنسبيه:

يبدو أن الحرام حدي، والحلال حدي، أما الشبهات فنسبية، هناك شبهة نسبة الحلال فيها تسعون في المئة، وهناك شبهة نسبة الحرام فيها تسعون بالمئة، فالشبهات نسبية، الشبهات بين الحلال والحرام، إما أن تكون بالوسط، وإما أن تقترب نحو الحلال، أو أن تبتعد عن الحلال.

إنسان له مال حرام، دعاك إلى طعام، العلماء قالوا: إذا كان دخله حراماً صرفاً فلا يجوز أن تأكل عنده لقمة واحدة، أما إذا كان له راتب، وله دخل آخر لا يرضي الله فهذا حل وسط، إذا اختلط الدخلان فهناك فتوى، لكن لا تكون مرتاحاً راحة كبيرة، فالبطولة بالشبهات، لكن الشبهات يتوهم الناس أن أحداً لا يعلمها، قال عليه الصلاة والسلام:

((لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاس))

[متفق عليه عن النعمان بن بشير]

لكن القليل يعلمها. لنأتي بمثل، قال لك إنسان: أنا بحاجة إلى شراء بيت، البيت ثمنه أربعة ملايين ليرة، معي مليونان، هل تشاركني في شراء نصف البيت وأعطيك أجرته ؟ دفعت له مليونين، وصار نصف البيت لك، هذا واضح، أنت الآن مالك النصف، ولك نصف الأجرة، لكن في ذهنك أن المليونين يجب أن تأخذهما متى شئت بالتمام والكمال، مادام الذي اشتريت البيت معه ضمِن لك المليونين، فهذه الأجرة ربا وفائدة، أما إن لم يضمن لك المليونين فمتى تريد أن تبيع حصتك يقيّم البيت، وقد تكون سعر البيت هبط إلى ثلاثة ملايين، فلك مليون ونصف فقط، قد يكون ارتفع سعره

إلى ستة ملايين، فلك ثلاثة ملايين، مادام المالك للقسم الأول يضمن لك المليونين فالأجرة ربا، من زاوية أنت مشترٍ فمالك نصف البيت، والأجرة أجرة، لا، هذه فائدة، وما دام المبلغ مضمونًا فهذه فائدة، أما المبلغ فمفتوح، قد ترتفع الأسعار، وقد تهبط، هذه شبهة.

اشترط إنسان عليك أن تعطيه مبلغاً من المال إذا اشترى من عندك هذه البضاعة، لأنه موظف، والله هذه مشكلة كبيرة، إذا دفعت له مبلغاً من المال، وأضفته على المبلغ فدفعه الذي اشترى البضاعة بسعر أعلى من سعرها فهذا حرام مئة في المئة، لكن لو أعطيت إنساناً من ربحك الخاص، وبعته بالسعر الصحيح مئة بالمئة، وأكرمته بمبلغ من عندك فلا شيء عليك.

إذا قويت الشبهة التحقت بالواجب وإن ضعفت مستحبة:

أحياناً هناك شعرة بين الحلال والحرام فقط، لذلك:

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[متفق عليه عَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ]

قال: إذا ازدادت نسبة الشبهة صار الواجب تركها، وإذا ضعفت نسبة الشبهة في الشيء أصبح المستحب تركها، والفرق كبير بين أن تتركها وجوباً وأن تتركها استحباباً وزهداً في الفضول، هذا البيت لمن ؟ لفلان، بكم اشتراه ؟ هل سيبيعه ؟ يا ترى الأرض حلال أم أنها مغتصبة ؟ الموضوع لا يعنيك إطلاقاً، يريد أن يحشر أنفه في كل موضوع، لماذا طلقها ؟ لعلها خانته، هذا زهد في الفضول، وعندنا فضول النظر، وفضول القول، وفضول المعلومات:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

٣ ـ زهد في الفضول وزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره:

زهد في الحرام وهو فرض عين، وزهد في الشبهات، وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت التحقت بالواجب، وإن ضعفت كانت مستحبة، وزهد في الفضول، وزهد فيما لا يعني من الكلام، والنظر، والسؤال، واللقاء، وغيره

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

اللغو ما سوى الله، موضوعات ومماحكات، وخلافات وأخبار، وتحليل وقضايا لا تعنينا، تراه غائصاً في شؤون لا تتصل به، ولا تعنيه لا من قريب ولا من بعيد، لو لم يكن ثمة دار آخرة ولا موت فلا مشكلة، املأ وقتك، ولكن مادام هناك وقت محدود، ومسؤولية، و حساب فاشتغل بما ينفعك.

وزهد في الفضول، وزهد فيما لا يعني من الكلام، والنظر، والسؤال، واللقاء، وغيره، وزهد في الناس.

٤ـ زهد في الناس:

الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

٥ ـ زهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه في الله:

أي أن الله عز وجل قصدُه ورضاه مطّلبه، فإذا وقع في موقف صعب تهون عليه نفسه، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

٦ ـ زهد جامع لهذا كله وهو الزهد فيما سوى الله:

أي أن الله عز وجل قصدُه ورضاه.

الذي يزهد في الدنيا هو أ شد الناس طموحاً على الإطلاق

مرة ثانية، أيها الأخوة الكرام، الذي يزهد في الدنيا هو أشد الناس طموحاً على الإطلاق، ثمة إنسان طمح في الأبد، وإنسان طمح في دنيا محدودة، والمثل الذي أرويه لكم دائماً: لو أن الرقم (واحد) في الأرض، وأصفاراً إلى الشمس، مئة وستة وخمسون كيلو متراً أصفاراً، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم إذا وضع صورة، والمخرج لا نهاية فقيمة هذا الرقم صفر، الدنيا صفر، لذلك أعطاها الله لمن لا يحب، أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبه، أعطى المال لقارون وهو لا يحبه، أعطى الملك لسيدنا سليمان وهو يحبه، أعطى المال لسيدنا ابن عوف وهو يحبه، إذاً لا تساوي عند الله جناح بعوضة:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

الإنسان بكل حجمه ومكانته، وكل نصيبه المالي لا يعدل شيئاً، وهذا (بيل غيت) يملك تسعين مليار دولار، عمره دون الخمسين، شاب صاحب مايكروسوفت، هذه الثروة الطائلة منوطة بدقات قلبه، إذا توقف قلبه انتهت هذه الثروة، وتحولت إلى غيره، ومنوطة بسيولة دمه، فإذا تجمد الدم في العروق انتهت حياة الإنسان، ومنوطة بنمو خلاياه، فإذا نمت نمواً عشوائياً انتهت حياته.

أيها الأخوة الكرام، كل مكتسبات الإنسان يخسرها في ثانية واحدة عند الموت، كلما دخلت إلى بيت في أرقى أحياء دمشق يقول لك: ثمنه ثمانون مليوناً، تعجب من التزيينات والثريات والسجاد، أين صاحب البيت ؟ في مقبرة الباب الصغير، هو الذي اختار هذا السجاد، وهذه الثريات، وهذه التزيينات، هو الذي اختارها فعلاً، وهو صاحب ذوق عال جداً، أين هو الآن ؟ البطولة أن تضحك يوم يبكي الناس حولك، هذه هي البطولة.

أفضل الزهد إخفاء الزهد:

بعض الملاحظات: لا داعي لترتدي ثياباً مرقعة، وتتصنع الزهد، وأنت لست كذلك، لأن أفضل أنواع الزهد أن تخفي الزهد، اجعله بينك وبين الله:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ))

[الترمذي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

تجمَّل، تنظّف، كن أنيقاً، ارتدِ ثياباً جميلة، رتّب بيتك، رتّب محلك، اظهر بمظهر لائق بمسلم، واجعل زهدك في قلبك، أما أن تجد إنساناً قلبه يذوب محبة للدنيا ومظهره زاهد فليس هذا هو الزهد، لأن أفضل الزهد إخفاء الزهد.

أن تزهد بحظك من المال، بحظك من الجمال، بحظك من المكانة، بحظك من الذكاء، أصعب أنواع الزهد أن تزهد بحظك في الدنيا.

الفرق بين الزهد والورع:

الفرق بين الزهد وبين الورع أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، أما الورع فهو ترك ما يخشى ضرره في الآخرة، إذا تركت الشيء لأنه يضر بآخرتك فهذا ورع، وإذا تركته لأنه لا ينفعك في الآخرة فهذا هو الزهد، هذا هو الفرق بين الزهد والورع.

فائدة جليلة:

أحد كبار العلماء اسمه يحيى بن معاذ يقول: عجبت من ثلاث:

١ـ رجل يرائي بعمله مخلوقاً مثله ويترك أن يعمله لله:

يتمنى رضاء إنسان، ولا يعبأ برضاء الله، يخشى أن تهتز مكانته عند إنسان، ولا يخشى أن تهتز عند الله.

قال أحد الشعراء:

فليتك تحلو والحـياة مـريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب
و ليت الذي بينك و بـينك عامر   وبيني وبين العالمين خـراب
إذا صح منك الوصل فالكل هين و كل الذي فوق التراب تراب

***

" عجبت من ثلاث: من رجل يرائي بعمله مخلوقاً مثله، ويترك أن يعمله لله "، مخلوق ضعيف لئيم، فانٍ، عاجز، لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، تجهد في إرضائه، وفي الاعتذار إليه، وفي التقرب منه، وفي تلميع شخصك أمامه، وملك الملوك المطلع عليك لا تعبأ أن تكون حيث أمرك، ولا أن تفتقد حيث نهاك.

٢ـ رجل يبخل بماله وربه يستقرضه فلا يقرضه:

قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة: الآية ٢٤٥)

السائل حينما يسألك يستقرضك، كأن الله يستقرضك، وأي عمل صالح يعرض عليه هو استقراض من الله لك، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة: الآية ٢٤٥)

٣ ـ ورجل يرغب في صحبة المخلوقين ومودتهم والله يدعوه إلى صحبته ومودته:

يا موسى أتحب أن أكون جليسك ؟ قال: كيف ذلك يا رب ؟ قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

(سورة مريم)

لك مع الله مودة، إنسان بالمرتبة العاشرة، لكنه قوي، يعطيك رقم هاتفه، تحدث الناس بهذه الحادثة مئات المرات، وتستقوي به، بينما ملك الملوك قال تعالى:

(إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: الآية ١٢)

ترك الأمر عند الله أعظم من إرتكاب النهي:

بقيت فائدة ثانية دقيقة، هي أن الشيء الذي نهينا عنه يجب ألا نفعله، ولكن إذا فعلناه ـ لا سمح الله ولا قدر ـ أيهما أعظم عند الله أن تدع الأمر أم أن تقترف المنهي عنه ؟ يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: ترك الأمر عند الله عز وجل أعظم من ارتكاب النهي لأن آدم نهي عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب الله عليه، وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد، فلم يتب الله عليه.

هذا أول استنباط.

الاستنباط الثاني: أن ذنب ارتكاب المنهي عنه مصدره في الغالب شهوة جامحة وحاجة ملحة، أما ذنب ترك الأمر فمصدره في الغالب الكبر والتأبي، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ويدخلها من مات على التوحيد، ويغفر الله له أخطاءه.

ثمة زاوية ثالثة:

أن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المنهي كما دلّ على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

((أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا))

[متفق عليه عن ابن مسعود]

وقوله:

((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ))

[الترمذي عن أبي الدرداء]

وقوله:

((... وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ الصَّلَاةَ...))

[ابن ماجه عَنْ ثَوْبَانَ]

أرجو الله تعالى أن يعيننا جميعاً على طاعته التامة، وعلى ترك كل ما نهى عنه، ولكن لو وازنت بين ترك الأمر وزلة القدم فيما نهى الله عنه وجدتَ أنّ ترك الأمر وراءه كِبر، ووراءه زهد بما عند الله، لكن الذي نهيت عنه لعلها ساعة غلبة، أو ساعة غفلة، فالفرق بينهما واضح.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢٦-٣٦) : أنواع النعم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١١-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى.

أنواع النعم

يقول في فصل عنوانه أنواع النعم:

" النعم ثلاثة، نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها ". إنها نعمة حاصلة تعرفها، ونعمة تنتظرها، ونعمة أنت فيها لا تعرفها، ولأن أية نعمة إذا شكرتها قيّدتها، فإن كفرتها خسرتها، وبالشكر تدوم النعم.

أيها الإخوة الكرام، لأنك في الأصل قد أنعم الله عز وجل عليك بنعمة الإيجاد، فوجودك نعمة، اسمك فلان الفلاني، هناك إنسان في الأرض اسمه فلان الفلاني هو أنت، من منحك نعمة الإيجاد ؟ الله عز وجل، ثم نعمة الإمداد، جعلك شاباً، منحك القوة، منحك الخبرة، منحك حرفة، منحك بيتاً، منحك زوجة، أمدك بما تتمنى، ثم منحك نعمة الهدى والرشاد، وخلقك لجنة عرضها السماوات والأرض.

أيها الإخوة الكرام، حالة المؤمن مع الله حالة الشكر دائماً، لأنه مغمور بفضل الله، لكن الإنسان الشارد الغافل لا يبحث إلا عن شيء فقده، كل النعم التي بحوزتك لا تنتبه إليها، أما النعمة التي يفقدها تكبر عندك، وترى نفسك محروماً، وتظن أن حظك سيئ، لذلك:

١. نعمة حاصلة يعلم بها العبد

كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت، فإذا كان الإنسان يتمتع بحركته لا يحتاج إلى من يحمله فهذه نعمة القوة، يتمتع بسمعه وبصره، له سمعة طيبة، ليس عليه بطاقة بحث، ليس مطالباً للعدالة، عنده بيت يأوي إليه، فهذه النعم إذا شكرتها قيدتها، أما إذا تجاهلتها، وندبت حظك للذي لم تحصل عليها فقد كفرت، لذلك إذا أراد الله عز وجل إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة، لو أنك أحصيت النعم التي أنت فيها فهي نعم لا تعد ولا تحصى، فأي خلل في جسمك تصبح الحياة جحيماً لا تطاق.

والله إن رجلاً في هذه البلدة أصابه مرض عضال، وزوج ابنه، وفي عقد الزواج ألقى كلمة، هو في بحبوحة كبيرة، ويسكن في بيت في أرقى أحياء دمشق، وله مركبة فارهة جداً، ومال، وأناقة، وثياب، قال: والله أتمنى أن أخسر بيتي ومركبتي، وكل شيء أملكه حتى ثيابي التي على جسمي وألا يبقى لي من ثياب إلا ما يستر عورتي، وأن أعافى من هذا المرض.

جاء رجل من فرنسا، وهو يحمل دكتوراه، وعُيِّن في منصب رفيع جداً في إحدى الوزارات، ثم فَقَدَ بصره، وخلال شهر جامله من هم أعلى منه، وأرسلوا البريد إلى بيته، بعد ذلك سرِّح، وهو يسكن في أرقى أحياء دمشق، وله زوجة جاء بها من مكان دراسته، يقول لصديقه وهو صديقي: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف أتكفف الناس، وليس على كتفي إلا هذا المعطف، وأن يُردَّ لي بصري.

إن الإنسان إذا متّعه الله عز وجل بنعمة البصر، ونعمة السمع، ونعمة النطق، ونعمة الحركة، أجهزته سليمة، ليس عنده أورام خبيثة، ولا أزمات قلبية، سمعته طيبة، له بيت، له مأوى، له طعام وشراب، كلما شكرت الله على نعمه قيّدها لك، وثبتها لك، وزادك منها، لذلك:

٢. ونعمة منتظرة يرجوها

قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: ٥٥]

هذه نعمة ننتظرها جميعاً إن شاء الله، قال تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)

[سورة القصص: ٥]

هذه نعمة ننتظرها إن شاء الله كمجموع، أما كأفراد فقال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً)

[سورة الكهف]

الآية الثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: ٩٧]

كل شاب يسير في طريق الإيمان، يضبط جوارحه، يضبط أعضاءه، يضبط دخله وإنفاقه، كلامه، نطقه، بيته، من حوله، من فوقه، من تحته وفق منهج الله فهذا ماذا ينتظر من الله ؟ ينتظر العطاء، ينتظر أن يكرمه الله بما أعطى عباده الصالحين.

٣. ونعمة هو فيها لا يشعر بها

كيف ؟ إنسان عنده زوجة شريفة طاهرة، له معها سنوات طويلة، إذا خرج من البيت لا يأتيه أي خاطر، لا يتوقع أن تتساهل مع إنسان غريب ولا بكلمة، ولا بابتسامة، هذه نعمة ـ والفضل لله عز وجل ـ متوافرة في معظم الأزواج، إذْ تسعة وتسعون بالمئة من أزواج المسلمين عندهم هذه نعمة، زوجته شريفة طاهرة، لكن لا تعرف هذه النعمة إلا إذا فقدتها، لا تعرف هذه النعمة إلا إذا شككت في زوجتك، لا تعرف هذه النعمة إذا توهمت أن أحداً يدخل إلى بيتك في غيبتك كأنك بركان، كأنك مرجل، فنعمة الزوجة الشريفة الطاهرة العفيفة لا تقدر بثمن، لكن الناس لا ينتبهون إليها، ولا يشكرونها، بل يبحثون عن نقاط الضعف في زوجاتهم، وعن بعض السلبيات، ويندب أحدهم حظه من أجلها، لكن هل غلب على ظنك أن نعمة الزوجة الشريفة لا تقدر بثمن ؟ هذه نعمة أنت فيها ولا تعرفها، وآلاف النعم في صحتك لا تعرفها، وأن عقل الإنسان سليم، فلو فقَدَ عقله أين يكون مصيره؟

حدثني أخ قال: كنا نضطر أن نربط الوالدة من يديها ورجليها على السرير، قلت له: لماذا ؟ قال: لأنها إذا كانت يديها طليقتين نزعت عنها كل الثياب، وأكلت من غائطها.

الإنسان نظيف، يعرف الطهارة، عقله سليم، حديثه منطقي، محبوب، محترم، هذه نعمة، فأنت لو بحثت عن النعم الإيجابية لوجدتها أكثر من أن تحصى، فإذا اشتغلت بشكرها زادك الله من نعمه. لكن ثمة إنسان سوداوي المزاج، دائماً يندب حظه، دائماً يشكو، يشكو من لا شيء أحياناً، يشكو أشياء طبيعية جداً، وهي موجودة في كل إنسان.

سبب بقاء و زوال النعم

فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده ألهمه شكْرها، لأن من تمام النعمة أن تشكرها، فقد تكون عندك، لكنك إن لم تشكرها فقد ضيعتها، أما إن شكرتها فقد قيدتها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره لها قيداً يقيدها حتى لا تشرد عنه، يا رب، كيف أشكرك ؟ وشكري لك هو نعمة جديدة أضيفها على نعمك، أحدهم: قال كيف شكرك ابن آدم ؟ قال: علم أن شكرها مني، فكان هذا شكره.

إن النعم تشرد بالمعصية، وتقيد بالشكر، فالشكر قيد، فإذا كنت في بحبوحة، في صحة، في وفاق أسري، عندك أولاد أبرار، عندك زوجة صالحة، لك دخل جيد، إذا كنت شاكراً لهذه النعمة فاطمأن، فأنت في ازدياد، أما إذا تجاهلت نعم الله عليك، تجاهلت نعمة الأمن، تجاهلت نعمة الصحة، نعمة الفراغ، نعمة الأمن التي لا تعدلها نعمة أطعمهم من:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

[سورة قريش]

ونعمة الفراغ، عندك وقت فراغ، فتأتي إلى درس علم، أما الذين أودعوا في السجن انتهت حريتهم، اصبروا أو لا تصبروا، وأنت حر طليق، عندك نعمة الأمن، وعندك وقت فراغ، عندك ما يسد حاجتك، الآن الناس مشكلاتهم ليست في الأساسيات، بل في الثانويات، أما الأساسي كله فموجود، وما مِن بيت ليس فيه طعام ولو كان طعامًا خشنًا، ولو كان أقلَّ الطعام، أما النبي صلى الله عليه وسلم فكان يدخل بيته، ويقول:

((أَعِنْدَكُم شَيْءٌ ؟ يَقُولُونَ: لاَ، فيَقُولُ: إني صائم))

[مسلم عن عائشة]

كل إنسان يأوي إلى بيت، صغيرًا كان أو كبيرًا، لكنه مأوى، ولا تعرف قيمة المأوى إلا إذا سافرت، ولم تجد مكاناً تنام فيه، لا تعرف قيمة المأوى إلا إذا بحثت عن مأوى فلم تجد.

النعم تقيد بالشكر، و تشرد بالمعصية.

يحكى أن أعرابياً دخل على الرشيد فقال: " يا أمير المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها، ولا تعرفها كي تشكرها ".

لو جعلنا من هذا الدرس نشاطًا نمارسه الليلة، أن نعدد النعم التي نحن فيها، وقد ننسى أنها نعم، لو عددنا النعم التي نحن فيها، ثم غفلنا عن أن هذه نعم، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ))

[الترمذي عن ابن عباس]

لو زرت المستشفيات لكنت في حالة شكر مع الله لا توصف، فلمجرد أن تعرف أن هذه نعمة من الله فهذا نوع من الشكر، ولمجرد أن يمتلئ قلبك امتناناً لله عز وجل فهذا مستوى أعلى من الأول، ولمجرد أن تجندك نفسك لخدمة عباده فهذا أعلى درجات الشكر، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

[سورة سبأ]

سبب السعادة و الشقاء

حينما تحسن للفقراء والمساكين تشعر بنعمة الغنى، فقد ينغمس إنسان في ملذات محرمة أو مباحة، لكنه شارد، وهناك إنسان آخر يبحث عن الفقراء والمساكين يرأب الصدع، يجمع الشمل، يطمئن، يعطي، يطعم، يعالج، يداوي، يتفقد، وإذا أردت أن تكون أسعد الناس فأسعدهم.

قرأت مرة في مجلة: " إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين "، إن أسعدت الآخرين فأنت أسعدهم، وأنا أتمنى على إخوتنا أن تخرج من ذاتك إلى خدمة الخلق، إذاً أنت أسعد الخلق، لأن الله شكور، همك نفسك، همك بيتك، همك دخلك، همك راحتك، همك أن تستلقي على الفراش إلى أمد طويل، همك أن تأكل ما تشتهي لا تعبأ بأحد، لا تعبأ بقريب، ولا صديق، ولا بجار، ولا بأخ، ولا بإنسان محتاج، ولا بإنسان مريض، لا تحمل هم المسلمين، إن كنت كذلك وأنت مستقيم فأنا لا أشك باستقامتك، لكن إن كنت كذلك لا بد من أن تصل إلى المكانة التي هيأك الله لها عن طريق المصائب، أما إذا خرجت عن ذاتك، وخدمت الخلق فإن الله عز وجل يحفظك، ويعلي قدرك، لأن لك عند الله مكانة، فإما أن تنالها بالصبر، وإما أن تنالها بالشكر، وأرقى أنواع الشكر خدمة الخلق، لذلك قال بعضهم: يا رب، لا يحلو الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك راقب نفسك حينما تخدم إنسانًا، أو تنفس كربة عن إنسان، أو تيسر مشكلة لإنسان، أو تخفف الهم عن إنسان، ألا تشعر أنك تتقرب من الواحد الديان ؟ لما ترى طفلاً مع أبيه، وتعطي هذه الطفل قطعة حلوى، في الحقيقة هذه الحلوى لمن ؟ للأب، لكن عن طريق الابن، فلا تستطيع أن تقدم لله شيئاً، هو غني عن العالمين، لكنك إذا خدمت عباده، ونصحتهم، ويسرت أمورهم، وخففت عنهم فأنت في نعمة كبيرة.

كيف تعرف مكانك عند الله؟

لأن الخير بيد الله، والشر بيده، فطوبى لمن قدر على يده الخير، والويل لمن قدر على يده الشر ، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، يا ترى عملك، حرفتك، مهنتك فيها خدمة للخلق، أم فيها تعذيب لهم ؟ أم فيها ابتزاز لأموالهم ؟ أم فيها إلقاء الرعب في قلوبهم ؟

والله أيها الإخوة الكرام، إن أشقى إنسان على وجه الأرض من يعيش على آلام الآخرين، وعلى قلقهم، وعلى خوفهم، وعلى فقرهم، وعلى ابتزاز أموالهم، هذا أشقى إنسان، لذلك قال تعالى:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان]

المعنى المخالف: المؤمن تبكي عليه السماء والأرض، المكان الذي يمشي فيه المؤمن هذا المكان يقدَّس، لأن المؤمن همه العطاء، وهو مصدر سعادة ومصدر أمن، وهناك شخص تخاف منه، تنتظر أن ينتقم منك، تنتظر أن يوشي بك، لا يطمئنك، أما المؤمن فهو مصدر أمن، مصدر سعادة. لذلك أيها الإخوة الكرام، أول نقطة: إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، هناك وظائف ـ والعياذ بالله ـ مخيفة يسبب صاحبها كل يوم لمئات الأسر أزمات قلبية، وانفصام شخصية، وشقاق أسري، وطلاق من شدة الفقر.

أنا أتمنى على كل إنسان إن كان له حرفة تُبنَى على إلقاء الخوف في قلوب الناس، أو تُبنى على ابتزاز أموالهم، أو تُبنى على إفقارهم أن يركلها بقدمه،

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

[ابن ماجه بسند صحيح]

حدثني أخ أن مركبته جديدة جداً، وعليها لوحة مؤقتة، استوقفه شرطي، يبدو أن اللوحة المؤقتة ممنوع أن يركب أحد معه إلا من يقود السيارة، فقال له: هذه مخالفة، يبدو أنه أعطاه مبلغاً، فرفضه، وضاعفه، كان أشد رفضاً له، ثم قال له الشرطي: أنا تائب إلى الله، انظر إلى يدي، أنا أعمل بعد الدوام في حمل المواد البنائية، أنا من أربع سنوات تبت إلى الله، لأني كنت أمد يدي إلى الحرام، وكانت المصائب تنزل علي كالمطر، فانتبهت، وتبت إلى الله، وانظر إلى الله هذا الأخ جزاه الله خيراً أخذه إلى معمله، وكساه، ومَن حوله أعلى كسوة في العيد، التائب شيء كبير، قال له: أنا تائب، فلما تتوب إلى الله الله عز وجل لا ينساك من فضله.

يجب أن نشعر بنعم الله علينا

أيها الإخوة الكرام، نعمة الأمن، نعمة الفراغ، نعمة الصحة، نعمة الزوجة، نعمة الأولاد، نعمة المأوى، نعمة السمعة الطيبة، نعمة أن لك دخلاً تعيش به، نعمة أن لك أصحاباً يحبونك، كل هذه النعم إذا ذكرتها أحببت الله عز وجل، وإن غفلت عن هذه النعم، وكنت سوداوياً متشائماً صعب المزاج تشكو دائماً، تسخط دائماً، تبحث عن الخلل دائماً، تبحث عن النقص دائماً، هذه مشكلة.
والله أيها الإخوة الكرام، حدثني أخ قال لي: كنت عند إنسان، وأنا أعلم علم اليقين أن حجمه المالي أكثر خمسة آلاف مليون، قال لي: شكا من تجارته، من برودة الأسواق، من أهله، من أولاده، قال: والله بعد أن انتهى حديثه لم أستطيع أن أقف على قدمي، قال لي: ذهبت إلى محلي التجاري، فإذا امرأة محجبة قد دخلت إلى المحل، قالت له: دُلِلت عليك، نحن بحاجة إلى مساعدة شهرية، فالرجل

يعمل في الخير، قال لها: مِن أين أنتِ ؟ ذكرت له اسم بلدة في ظاهر دمشق، قال: والله أنا اليوم عندي ذهاب إلى هذه البلدة، وإلى جمعيتها الخيرية، أعطني العنوان، قال: فأعطتني العنوان، فلما كنت عندهم في المساء ذكرت لهم هذا الطلب، فقال: اذهب كي نحقق مع صاحبة الطلب، قال: فذهبنا إلى بيت أقسم لي بالله أن هذا البيت لا يمكن أن يسكنه إنسان، مساحته ضيقة جداً تحت درج، أمامه فسحة، فالمنطقة المرتفعة من تحت الدرج غرفة، والمنطقة الأقل ارتفاعاً مطبخ، والأقل هو حمام تحت درج، قال: دخلنا إلى البيت، وهو نظيف، والأطفال في أعلى نظافة، والزوج مستلقٍ على سرير وهو مريض، والزوجة محجبة، قال لي: شعرت بشعور عجيب، قال: كأن هذا البيت جنة، مع أنه قال: والله يستحيل أن يسكنه بنو آدم، لكن البيت فيه روحانية، فأعطوها ألفين في الشهر، قالت لهم: لا، يكفينا ألف، نحن نحتاج إلى أجرة هذا البيت فقط، أما دخل زوجي فيكفي، قال لي: وازنت الذي عنده خمسة آلاف مليون، ومن كثرة الشكوى كدت أبرك، وهذه المرأة المحجبة على هذا البيت الذي هو تحت درج فقط، فعرضنا عليها ألفين فأبت أن تأخذ إلا ألفًا فقط، انظر لما تعرف أن هذه النعم كبيرة.

والله أيها الإخوة الكرام، نحن جميعاً، ولا أستثني واحداً منا في نعم لا تعد ولا تحصى، فإذا اشتغلت بشكر النعمة قيدها الله لك، وثبتها لك، وزادك من نعمه،

قال تعالى:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

[سورة إبراهيم: ٧]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢٧-٣٦) : حلاوة التوكل على الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١١-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

نقص الإيمان يؤدي لعدم التوكل

أيها الإخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، وعنوان هذه الفائدة حلاوة التوكل على الله، وما أشد حاجة المسلمين في هذه الأيام العصيبة إلى أن يعرفوا ربهم، إلى أن يعرفوا أن الأمر كله بيد الله، إلى أن يعرفوا أن يد الله فوق أيديهم، وأنه لا يقع شيء في ملك الله إلا إذا سمح الله به، لكن المشكلة أن النقص في معرفة الله يبعد عن التوكل عليه، والإنسان من ضعف إيمانه يرى من في الأرض، فإذا قوي إيمانه يرى من في السماء، ولا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد، لكن المشكلة أن الإنسان يريد الدنيا، يريدها آمنة مطمئنة رغيدة، يريد المال، يريد الاستقرار، يريد راحة البال، ويغفل عن الآخرة، فتأتي هذه المنغصات، وتلك المقلقات كي ترشده إلى الهدف الذي خلق من أجله، قال تعالى.

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة القصص]

ما معنى ذلك ؟ الله عز وجل بنص القرآن الكريم جعل هذه الشدائد رسائل، نحن نؤلف الرسالة، وهي ورقة فيها كلام، لكن الحقيقة أن الرسالة أحياناً تكون عملاً، أحياناً دولة على وشك الحرب تجري عرضاً عسكرياً، هذا العرض رسالة تظهر أسلحتها، أحياناً يكون ثمة اتفاق بين دولتين، وهناك تهديد من دولة ثالثة، فيجريان مناورات عسكرية مشتركة، هذه رسالة الأذكياء، رسائلهم أفعال، وليست أقوالا، قال تعالى.

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه]

آيتان.

الأولى.

(أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

والثانية.

(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

معنى التوكل

أيها الإخوة الكرام، بقدر طاعتك لله تتوكل عليه، وبقدر تقصيرك في أداء واجباتك الدينية أو الاجتماعية تجد صعوبة في التوكل عليه، لكن يجب أن تعلم علم اليقين أن.

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد عن أبي الدرداء]

يقول ابن القيم.

" من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقصان، أو طلب صحة أو فرارًا من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العبد، وأقدر على جلبها وتحصيلها منه، وأنصح للعبد منه لنفسه، وأرحم به منه بنفسه، وأبر به منه بنفسه، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة، فلا متقدم له بين يديه، ولا متأخر، فألقى نفسه بين يدي الله عز وجل، وسلم الأمر كله إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك بين يدي ملك عزيز قاهر، له التصرف في عبده بكل ما شاء ".

الوصف سهل، أما أن تعيش هذه الحقيقة فهذا يحتاج إلى إيمان كبير.

الأمر كله بيد الله

الحقيقة أنك ترى أشخاصاً أقوياء، أشخاصاً مخيفين، ترى قوى باغية طاغية مجرمة لا تخشى أحداً، وليس في قلبها رحمة، هذا الذي تراه بعينيك، ولكن سأقول لكم هذه الآية، وهي محيِّرة، يقول الله عز وجل.

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

[سورة الشورى]

بيد من كانت ؟ هذا المنصب صار إلى فلان، كان بيد إنسان آخر، قال تعالى.

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

[سورة الشورى]

من أدق الآيات، وقد حار فيها المفسرون طبعاً هذا يوم القيامة، يوم القيامة تصير الأمور إلى الله، وفي الدنيا بيد من كانت ؟ بيد هؤلاء الطغاة ؟ قال علماء التوحيد. الأمر دائماً وأبداً بيد الله، ولكن برؤية ضعاف الإيمان هي بيد هؤلاء الطغاة، لكن برؤية المؤمنين الصادقين وهم في الدنيا بيد الله، لكن يوم القيامة كل أهل الأرض يرون يقيناً أن الأمور كانت، وصارت، وستبقى بيد الله، هذا اختلاف رؤية.

واللهِ أيها الإخوة الكرام، في هذه الأيام الصعبة بين مؤمن يرى أن الأمر بيد الله، وأن الله عز وجل حكيم رحيم عادل.

دع التدبيـــر في الأمر له واصنع المعروف مع من صنعك

كيف ما شاء فـكن في يده لك إن قرب أو إن أبـــعدك

في الورى إن شاء قهراً دقته و إذا شاء عليهم رفعـــك

***

التوحيد سبب التوكل

هذه ملة طه، لكن التوحيد شيء ثمين جداً، هو سبب التوكل، لأنه ما يتناسب مع عقيدة المسلم أن يسلم الأمر لعباده، وقضية الحياة والرزق قطعت عن العباد، وهي بيد رب العباد، لذلك قالوا كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً.

ذكر بعضهم قصة رمزية طبعاً، جاءت امرأة إلى سيدنا نوح قبل الطوفان وقالت له. يا نوح، لا تنسني أن أكون أحد ركاب السفينة، هكذا تروي القصة الرمزية، سيدنا نوح، وهو في السفينة، وفي موج كالجبال تذكر المرأة، لقد نسيها، طبعاً أيقن أنها ماتت، بعد انتهاء الطوفان، وبعد استقرار السفينة على الجودي جاءته هذه المرأة، فقالت. يا نوح، متى الطوفان ؟ مستحيل وألف ألف مستحيل أن ينساك الله، هو خبير بعملك.

أيها الإخوة الكرام، آية والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن كله إلا هذه الآية لكفت:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية. ٢١]

هل يمكن لشاب مؤمن طائع مستقيم مؤدٍّ لعباداته بارٍّ بوالديه، يقدم كل ما عنده لخدمة من حوله، يرجو الله ليلاً ونهاراً، يؤدي الصلوات، يغض بصره، هل يمكن أن يعامل هذا كما يعامل شاب متفلت لا يستحي، وقح، يأخذ ما ليس له، يعتدي على غيره، ينتهك أعراض الآخرين ؟ وأن يستوي هذا مع هذا ؟ هذا ينفي وجود الإله، أستخدم عبارة لعلها قاسية، أن يستوي المحسن مع المسيء،

والصادق مع الكاذب، والمستقيم مع المنحرف، والمخلص مع غير المخلص، الوفي مع الخائن، المنصف مع الجاحد، أن يستوي هذا مع هذا ؟ هيئوا أنفسكم مع الجواب، هذا لا يتنافى مع عدل الله فحسب، بل يتنافى مع وجوده.

والله مرة أخ طبيب توفي قبل أشهر ـ رحمه الله ـ قبل تقريباً عشر سنوات لزم هذا المسجد، وكان متفاعلا مع الخطب، وكان عقب كل خطبة يجلس معي في المكتب فترة، قال لي مرة. جاءته امرأة معها ورم متطور في صدرها، بلغ درجة كبيرة جداً، والموت محقق، فهو غار عليها، فأخذ زوجها جانباً، وقال له. أنت في حقها مجرم، قال. ولمَ ؟ قال. هذا الورم في البدايات معالجته سهلة جداً، يمكن باستئصال كيميائي أو بالأشعة، أما الآن فقد انتهى الأمر، فالزوج قال. أنا ما قصرت أبداً، نحن عند الطبيب فلان، ولنا عنده سنتان، وهو يعطينا المضادات الحيوية، وكورتيزون، هكذا قال له، فقال لي هذا الطبيب الكبير. طالب الطب يعرف أنه ورم خبيث، لكن إبقاء هذه المريضة عنده من أجل ابتزاز المال فأعطاها مسكنات، ومضاد التهاب، والكورتيزون، فلما علم الزوج أن هذا الطبيب من أجل ابتزاز المال أبقاها عنده، ولم يرشدها إلى طبيب اختصاصي، فقال لي وهو عملاق وقع على الأرض، وصار يضطرب، ثم قال هذه الكلمة، قال. يا رب، إذا كنت موجوداً فانتقم منه، ما ربط انتقام الله بعدله، بل بوجوده، قال لي والله كلمة كبيرة، قالها ثم انصرف، وبعد ستة أيام توفاها الله، قال لي. بعد أحد عشر شهراً جاءني إنسان شاب أنيق، لكن متهالك، جلس على المقعد الذي جلس عليه زوج هذه المتوفاة المريضة، قال له. تفضل، قال. أنا زميلك، الاسم الكريم، قال فلان، نفس الطبيب، ورم خبيث في صدره، قال. أقسم بالله بحسب اختصاصي أن هذا الورم بدأ من أحد عشر شهراً من وقت هذا الزوج انبطح على الأرض، وقال. يا رب، إذا كنت موجوداً فانتقم منه، الله كبير.

الإستقامة تؤدي إلى التوكل

فيا أيها الإخوة الكرام، إذا استقام الإنسان يتوكل على الله، فإذا كان منحرفاً أو كان مقصراً، أو كان غارقاً في بعض المخالفات، أو له دخل مشبوه، أو مقصر في بر والديه، أو مقصر في تربية أولاده يجد صعوبة بالغة في التوكل على الله، لا يليق بكمال الله أن يسلمك لغيره، ويتحكم بك غيره، هذا لا يليق، ولكن يليق برحمته إذا فيك تقصير أن يخيفك من غيره، قال تعالى.

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الأنعام. ٨٠]

ضربت البارحة مثلاً لإنسان فطرب له، قلت له. إنسان قوي يهدد، نصدق، ويصعد الدولار، وخالق الأكوان إذا طمأن لا نصدقه، إذا كنت مؤمنًا مستقيمًا فيجب أن تطمئن، قال تعالى.

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

[سورة سبأ. ١٧]

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة]

أنا أتمنى على المؤمن المستقيم ألاّ تضعف معنوياته، قال تعالى.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك، وقال لك.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود. ١٢٣]

أيها الإخوة الكرام، نحن بحاجة إلى رفع معنويات، نحن بحاجة لا إلى جلد الذات كما يفعل معظم المثقفين، أينما جلست تسمع جلدًا للذات، تنتهي الجلسة، لا تستطيع أن تقف، والله لا تستطيع أن تقف، لا أمل، الطرق كلها مغلقة، لك عدو قوي جبار، لا يرحم، وأحقاد دفينة، ويتمنى الدمار الكامل والإبادة، يتمنى ومعه أسلحة فتاكة، والعالم كله معه، والناس مع القوي فقط، أنا لا أدخل في موضوعات لا تعنيني إطلاقاً، لكن أن أقول لمؤمن، أنا أخاطب مؤمناً ملتزماً، مؤمناً دخله حلال، مؤمناً بيته منضبط، مؤمناً يحب الله، هذا ليس من سقط المتاع، هذا غالٍ على الله، بالتعبير الدارج، قال تعالى.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور. ٤٨]

أنا أتمنى على الواحد أن تبقى معنوياته عالية، كيف أن النبي الكريم صلى الله عليه و سلم تبعه سراقة، وقد أهدر دمه، قال. كيف بك يا سراقة إذا لبستَ سواري كسرى ؟ بربكم سامحوني بهذا المثل الذي لا يحتمل، هل يمكن لقبيلة في اليمن أن تنتصر على البيت الأبيض ؟ مثلاً، هكذا كان العرب، قبائل متناحرة، قال. كيف بك يا سراقة إذا لبستَ سواري كسرى ؟ يعني أنا سأصل، و سأسس دولة، وسأحارب أكبر دولتين، وسأنتصر، وسوف تأتي الغنائم، ولك يا سراقة سواري كسرى، هذا هو الإيمان، قال تعالى.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

هل من المعقول لمؤمن ملتزم في أصعب زمن، زمن الفجور والمعاصي والآثام، والتفلت الأخلاقي، والإباحية الجنسية، وكل شيء يدعو إلى المعصية، وأنت من بيتك إلى جامعك، ضابط

لأمورك، تخشى الله، تؤدي عباداتك، هل من المعقول ألاّ يكون لك ميزة عند الله، مثلك مثل غيرك؟ قال تعالى.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية. ٢١]

في الآخرة لا في الدنيا، قال تعالى.

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية. ٢١]

الإستقامة تؤدي إلى التوكل

إذاً أيها الإخوة الكرام، التوكل على الله من لوازم الإيمان، إن الله يحب المتوكلين، ولا يليق أن يكون الجندي بجيش قائده أبوه، وهو غال عليه أبوه، ويأتي عريف بسبعة نجوم يهدده فينهار !!! الذي بيد أكبر الضباط بالجيش بيد والدك، وأنت ابنه، وهذا العريف جاهل، فما كل إنسان يهدد نصدقه، أنا أخاطب مؤمناً ملتزماً، البقية ليس لي علاقة بهم، المؤمن الملتزم مؤمن يحب الله، مؤمن يخشى الله، يرجو محبته، يخشى عذابه، يرجو جنته، يتجنب ناره، مؤمن له مجلس علم، ما عنده سهرة بملهى، ولا عنده سهرة مختلطة، ولا عنده دخل من مال حرام، دخله حلال، يعلم الطلاب، أحياناً يتاجر بمادة مسموح بها شرعية، أنا أحب الإنسان الذي يعرف قيمته، يعرف مكانته عند الله عز وجل، والأمور ليست هكذا، مادام أن الله تعالى قال.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة]

الله عز وجل ذكر عن سيدنا موسى أنه وُضع في صندوق في نهر النيل، فحركة الصندوق بيد الله عز وجل، أعطاك أدق التفاصيل، أدق أدق التفاصيل عن حركة الصندوق، واتجاهه نحو القصر، وأن غصناً كان في طريقه، فتوقف، وألهم امرأة العزيز، ونزلت إلى الشاطئ، ورأت الصندوق، وفتحته، ورأت فيه غلاماً صغيراً، وألقى الله محبته في قلبها، وحرم عليه المراضع، إنها تفاصيل دقيقة جداً، بعضها مادي، وبعضها نفسي، هذا مثلٌ في أن الأمر كله بيده، التفاصيل بيده، الغربيون الذين ما عرفوا الله يعتقدون أن الله خلاق فقط، لكن ليس فعالاً، وخلق قويًّا وضعيفًا، وسمح للقوي أن يأكل الضعيف، هذا إله يعبد ؟! قال تعالى.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود. ١٢٣]

والله لو أن هذه الآية أتلوها في اليوم ألف مرة لا أرتوي منها، قال تعالى.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود. ١٢٣]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال. ١٧]

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح. ١٠]

الله عز وجل ينقذ المؤمنين، قال تعالى.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء]

قصة يونس لمن ؟ هل ثمة أصعب وضع من سيدنا يونس في بطن حوت ؟ الله جعلها قانونًا.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

قصة سيدنا موسى مع أصحابه، قال تعالى.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء]

الله عز وجل ساق لنا قصصًا احتمال النجاة فيها صفر، تصور فرعون بقوته، وعدده، وعدته، وجبروته، وكبريائه، واستعلائه، واستكباره، وأسلحته، وهو وراء شرذمة قليلة، فيهم سيدنا موسى، وصلوا إلى البحر، كم في نظرك من احتمال النجاة ؟ البحر من أمامكم، وفرعون وراءكم، قال تعالى.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء]

والله في هذا المسجد لي قريب طبيب عضو في لجنة حوض دمشق، فمرة زارني بعد الخطبة، وصف لي وضع حوض دمشق، أقسم بالله بعد أن انتهى من حديثه ما كان عندي إمكان أن أقف، انخفاض مستوى الحوض إلى العشر، والشام مقدمة على جفاف مميت، كلام علمي، خبراء، وبيانات، وإحصاءات، في العام التالي أذكر تماماً هذا الكلام بشهر تشرين، نزلت أمطار بدمشق ثلاثمئة وخمسين ميليمترًا، هذه مرة واحدة، هذه نزلت في ينابيع جافة منذ ثلاثين سنة، فتفجرت مياه منين، ووصلت إلى الشام في عين الصاحب، فتفجر بالغوطة ثلاثون نهراً صغيراً، وبعد الجفاف التام تفجر ثلاثمئة وخمسون ميليمتر، إذا أعطى الله أدهش، ونحن نحتاج إلى توحيد وتوكل، التوحيد يصنع التوكل، وكلما ازددت توحيداً ازددت إيماناً، فالمطلوب هو التوحيد، أما مادمت في متاهة (هدَّدوا، وهناك حصار، وارتفاع الأسعار خمسة أضعاف، والدخل ثابت، ويقف التصدير، ويقف الاستيراد)، هذا كله كلام يثبط العزائم، الله عز وجل بيده كل شيء.

تحدى ملك شيخ النجارين، طالبه بشيء مستحيل، طالبه بمئة كيس نشارة، أو يعدمه، بلغه مساء، وفهم موضوع القتل، فهيأ وصية، وودع أولاده، وودع زوجته، لأن يقينه بالموت بالمئة مليون، وطرقوا الباب فجرًا، فقالوا. مات الملك، تعال واصنع تابوتاً له.

من كان يصدق هذه الكتلة الجبارة العملاقة الكتلة الشرقية التي عندها أسلحة كافية لتدمير خمس قارات خمس مرات من كان يصدق أن تتداعى من الداخل، لا حرب، ولا قصف، ولا عدوان ؟ تداعت من الداخل، قال تعالى.

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

[سورة الحشر. الآية ٢]

إذاً التوحيد يفضي بك إلى التوكل، قال تعالى.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران. الآية ١٥٩]

سأعيد هذه الفقرات.

" من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقصان، أو طلب صحة أو فرارًا من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العبد، وأقدر على جلبها وتحصيلها منه، وأنصح للعبد منه لنفسه، وأرحم به منه بنفسه، وأبر به منه بنفسه، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة، فلا متقدم له بين يديه، ولا متأخر، فألقى نفسه بين يدي الله عز وجل، وسلم الأمر كله إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك بين يدي ملك عزيز قاهر، له التصرف في عبده بكل ما شاء ".

كيف نفسر الأمور

أنا كنت أقول لكم. الآن المشكلة ليست في تصديق الخبر أو تكذيبه، لأن الأرض أصبحت سطح مكتب كلها، كانت قرية فأصبحت بيتًا، فأصبحت غرفة، الآن هي سطح مكتب، فالذي يجري في العالم بعد دقيقة تراه رأي العين، وما مِن شيء مكتوب، كله واضح، لكن المشكلة الآن كيف تفسر ما يجري فقط ؟ هناك تفسير عُلْويٍّ إلهي إيماني توحيدي، وهناك تفسير أرضي شركي، التفسير الأرضي يجعلك تبرك، يجعلك تنشل، لا أمل، والتفسير السماوي ينتهي بك إلى أن الكرة عندك،

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

الملخص. التفسير الأرضي قهر،أما السماوي فتسليط، قال تعالى.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء. الآية ٩٠]

التفسير السماوي تسليط، تسليط حكيم،تسليط موظف للخير،

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

أنا أنتظركم يا عبادي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب.

واللهِ أعرف شخصاً بعيداً عن الدين بُعد الأرض عن السماء، غلط غلطة، ودخل السجن، ولاقى ما لاقى في السجن، هو في الخمسينات، لا يصلي أبداً، السجن انتهى به إلى الصلاة، وإلى الصيام، وإلى التوبة، وخرج بعد ذلك، فكرت في الموضوع فوجدت أن هذه المصيبة مثل الضيف، جاءت ورحلت، وتركت الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى، فالله عز وجل هذه أفعاله، الآن يمكن أن يكون الأمر في هذا الذي جرى في العالم ضد المسلمين غير مناسب، فإما أن الله عز وجل يمد في أعمارنا جميعاً، فنرى نتائجه الإيجابية، أو أن جيلاً آخر يقطف ثماره هذا الذي جرى العالم ضد المسلمين لصالح المسلمين، لأن الآية واضحة.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

نحن بحاجة إلى التوحيد

نحن بحاجة إلى التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وبكلمتين مختصرتين. نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، نهاية العلم ألاّ ترى مع الله أحداً، أما على الشبكية فهناك مليون إله، الآن هناك طغاة، وجبابرة، وأقوياء، لكن بالإيمان الصحيح ليس إلا الله، وهذه (لا إله إلا الله ، كلمات الإسلام، مع ترددها من دون فهم لمعناها فرغت من مضمونها، ونهاية العمل التقوى طاعة الله.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢٨-٣٦) : معرفة الله سبحانه و تعالى نوعان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١١-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى.

معرفة الله نوعان:

قال ابن القيم:

" معرفة الله عز وجل نوعان: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس جميعاً، البر والفاجر، والمطيع والعاصي ".

النوع الأول: معرفة إقرار

أنت عبد لله، شئت أم أبيت، لكن ثمة فرق كبير بين أن تكون عبد شكر، وبين أن تكون عبد قهر، فكل إنسان مقهور من قِبل الله عز وجل، مقهور بشرايين دماغه، فإذا تجمدت ذرة دم لا ترى بالعين أصيب الإنسان بشلل، أو فقد ذاكرته، أو فقد سمعه وبصره أو حركته، فأنت عبد قهر، وجمع عبد القهر عبيد:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة فصلت: الآية ٤٦]

لكنك إذا عرفت الله مختاراً، وأقبلت عليه محباً، وتقربت إليه، وكنت في خدمة عباده فأنت عبد شكر، وجمعُ عبد الشكر عباد، وعباد الرحمن، وما ربك بظلام للعبيد، هذا عبد قهر، حتى الملحد عبد قهر، لأن الله قهره بالموت، فهو بيد الله، والحياة بيد الله، والصحة بيد الله، والمرض بيد الله.

النوع الثاني: المعرفة التي أرادها الله منا

" معرفة الله نوعان: الأولى معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس، البر والفاجر، والمطيع والعاصي، أما المعرفة الثانية فمعرفة توجب الحياء من الله، والمحبة له، وتوجب تعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، وتوجب خشيته، وتوجب الإنابة إليه، وتوجب الأنس به، وتوجب الفرار من الخلق إليه ".

هذه المعرفة التي يريدها الله منا، معرفة المبادرة إلى الله، معرفة الطاعة، معرفة الشكر، معرفة التوكل، قال:

" هذه المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه ".

التعرف على نِعم الله

إلا الله وحده يحصي هذه النعم، وكل إنسان منحه الله نعمة، هذا منحه نعمة الفهم، هذا منحه نعمة الطلاقة باللسان، هذا منحه نعمة خدمة الخلق، هذا منحه نعمة أنه أب صالح، وهذه أم صالحة، هذا منحه نعمة احتواء الآخرين، النعم التي ينعم بها على العباد بعدد العباد، كما أن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، النعم التي منحها الله لعباده هي بعدد خلقه، كل إنسان عنده ميزة، هناك شخص عنده قوة إقناع، هذه نعمة كبيرة، وشخص عنده طلاقة باللسان، وشخص عنده صدر واسع، وشخص يوجد عنده رحمة، وشخص عمله متقن، وشخص أب من الطراز الأول، وهكذا.

فهذه النعم الثانية التي توجب الحياء والمحبة، وتعلق القلب، والشوق والخشية والإنابة والأنس والفرار هي نعم لا يحصيها إلا الذي منحها، أما سيد الخلق وحبيب الحق فيقول:

((لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))

[مسلم عن أبي هريرة]

معنى الله أكبر

ما معنى الله أكبر ؟ يعني كلما ازددت معرفة به كان الله أكبر، وكلما عرفت من رحمته الله فهو أرحم، وكلما عرفت من عدله الله فهو أعدل، وكلما تعرفت إليه كان الله أكبر مما عرفته.

المعرفة التي لا قيمة لها

ما من إنسان إلا ويقول: الله موجود، هذه لا قيمة لها، بالعكس الذين يعملون بالمعاصي الصارخة يقولون لك: الله وفقني بهذا الدور، ويكون الدور كله فسق وفجور، ومع ذلك يقول:

إن الله وفقه، هذه المعرفة لا قيمة لها، ولا تقدم ولا تؤخر، هذه المعرفة قاسم مشترك، دخل في أفرادها إبليس الذي قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: الآية ٨٢]

لكن المعرفة الثانية معرفة الحب، معرفة الخشية، معرفة الإنابة، والإقبال، ومعرفة السير إلى الله، ومعرفة الرحمة

أبواب معرفة الله

فقال:

الباب الأول لمعرفة الله

لها بابان واسعان، أول باب: التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله. هذا القرآن هو الكتاب المقرر، والقرآن شفاء القلوب.

أيها الإخوة الكرام، الأحداث الراهنة والمقلقة والمتصاعدة، والتهديد والضغوط ينشئ قلقاً عاماً، ينشئ معه إحباطًا عامًّا، فإذا قرأت القرآن ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ تجد جوابَ كل شيء، تجد الداء يصفه الله عز وجل، تجد الدواء، وتجد طريق الخلاص، وتجد طريق الأمن، وتجد طريق العزة، وطريق الانتصار، هذا القرآن شفاء، كيف أن المريض يشفى، فكذلك إذا قرأت القرآن، فإن الله يصف لك كل شيء، والله لقد قرأت هذه الآية، وكأنني أسمعها أول مرة:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

[سورة القصص: الآية ٤]

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

[سورة فصلت: الآية ١٥]

والله سمعت بأذني إلى حواري بين جندي من دولة طاغية ومذيع، قال هذا الجندي: أنا الرب، لأنني أقرر أن أقتل فلاناً، أو أبقيه حياً، غطرسة ما بعدها غطرسة، وتأله ما بعده تأله، وكفر ما بعده كفر، لذلك أنت حينما ترى هذا الضيق وتلك الشدة، وهذه الضغوط، وتفتح كتاب الله تجد الآيات شافية:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَ)

[سورة الأنعام: الآية ٤٤]

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: الآية ١٣٩]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: الآية ٤٢]

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

[سورة آل عمران: الآية ١٢٠]

هذه الآيات شفاء، قال تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: الآية ٤٨]

أحد الإخوة الكرام أصابه مرض، فبعثت له برسالة من العمرة، قلت له:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

هذه آية خاصة لمؤمن له باع طويل في الإيمان، وامتحنه الله بمرض، بعثت له برسالة ثانية: عَنْ سَعْدٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أيُّ النَّاس أَشَدُّ بَلَاءً ؟ فَقَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ رَقِيقَ الدِّينِ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ ذَاكَ، وَإِنْ كَانَ صُلْبَ الدِّينِ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ ذَاكَ، قَالَ: فَمَا تَزَالُ الْبَلَايَا بِالرَّجُلِ حَتَّى يَمْشِيَ فِي الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

[الترمذي وأحمد]

إنسان مؤمن مستقيم امتحنه الله عز وجل بمرض يقال له هذا الكلام فقط ! وإنسان آخر له كلام آخر، لذلك تجد القرآن شفاء، وإنه لا يحزن قارئ القرآن، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ)

[سورة فصلت: الآية ٣٠]

كلمة

(لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا)

غَطَّتْ المَاضِي وَالمستقبل، أنت الآن هنا لا تخاف من المستقبل، ولا تحزن على الماضي، قال تعالى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء: الآية ٦١]

هددونا، ونقلوا قوات إلى جوارنا:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء]

أنت عليك أن تستقيم، وعلى الله الباقي، قال تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: الآية ٦٦]

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء: الآية ٦٩]

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: الآية ٨٨]

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: الآية ١٤١]

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: الآية ٥١]

أنت لا تملك إلا أن تكون مع الله، وأن تستعين بالله، وأن تدعو الله.

فأول باب من أبواب هذه المعرفة: التأمل والتدبر والتفكر في آيات القرآن كلها.

الباب الثاني لمعرفة الله

التفكر في آياته الكونية، تتفكر في آياته القرآنية أو تتدبرها، تتفكر في آياته الكونية، قال:

" وجماع ذلك الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها، وكمالها، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر، فيكون الإنسان فقيهاً في أوامره ونواهيه ".

المادة المقررة: أن تعرف الله من خلال خلقه، تفكر من خلال أفعاله، انظر من خلال كلامه، تدبر، هذه سبل معرفة الله، وأفعاله تحتاج إلى نظر قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: الآية ١١]

كل ذلك يحتاج إلى تفكر، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

بماذا نبدأ لمعرفة الله

أيها الإخوة الكرام، التفكر في الآيات، والتدبر في القرآن، والنظر في أفعال الله عز وجل ، ولكن ثمة نصيحة لا بد منها، ابدأ بالتفكر في آياته الكونية، لأن الطريق آمن، ليس ثمة مشكلة، تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا، ثم ثنِّ بآياته القرآنية، معظم آيات القرآن محكمة، واللهِ إنه ليكفي أن تستمع إلى القرآن الكريم، أو أن الله يلقي في قلبك النور فتكشف أبعاده.

بقي الشيء الذي يحتاج إلى تحفظ، أفعاله، أفعاله قد تجد صعوبة في تفسيرها، قد تجد شعوباً غنية جداً تقهر شعوب ضعيفة، وقد تجد الشعوب الضعيفة تئنّ من مشكلات لا تعد ولا تحصى، فيها زلازل، وبراكين، وحروب، واجتياحات، وطغيان، وقوى قاهرة، فأفعاله لن تستطيع تفسيرها إلا في حالة مستحيلة، هي أن يكون لك علم كعلمه، أما إذا فكرت ملياً بخلقه، وتدبرت آياته القرآنية، فالتفكر في خلقه والتدبر يلقي ضوءاً على أفعاله، فتفهمها من خلال أفعاله.

للتوضيح: إنسان يجلس في المسجد، وهناك معطف معلق، فنظر إلى آخر المسجد، ثم قام، ومد يده إلى جيب هذا المعطف، وأخذ مئة ليرة، فأنت نظرت متى وقف ؟ لما نظر إلى الخلف حسب الظن السيئ تأكد أن أحداً لم يره، فقام إلى المعطف، وأخذ مئة ليرة، أي أنه سارق، وبالدليل، وما قام إلى المعطف إلا بعد أن تأكد أن أحداً لم يره، لو علمت فيما بعد أن هذا الإنسان هو الذي بنى المسجد، وقد دفع خمسين مليون ليرة، وأن هذا المعطف معطفه، ولما نظر إلى الخلف مرّ فقير أراد أن يعطيه صدقة، فقام إلى معطفه، وأخذ المئة ليرة، أليس البون شاسعاً بين التفسيرين ؟

صدقوا أيها الإخوة، أحياناً يتهم الدين كما يتهم الذي بنى المسجد بأنه سارق، مع أنه محسن كبير، والمعطف معطفه، وأراد أن يعطي صدقة.

فلذلك من الخطأ الكبير أن لا تتحقق مما تسمع الدين له أعداء كثر، كطرفة يروى أن سيدنا موسى في المناجاة قال: يا رب، لا تُبق لي عدواً، قال: هذه يا موسى ليست لي، الله عز وجل له أعداء، وقد ذكرهم الله في القرآن أنهم يحاربون الله ورسوله.

التفكر في أفعاله: إذا يكن هناك فهم عميق لخَلقه، ولا فهم عميق لقرآنه فهو حقل ألغام، قد تفاجأ الآن أن أناسًا كفروا، وما كفروا لأن الكون ليس عظيماً، لكن ما تمكنوا أن يفسروا ما يجري، الله له امتحانات صعبة، يقوي الكافر، ويقويه، ويقوّيه إلى درجة أنه يفعل ما يريد، وكأنه إله، ويبطش، ويضرب، ويسحق، ويزداد قوة، هذا امتحان صعب جداً، ونحن فيه الآن، إلى أن يقول الكافر: أنا ربكم الأعلى، إلى أن يقول الكافر كما قال فرعون:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

إلى أن يقول ضعيف الإيمان: أين الله ؟ هذا أصعب امتحان، ونحن فيه.

يا أيها الإخوة الكرام، قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: الآية ٢٣]

هذا أصعب امتحان، هناك امتحان ثانٍ، الله يعطيهم ما يعطيهم حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله، لما أدرك فرعونَ الغرقُ قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: الآية ٩٠]

لكن بعد فوات الأوان، نسأل الله أن نرى ذلك اليوم، فنحن أيها الإخوة الكرام في امتحان صعب، لذلك:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: الآية ٤٣]

لا تتسرع، لا تُنصب نفسك محللاً، وتستغني عن فهمك لكتاب الله، هناك أحداث شديدة، هذه الأحداث الشديدة ينبغي أن تفهمها في ضوء القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: الآية ١٣٩]

أيها الإخوة الكرام، حسن الظن بالله ثمن الجنة، الحقيقة أحياناً أن الله عز وجل يسوق مصائب شديدة، وضغوطًا شديدة، وتخويفًا شديدًا ليفرز المؤمنين، كما في أثناء العام الدراسي كل الطلاب يحضرون، ويصغون إلى المعلم، لكن قد تجد فيهم واحداً ألمعياً، والثاني شبه أمي، أما المظهر فواحد على الشبكية، متى يفرزون ؟ في الامتحان، والله عز وجل كذلك، قال تعالى:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: الآية ١٧٩]

عملية فرز حتى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، حينما أخبر قريشاً أنه ذهب

إلى بيت المقدس، وأنه عرج به إلى السماء، فهو كان يتمنى ألاّ يقول ذلك، لكن الله أمره أن يقول، الصحابة فرزوا، منهم من صدقه، كأبي بكر الذي قال: " إن قال هذا فقد صدق "، ومنهم من لم يصدق، ونافق، وارتد، فالإسراء والمعراج فرز، والهجرة فرز، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: الآية ٧٢]

والآن هذه الضغوط فرز للإنسان ضعيف الإيمان، فهو يسخط على الله، ويرى أن الله يقسو على المسلمين، وقد تخلى عنهم، وأيد أعداء المسلمين، هذا سوء ظن بالله.

وثمة إنسان صابر، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ)

[سورة يوسف: الآية ١١٠]

الرسل آخر الناس قلقاً في الشدائد الكبيرة جداً.

أنا أيها الإخوة الكرام، لست متشائماً، لكن لا أحب أن تكون ساذجاً في ظروف صعبة تنتظر الأمة الإسلامية، لأن الله يريد أن يمن عليهم، يريد أن يقوي إيمانهم، يريد أن يكسبهم عملاً طيباً، فأنت كن صبوراً، كن متأنياً، وأحسن الظن بالله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عنا، والحقيقة أن المصائب محك الرجال، والإنسان يبدو في المصيبة، أنا أتمنى عليكم الآن تقووا معنويات بعضكم، وأن ترفع معنويات أخيك المؤمن، الله موجود، والله عز وجل لا يسلمنا إلى غيرنا، لأنه يقول:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود: الآية ١٢٣]

متى أمرك أن تعبده ؟ بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه، لذلك إذا عبدت الله في الشدة فلك عند الله أجر كبير، لا تثبط العزائم، لا تنقل أخبارًا لست متأكداً منها، لا تردد تهديدات العدو، لا تيأس، لأن الأب إذا يأس هبط أولاده، هبط بيته، إذا تشاءم المعلم هبط طلابه، كل إنسان ولاه الله على عشرة، إن كان مدير مؤسسة، إن كان مدير جامعة، إن كان مدير مستشفى، إن كان مدير دائرة، إن كان رب أسرة، لما يتضعضع الرجل ينهار مَن حوله، ودائماً العظماء متماسكون، هناك تهديدات، ووعيد، وقوى باغية متغطرسة، ومشروع لهذا الشرق الأوسط الكبير جداً، وواضح جداً، هدفه تفتيته إلى مئة دولة.

أحد وزراء الخارجية في دولة طاغية قال: أنا لا يعجبني أن يكون العالم مئتي دولة، أتمناه خمسة آلاف دولة، وهناك فتن طائفية، تقوم بها جهة ثالثة، وأنا لا أكتمكم أن الذي يفعل هذا ليسوا من هؤلاء، ولا من هؤلاء، هم جهة ثالثة، من أجل إثارة الفتن الطائفية، نحن بحاجة إلى وعي، وأسأل الله عز وجل أن يحمي بلدنا من هذه الفتن، لأنك تشعر أن خطة مركزة جداً لحرب أهلية، ألا ترون ذلك يومياً ؟ من أجل أن تنشأ حرب أهلية تنتهي بأربع دويلات ضعيفة لا تقدم ولا تؤخر، وهذه الخطة التي تعلن فيما سيكون في الشرق الأوسط، فلذلك نحن أمام محنة شديدة نحتاج إلى وعي، نحتاج إلى مشاورة، نحتاج إلى أن نرفع همم بعضنا، لا نحتاج إلى نثبط العزائم، لأن الله لا يتخلى عنا، لكنه يؤدبنا، ويعالجنا، وإذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني، لا تردد أقوال الإذاعات، لأن الإعلام الغربي أكبر سلاح بيد الغرب، فيه خبراء نفسيون يصنعون الخبر، الخبر مدروس نفسياً، لذلك يجب أن يكون لك قناعة أخرى، والأخبار الطيبة لا تنقل إلينا أبداً، نحن مع الأسف الشديد لا يوجد عندنا إعلام يصل إلى بلاد الغرب أبداً، هم إعلامهم على أهوائهم، فأنا أتمنى

في هذه الظروف الصعبة أن تكون واعياً، وتكون همتك عالية، ولا تنسَ أن الله عز وجل لا يتخلى عنا، والله موجود، والله عز وجل قد يرينا آياته فيمن يتطاولوا علينا وعليه.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٢٩-٣٦) : الذِكر و الشكر-قول سيدنا علي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١١-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، وعنوان هذه الفائدة الذكر والشكر.

بالمناسبة أيها الإخوة الكرام، الذكر أوسع نشاط للمسلم، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد، مالك]

إذا قرأت القرآن فأنت ذاكر، وإذا تفكرت في خلق السماوات والأرض فأنت ذاكر، وإذا نصحت مسلماً فأنت ذاكر، وإذا سبحت الله فأنت ذاكر، وإذا استغفرته فأنت ذاكر، وإذا صليت فأنت ذاكر، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

أوسع نشاط هو الذكر، وهناك ذكر تعلمي ذكر تعليمي، ذكر شعائري وذكر عملي، إلى آخره.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

" بُني الدين على قاعدتين: الذكر والشكر "

قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

[سورة البقرة]

إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، والذكر في حد ذاته شكر، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني.

سيدنا رسول الله قال لسيدنا معاذ: والله يا معاذ إني لأحبك، ما قولك في كسب إنسان في الأرض أعلى من هذا الكسب ؟ أن يقول لك سيد الخلق، وحبيب الحق: والله يا معاذ إني لأحبك ؟ لذلك إذا

أحبك أهل الإيمان فهذا وسام شرف، أما إذا أحبك أهل الفسق والعصيان فهذه وصمة عار، فاحرص على أن يحبك أهل الحق.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))

[النسائي، أبو داود]

لكن بشكل دقيق كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ليس المراد بالذكر ذكر اللسان، بل الذكر القلبي اللساني، لأن هناك أناسًا متقدمين في السن في ذكر دائم، لكن ذكر قد لا يتناسب مع السلوك، ذكر دائم، ولكنه دائم التفريق بين الناس، وأحياناً، نقل كلام، وغيبة، ونميمة، وهو يقول: سبحان الله، سبحان الله، ويطلق بصره في الحرام، ويقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، هذا الذكر باللسان فقط لا قيمة له إطلاقاً، هنا ذكر ابن القيم الذكر القلبي اللساني، والذكر يتضمن ذكر أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وهذا يستلزم معرفته، والإيمان به، وبصفات الكمال، ونعوت الجلال، والثناء عليه بأنواع المديح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه، وإحسانه إلى خلقه.

أنا أتمنى كما قال عليه الصلاة والسلام:

((برئ من النفاق مَن أكثرَ مِن ذكر الله))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند فيه ضعف]

ولأن المنافقين أثبت الله لهم أنهم يذكرون الله، ولكنهم لا يذكرون الله إلا قليلا، أما المؤمنون فيذكرون الله ذكراً كثيرا، والآية تقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

ألا تشعر بالتقصير حينما تقرأ هذا الحديث الشريف:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[البخاري عن عبد الله بن عمرو]

ألا تشعر بالتقصير حينما تقرأ قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةِ نِفَاقٍ))

[النسائي عن أبي هريرة]

والجهاد الدعوي جهاد، واللهُ سماه جهادًا كبيرًا، ألا تفكر مرة أن يهتدي إنسان على يديك ؟ ألا تفكر مرة أن تأتي بإنسان إلى مجلس علم ؟ أن تقنع إنساناً بتطبيق طاعة لله عز وجل ؟ إذاً الدعوة إلى الله في حدود ما تعلم، ومع من تعرف فرض عين، والدليل:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

والتواصي بالحق ربع أركان النجاة.

إنّ الذكر أن تذكر كلامه، أن تقرأ قرآنه، أن تذكر أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، أن تذكر أمره ونهيه، أن تذكر ما أعد للمؤمنين، وما أعد للكافرين، هذا كله من الذكر، أما الشكر فقال: " القيام بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً، وهذان الأمران هما جماع الدين ". لذلك:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

[سورة البقرة]

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[سورة طه]

والمؤمن الصادق يحب أن يكون من النخبة الذين قال الله عز وجل عنهم:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة الأنعام]

" فالشكر هو القيام له بطاعته، والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً، وهذان الأمران جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، ولهذا هما الغاية التي خلق الإنسان من أجلها ".

الحقيقة أن هذه الآية واضحة جداً، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء]

إن شكرتم وآمنتم ما يفعل الله بعذابكم ؟ فأنتم حينما تشكرون، وحينما تؤمنون فقد حققتم الهدف الأكبر من وجودكم، وأيّ إنسان عنده ابن متفوق مهذب من المستحيل أن يكلمه كلمة قاسية. والله هناك معنى أيها الإخوة الكرام، لولا أني أخشى أن يفهم على غير ما أردت لفصلت فيه كثيراً، وهو أن خالق الأكوان، رب الأرض والسماء، رب العالمين، مَن بيده كل شيء، كن فيكون، زل فيزول، هذا الإله العظيم الذي ألزم نفسه العلية بالاستقامة ما الدليل ؟ قال تعالى:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود]

و(على) إذا جاءت مع لفظ الجلالة فهي تفيد الإلزام الذاتي، الله ألزم ذاته أن يستقيم مع عباده،

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا))

[مسلم عن أبي ذر]

الله عز وجل ألزم ذاته العلية بالاستقامة:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

وألزم ذاته العلية برزق العباد، فقال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

[سورة هود]

وألزم ذاته العلية بهداية العباد، قال تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل]

لأن الله ألزم ذاته العلية بالاستقامة، فهذا الإله أنت بيده، أنت بكلمة كن أو زل، كل شيء، صحتك، قلبك، أوعيتك، دماغك، كل أجهزتك، وكل مَن حولك، وكل مَن فوقك، وكل مَن دونك، وكل المواد، وكل المعادن، وكل الحشرات، وكل المخلوقات، ومع ذلك إذا استقمت على أمره فلا سلطان له عليك، لأنه ألزم نفسه بالاستقامة، الدليل:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

[سورة النساء]

هناك معنى دقيق جداً: الإله العظيم الذي أنت بيده وقبضته إذا كنت مطيعاً له، ولأنه ألزم ذاته العلية بالاستقامة، وبأن يرزقك، وأن يهديك إليه لا سلطان له عليك ! لذلك النبي قال حديث جامع مانع:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه))

[ورد في الأثر]

واللهِ كأن العلم كله جمع في هاتين الكلمتين:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

الأعداء كثر، لكن العدو الحقيقي هو الذنب، وسبب الذنب هو الجهل، وفي النهاية الجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، وأخطاء الجهل كبيرة جداً، أخطاء مدمرة، والإنسان يرى أحياناً جاهلاً، فالمؤمن لا يحقد عليه، بل يشفق عليه، الآن حركة

عشوائية في الظلام فيها أخطاء كبيرة جداً، ترى أسرة، زوجة صالحة تطلّق لسبب تافه، لأن زوجها تافه، وجاهل، المؤمن يؤتى الحكمة، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، المؤمن يحول أعداءه إلى أصدقاء، والأحمق الذي لم يؤتى الحكمة يحوّل أقرب الناس له إلى أعداء.

سيدنا عمير بن وهب كان جالسًا، فقال: واللهِ، لولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي، ولولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، سمع صفوان هذا الكلام، فقال له: أولادك أولادي ما امتد بهم العمر، وديونك علي بلغت ما بلغت، فامض لما أردت، تقلق على شيئين، على أولادك، وعلى ديونك، الديون علي، والأولاد أولادي ما امتد بهم العمر، فسقى سيفه سماً، وركب ناقته، واتجه إلى المدينة ليقتل محمداً صلى الله عليه وسلم، لكنه مغطى بهدف آخر، أن يفكّ ابنه من الأسر، وصل إلى المدينة، فرآه سيدنا عمر، قال له: ما الذي جاء بكم إلينا ؟ قال: جئت أفك أسر ابني، وقال: هذه السيف التي على عاتقك ؟ قيده بها، وساقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مقيّدا، وقال للنبي الكريم: هذا عدو الله جاء يريد شراً، النبي الكريم أب للبشرية كلها، وما لم تشعر بمحبة لكل الخلق، وما لم تشعر أن الله أكرمك بالهدى، وأن هؤلاء الذين يعادونك لجهلهم، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، فدخل عليه عمر ومعه عمير بهذه الحالة، قال: يا عمر، أطلقه، فك أسره، أطلقه، قال: ابتعد عنه، فابتعد عنه، قال: ادنُ مني يا عمير، قال: سلم علينا، قال: عمت صباحاً، بفظاظة وبجفاء، قال: قل: السلام عليكم، قال: هذا سلامنا، قال: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت أفك أسر ابني ؟ قال: وهذه السيف التي على عاتقك ؟ قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال: ألم تقل لصفوان: يا صفوان لولا ديون ركبتني لا أطيق سدادها، ولولا أطفال أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، توقف، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه إلا الله، وأنت رسوله، وأسلم.

أجمل شيء قاله سيدنا عمر، وسقت هذه القصة لأبين هذا الموقف، قال: دخل عمير على رسول الله والخنزير أحب إلي منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي.

ليس هناك عداوة دائمة، المؤمن الصادق لا يكره شخصاً، بل يكره فعله، فإذا رجع إلى الله عز وجل أحبه كأقرب الناس إليه.

الآن صفوان ينتظر الخبر السار الرائع، قتل محمد e، فصار يخرج كل يوم إلى ظاهر مكة ليتلقى الأخبار السارة عن مقتل محمد عليه الصلاة والسلام، فجاء الخبر الذي لم يحتمله، أن عمير أسلم. فعظمة النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحوّل أعداءه إلى أصدقاء، وأنت كمؤمن ينبغي أن تحب الناس جميعاً، ينبغي أن تتسع بهم.

سيدنا أبو حنيفة النعمان له جار لا ينام الليل من أجله، مغنٍّ، يبدو أن بيته ملاصق تماماً لبيته، والشاب يحب الغناء، ومعه طنبور، عود، وطوال الليل:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

فضاق به ذرعاً، وفي أحد الأيام اختفى الصوت، فسأل، فقيل له: ألقي القبض عليه، ذهب بمكانته العلية، وبعلمه الكبير إلى مدير الشرطة مستشفعاً له، طبعاً مجيئه كبير جداً، أطلق سراحه، أركبه وراءه على الدابة، وقال: يا فتى، هل أضعناك ؟ تقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ؟

فبكى هذا الفتى، وقال: والله لا أعود إلى الغناء ما حييت.

مرة قلت هذا في خطبة، قلت: ليت العلماء يتسع صدرهم لشاب زلت قدمه، أولاً يكفرونه، اخرج يا فاسق، يجب أن يتسع الصدر لإنسان قصر، يجب أن يرى الشاب قلباً رحيماً، أفقاً واسعاً، فإن لم تحب الناس فينبغي ألا تدعوهم إلى الله، ينبغي أن تحبهم على عُجرهم وبُجرهم.

أيها الإخوة الكرام، الذكر والشكر هما قوام الإيمان، وأسأل الله لي ولكم النجاة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٣٠-٣٦) : قول سيدنا علي في وفاة سيدنا أبو بكر الصديق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١١-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع فائدة جديدة، تقول هذه الفائدة، والحقيقة هي حكمة أو فائدة تاريخية، لكنها تلفت النظر.

وصف سيدنا علي لسيدنا أبي بكر

أمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه حينما توفي الصديق ماذا قال ؟ والله أيها الإخوة الكرام، هذا الذي قاله هو الحق، يقول هذا الإمام الكبير علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته الزهراء رضي الله عنها، وأبو ريحانيتيه الحسن والحسين، مناقبه جمة، تفوق الحصر، وفضائله عظيمة تجل عن الوصف، والتي منها شجاعته التي يضرب بها المثل، وفصاحته التي يقتدى بها، حتى صار غمام الزاهدين، هو أول من أسلم من الذكور في أكثر الأقوال، وقد اختلف في سنه يومئذ، فقيل: كان له خمس عشرة سنة، وقيل: ست عشرة، وقيل: أربع عشرة، وقيل: ثلاث عشرة سنة، ماذا قال هذا الإمام الكبير حين وفاة سيدنا الصديق ؟ قال كلامًا رائعًا جداً، هو الأصل، قال: " رحمك الله يا أبا بكر، كنت إلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كنت إلفه، كان يحبك كثيراً ـ وأنسه وثقته وموضع سره، كنت أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناءً في دين الله، وأحوطهم على رسول الله، وأثبتهم على الإسلام، وأيمنهم على أصحابه، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم سنناً وهدياً، ورحمة وفضلاً، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ".

من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر))

[الجامع الصغير بسند فيه ضعف]

كنت عنده بمنزلة السمع والبصر، صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس، فسماك الله في تنزيله صديقاً، فقال:

(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)

[الزمر: من الآية ٣٣]

آية كريمة تتحدث عن الصديق، وَاسَيْته حين بخلوا، وكنت معه عند المكاره حين قعدوا، وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة، ثاني اثنين، وصاحبه في الغار والمنزل، عليه السكينة والوقار:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)

[التوبة: من الآية ٢٦]

ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله وفي أمته، أحسنتَ الخلافة حين ارتد، الناس فنهضت حين، وهَن أصحابك، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، وقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتعوا، ترددوا، مضيت بنور إذ وقفوا، واتبعوك فهدوا، وكنت أصوبهم منطقاً، وأطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً، وأكثرهم رأياً وأشجعهم نفساً، وأعرفهم بالأمور، وأشرفهم عملاً، كنت للدين يعسوباً أولاً حين نفر الناس عنه، وآخرًا حين قفلوا، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً إذ صاروا عليك عيالاً، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه، ورعيت ما أهملوا، وحفظت ما أضاعوا، شمرت إذا خنعوا، وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ جزعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا، كنت كما قال عليه الصلاة والسلام: أمّن الناس عليه في صحبتك، وذات يدك، وكنت كما قال: ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في أعين الناس، كبيراً في أنفسهم.

هذا كلام سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لسيدنا الصديق، هكذا كان أصحاب رسول الله.

الحكمة من عزل سيدنا عمر لسيدنا خالد

عثرت على رواية رائعة لسيدنا عمر بن الخطاب حين عزل سيدنا خالدًا، فجاء سيدنا خالد إلى عمر بن الخطاب وقال له: يا أمير المؤمنين، لماذا عزلتني ؟ قال: والله إني لأحبك، قال: لماذا عزلتني ؟ قال: والله إني لأحبك، قال: لماذا عزلتني ؟ قال: والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله، سيدنا خالد خاض مئة معركة أو زهاءها، وانتصر بها جميعاً، حتى توهم الناس أن أيّة معركة قائدها خالد لا يمكن أن تهزم، فسيدنا عمر أراد إنفاذ التوحيد، أن الذي ينصر هو الله، وليس خالدًا فعزله، قال: والله ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله، هذا الكلام هو الكلام الذي يليق بهذا الإمام العظيم، فلذلك بين الصحابة من الود والتقدير ما لا يوصف.

سيدنا علي هذا موقفه، لو فهمنا هذا الكلام بعمق فلا يمكن أن نتهم سيدنا الصديق، وهو إنسان بأعلى درجات العلم يبين خلال هذا الصديق الكبير، فهذا النص يمكن أن يكون في حوزة كل منكم، ونقدسه، وهو من الصحابة الكبار، هذا قول سيدنا علي.

رحمك الله يا أبا بكر، كنت إلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه وثقته، وموضع سره، كنت أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناءً في دين الله، وأحوطهم على رسول الله، وأثبتهم على الإسلام، وأيمنهم على أصحابه، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم سنناً وهدياً، ورحمة وفضلاً، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر، صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس، فسماك الله في تنزيله صديقاً فقال:

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ

واسيته حين بخلوا وكنت معه عند المكاره حين قعدوا وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ثاني اثنين وصاحبه في الغار والمنزل عليه السكينة والوقار،

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا

ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله وفي أمته، أحسنت الخلافة حين ارتد الناس، فنهضت حين وهن أصحابك، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، وقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتعوا، وترددوا، مضيت بنور إذ وقفوا، واتبعوك فهدوا، وكنت أصوبهم منطقاً، وأطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً، وأكثرهم رأياً، وأشجعهم نفساً، وأعرفهم بالأمور، وأشرفهم عملاً، كنت للدين يعسوباً أولاً حين نفر الناس عنه، وآخراً حين قفلوا، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً إذ صاروا عليك عيالاً، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه، ورعيت ما أهملوا، وحفظت ما أضاعوا، شمرت إذ خنعوا، وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ جزعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا، كنت كما قال عليه الصلاة والسلام أمَنّ الناس عليه في صحبتك وذات يدك، وكنت كما قال: ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في أعين الناس، كبيراً في أنفسهم.

حب المسلمين للصحابة أجمعين

هذا كلام سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن سيدنا الصديق، والصحابة الكرام كانوا في أعلى درجات الود، فلذلك نحن نحب أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام جميعاً من دون استثناء، قال تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

[سورة الفتح: ١٨]

إنّ الله في عليائه قد رضي عن المؤمنين إذ يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، وكان على رأسهم سيدنا الصديق وسيدنا عمر، هذا النص أيها الإخوة الكرام، شاهد جامع مانع كاف لمعرفة أنه لا يمكن أن يكون هناك خلاف بين الصديق وسيدنا علي، لذلك الدين أيها الإخوة الكرام، لو عدنا إلى ينابيعه الأصيلة لرأينا ماءً عذباً زلالاً، تماماً كأي نهر في منبعه ماء صاف، عذب زلال، أما في مصبه فماء أسود، أرأيتم لهذا المديح ؟ هذا مديح سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لسيدنا الصديق، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

[سورة الأنعام: ١٥٩]

حب الصحابة يعمق الوحدة ويطرد الخلاف

وكنت أقول هذه المقولة دائماً لأن أعداءنا وضعونا جميعاً في سلة واحدة: ينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد، الآن نحن في أمسّ الحاجة إلى الوحدة، وهذا النص يعمق الوحدة بين المسلمين، هذا أكمل موقف لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، هذا الموقف أرجو الله سبحانه وتعالى أن نحسن الظن بأصحاب رسول الله جميعاً، فهم قمم البشر:

((إن الله اختارني، واختار لي أصحابي))

[الجامع الصغير عن أنس]

قصة وعبرة

أذكر لكم هذه القصة السريعة: أحد الصحابة لما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا تقتلوا عمي العباس))

ما أعجبه ذلك، لأنه قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه، ويمنعنا أن نقتل عمه ؟ فالنبي الكريم يعلم أن عمه أسلم، وهو عين النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، وما من حركة أو سكنة أو قرار يتخذ إلا يعلن النبي عليه الصلاة والسلام عنه، وهذه قيادة في منتهى الذكاء والحكمة، لكن لو قال: إن عمي أسلم لأنهى دوره، ولو أن عمه لم يشارك في الحرب لكشف نفسه، ولو سكت النبي صلى الله عليه وسلم لقُتِل عمه، فالنبي عليه الصلاة والسلام ما عنده خيار إلا أن يقول:

((لا تقتلوا عمي العباس))

فهذا الصحابي الذي انتقد النبي الكريم قال بعد حين حينما كشفت الحقيقة: تصدقت عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله صلى الله عليه وسلم ، تصدق عشر سنوات رجاء أن يغفر الله له سوء ظنه برسول الله.

فدائماً وأبداً اعتقد أن هؤلاء الصحابة كانوا في أعلى درجات الكمال، وقد اختارهم الله لنبيه الكريم،

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٣١-٣٦) : لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرفه نفسه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٢-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

اللـــذة

أيها الإخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، وعنوان الفائدة: اللذة. كما تعلمون فقد أودع الله عز وجل في الإنسان الشهوات، فإذا تحرك بدافع منها شعر بلذة، كأن تكون جائعاً فتأكل طعاماً طيباً، الطعام الطيب فيه لذة، كأن تكون مشرداً فتدخل إلى بيت دافئ في الشتاء، أو إلى بيت بارد في الصيف، فكل شيء يمتع حواسك يعد لذة.

الفرق بين اللذة والسعادة

دائماً كنت أذكر لكم أن هناك فرقاً بين اللذة والسعادة:

اللذة تأتي من الخارج t١، تأتي من طعام من شراب، من منظر جميل، من بيت واسع، من زوجة تروق للإنسان

السعادة تنبع من الداخل.

اللذة متناقصة، والسعادة متنامية

اللذة إن كانت بخلاف منهج الله تعقبها كآبة.

الفرق بين اللذة والسعادة

واللذة تحتاج إلى شروط ثلاثة: في الأعم الأغلب لا يتوافر في الإنسان إلا واحد منها، تحتاج إلى وقت وإلى صحة وإلى مال.

- ففي البدايات الوقت موجود، والصحة موجودة، والشباب، ولكن ليس ثمة مال.

- وفي منتصف الحياة المال موجود، والصحة موجودة، لكن ليس هناك وقت، قام بمشروع ضخم امتص كل وقته.

- وفي خريف العمر المال موجود، والوقت موجود، لكن ذهبت الصحة، لذلك اللذة دائماً تحتاج إلى شروط في الأعم الأغلب ينقص الإنسان واحد منها.

وهي متناقصة في تأثيرها

اشترِ مركبة أول أسبوع يختل توازنك من فرحك باقتناء هذه المركبة، بعد شهر أو شهرين تصبح شيئًا عاديًا، اسكن بيتاً فخماً، صاحب البيت ملّ منه، لكن الزائر أول مرة يدهش بجماله، واتساعه، وإطلالته، وهكذا كل شيء في الحياة.

أشرف النفوس وأعلاها قدرا من عرفت الله

اليوم الموضوع يأخذ منحىً آخر، يقول ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى: << لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه >>.

قل لي: ما الذي يمتعك أقلْ لك من أنت، الموضوع بمنحى آخر: قل لي: ما الذي يدخل على قلبك السرور أقلْ لك من أنت، قل لي: ما الذي يسعدك أقلْ لك من أنت، لذة كل واحد منا على حسب قدره عند الله، وهمته وشرف نفسه.

<< فأشرف الناس نفساً، وأعلاهم همةً، وأرفعهم قدراً مَن لذته في معرفة الله >>.

إذا وقف على معنى آية دقيق، إذا أتيح له أن يقرأ شيئاً عن سيد الكائنات فتأثر تأثراً بالغاً بالموقف الكامل، كلما ازداد معرفة بالله ازداد سعادة، سعادته بمعرفة الله عز وجل، هذا نوع في أعلى مستوى، أن يفهم كلام الله عز وجل، أن يفهم حديث رسول الله، أن يفهم حقيقة الحياة، أن يفهم ما أعد الله له من سعادة أبدية، أن يستخدمه الله في خدمة الخلق، أن يستخدمه الله في بيان الحق، أن يستخدمه الله في رأب الصدع، في حل مشكلات الناس.

صدقوا أيها الإخوة الكرام، أن المؤمن الصادق قمة سعادته أن يزداد معرفة بالله، وأن يزداد خدمة لخلقه، يا رب، لا يحلو الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك، كلما وفقه إلى عمل صالح، أو تمكن من حل مشكلة، أو من تزويج شاب، أو من تخفيف ألم، أو من معالجة مريض، أو من إطعام جائع، أو من تعليم العلم، فهو في قمة سعادته ونشاطه، ولا يعبأ بزخارف الدنيا

ومظاهرها.

لذلك: << أشرف الناس نفساً، وأعلاهم همةً، وأرفعهم قدراً من لذته في معرفة الله، ومحبته والشوق إلى لقائه >>.

إذا صلى ركعتين فانهمرت الدموع من عينه فهاتان الركعتان تعدل عنده الدنيا وما فيها، إذا قرأ القرآن فخشع قلبه، وأقبل على ربه فهذه القراءة تعدل عنده الدنيا وما فيها.

قال عن هذا الإنسان: << لذته في معرفة الله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه >>.

لذة معرفة الله تفوق كل لذة

لذلك حينما يقول بعض العارفين بالله: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ".

أجمل مكان في الأرض مثلاً بيت، الآن هناك بيوت مساحتها بآلاف الأمتار، أبهاء، وغرف، وأناقة، وإطلالة، وشرفات، البيت ثمنه خمسة أو ستة ملايين أو عشرة ملايين دولار، ماذا يقابله ؟ أسوأ مكان يوجد فيه إنسان غرفة السجن المنفردة، هذا أسوأ مكان، فإذا كان الله معك فأنت في المنفردة أسعد الخلق، وإذا لم يكن الله معك فأنت في أغلى بيت أشقى الخلق، هذه السكينة التي إذا توافرت سعدتَ بها، ولو فقدتَ كل شيء، وهذه السكينة لو حُجبت عنك، وملكت الدنيا بأكملها فأنت أشقى الخلق.

هذه حقائق الإيمان، ولكنك تحتاج إلى جهد كي تصل إليها، أن تدركها شيء، وأن تصل إليها شيء آخر.

قال: << لذته في الإقبال على الله، وعكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله >>.

العارفون بحقائق لذة معرفة الله

لا أنتظر من إنسان بعيد عن الدين أن يفهم هذه الحقائق، ولكن أنتظر من إنسان له مجلس علم، ذاق طعم القرب، ذاق طعم الحب، ذاق طعم الإقبال على الله، ذاق طعم خدمة عباده، ذاق طعم دعوة الناس إليه، مثل هذا الإنسان يعرف معنى هذا الكلام، << لذته في الإقبال على الله، ولذته في عكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، حتى تنتهي على من لذته هذه أول صنف، حتى تنتهي على من لذته في أخس الأشياء من القاذورات >>.

الآن هناك زنا محارم، هذا الزنا شاع في العالم كله، مع أخته، مع أمه، في أخس الأشياء من القاذورات، والفواحش، في كل شيء من الكلام، والفعال، والأشغال، هذا الذي لذته في أخس الأشياء وأقذرها لو عرض عليه ما يتلذذ به الأول من معرفة الله، والإقبال عليه، والدعوة إليه

والعمل الصالح، وخدمة عباده لم يعبأ به، ولم يلتفت إليه، بل ربما اتهم من اشتغل به بأنه محدود الأفق، هنا المشكلة، قالوا: من ذاق عرف.

أنا لا أنسى مرة أني التقيت بمندوب شركة من هولندا، فخطر في بالي أن أتحدث إليه عن الله عز وجل، بدأت الحديث، بعد قليل قال بالحرف الواحد: هذا الكلام لا يعنيني، ولا أهتم به، ولا ألتفت إليه، ولا أعبأ به، أنا يعنيني في الحياة أشياء ثلاثة، قلت له: ما هي ؟ قال: امرأة جميلة، ومنزل واسع، ومركبة فارهة، وما سوى ذلك خارج اهتمامي، قال تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة الأنفال: الآية ٢٣]

إذاً هناك إنسان لذته سعادته، وسروره راحته، وطموحه في معرفة الله عز وجل، ومعرفة كتابه وسنة نبيه e، وخدمة خلقه، والإقبال عليه، هذه أعلى مرتبة، وهناك إنسان آخر لذته في أخس الأشياء، وأقذر الحالات، وأبشع الشهوات.

السرور بالمباحات لا يتناقض مع السعادة الأخروية

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: << وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن>>.

من أين نأتي بهذا المعنى ؟ قال تعالى:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الأعراف: الآية ٣٢]

فالإنسان المؤمن الصادق المستقيم يطلب العلم في خدمة الخلق، في خدمة الله ورسوله، كان جائعاً فأكل طعاماً حلالاً طيباً، هل يمنع أن يكون مسروراً بهذا الطعام ؟ لا، لا يمنع، أمضى كل شبابه في عفة ما بعدها عفة، وفي غض بصر ما بعده غض، ثم تزوج، واستمتع بما أحل الله له، أحل الله له زوجته، هل مِن خطأ ؟ أبداً، الشهوات التي أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فلما يفعل المؤمن الأشياء التي أباحها الله له وفق منهجه تماماً المؤمن ويستمتع بها فلا شيء عليه المؤمن ولا تتناقض لذته من المباحات مع سعادته بالله عز وجل، ويمكن لإنسان بعد الزواج أن يلتقي بزوجته المؤمن ويقوم الليل، وفي أثناء الصلاة يبكي بكاءً شديداً من شدة محبته لله، ولا يتناقض لقاؤه الزوجي مع قيامه في الليل، لأنه وفق منهج الله، والدليل: قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: الآية ٥٠]

أنا أتمنى على كل الإخوة الكرام أن يكونوا واقعيّين، هذا الإسلام دين الفطرة، دين الواقع، لا يحرم الزواج، لا يحرم العمل، لا يحرم أن تشتري بيتاً، لا يحرم أن تتزوج امرأة صالحة، لا يحرم أن تنجب ولداً صالحاً يملأ البيت سعادة، هذا كله وفق منهج الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: الآية ٥٠]

الضلال أن تتبع الهوى بغير منهج الله، أن تزني، أن تأكل المال الحرام، أن تعلو في الأرض عن طريق البطش والقوة، لا عن طريق العمل الصالح والإحسان.

<< وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن، فهو الآن ـ دققوا ـ يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة >>.

ليس في الإسلام حرمان

إذا أكل الإنسان طعاماً طيباً، وكان جائعاً، فلما دخل وقت العشاء صلى، فأقبل على الله في الصلاة، فلذته في الطعام لا تتناقض مع سعادته في الصلاة، لأنها وفق منهج الله، إذاً الإسلام ليس فيه حرمان.

أيها الإخوة الكرام، دائماً أعداء الدين يوهمون الناس أن الإسلام قيود وحدود، كل شيء ممنوع، فيه كبت، لا، هذا كلام الضلال، هذا كلام الجهال، الإسلام الذي تظنه قيوداً هو ضمانات لسلامتك.

أوضح مثلٍ: لماذا صنعت المركبة ؟ من أجل أن تسير، فعلة صنعها السير، أليس فيها مكابح ؟ المكابح ضرورية جداً من أجل سلامتك، فكما أن الله عز وجل خلقنا للسعادة أحياناً تأتي المحرمات ضماناً لهذه السعادة، واستمراراً لها، لذلك أنا دائماً كنت أقول: إذا كنت في فلاة تتنزه، فإذا بلوحة كتب عليها: " ممنوع التجاوز، حقل الغام "، هل تحقد على واضع اللوحة ؟ أبداً، بل يمتلئ قلبك امتناناً له، هل ترى هذه اللوحة قيداً لحريتك أم ضماناً لسلامتك ؟ هي في الحقيقة ضمان لسلامتك.

الإسلام هو الحياة

إذاً: << يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه >>.

بكلمة مختصرة: الإسلام هو الحياة، أنت مسلم إذاً أنت حي، أنت متوازن يجب أن يشار إليك بالبنان، تحمل شهادة عليا، تتقن عملاً، لك بيت بيته منضبط، لك زوجة، لك منهج في البيت، لك مبادئ، لك قيم، لك مباحات، وهناك محرمات، وفرائض، لك هدف كبير، قال تعالى:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الأعراف: الآية ٣٢]

لكنها في الآخرة خالصة لهم، خالصة يوم القيامة لهم.

اللذة المانعة من لذة الآخرة أبخس اللذات

قال: << وأبخسهم حظاً مِن اللذة مَن تناولها على وجه ـ الآن دققوا جيداً ـ يحول بينه وبين لذات الآخرة >>.

أقام علاقة غير شرعية مع امرأة، هذه العلاقة حجبته عن الله، حجبته عن أن يصلي، شعر أنه مذنب، يرتكب كبيرة، يقترف فاحشة، لعنه الله، طرده الله عز وجل.

قال: << أبخس الناس حظاً من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم القيامة:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا)

[سورة الأحقاف: الآية ٢٠]

هذا كلام أيها الإخوة الكرام دقيق وخطير، أنت بحاجة إلى لذة، أما إن حرصت أن تكون وفق منهج الله فلا شيء عليك، وإذا حرصت أن تكون اللذة وفق منهج الله أعانتك على القرب من الله، فصار قلبك فارغاً غير مشغول.

الفرق بين تمتع المؤمن باللذة وتمتع غيره

قال: << هؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات >>.

أنت تأتي إلى المسجد فتجلس على الأرض، وتستمع إلى كلام يقربك إلى الله، وإنسان الآن ذهب إلى نادٍ ليلي، وجلس على كرسي، وشاهد راقصة، وأكل طعاماً مع الخمر، وسمع مغنياً، فالأول يبحث عن لذته المقدسة الراقية، والثاني يبحث عن لذته الحسية الدنيئة.

قال: << هؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع، أولئك تمتعوا بها على وجه أذن الله لهم فيه >>.

الفريق الأول تمتع باللذات على وجه أذن الله لهم فيه،

(مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)

[سورة الأعراف: الآية ٣٢]

تزوجت، وأكلت، وسكنت في بيت، وذهبت إلى نزهة مع أولادك، هذا كله مباح ومسموح.

<< فجمع له بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة، وسواء أذن لهم فيه أم لا، انقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتهم لذة الآخرة >>.

أنت في مجموعة نِعم، هذه النعم التي أنت فيها إما أن تفارقها بالموت، أو أن تفارقك وأنت حي، فهناك إنسان يفقد بصره وهو حي، يفقد سمعه أحياناً، فإما أن تفارقك، وإما أن تفارقها، لكن إذا فارقتك ولك الجنة انتقلتَ كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، فحينما يموت المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

السائل الأمنيوسي وعلاقته بالجنين

مرة في رمضان الماضي كنت في دعوة إلى طعام الإفطار، جلس إلى جانبي رائد فضاء سوري، كان أحد رواد الفضاء في بلد بيننا وبينهم صداقة، فقلت له: الإنسان كان في رحم أمه بحجم لا يزيد على سبعمئة وخمسين سنتمترًا مكعبًا، فلما خرج إلى الدنيا هو مرتاح، لأن في الرحم سائل اسمه السائل الأمنيوسي، والله ذكر أن هذا الجنين في ظلمات ثلاث، وثبت أن ثمة أغشية ثلاثة، غشاء أول، غشاء ثان، غشاء ثالث، أقرب الأغشية إلى الجنين هو الغشاء الأمنيوسي، وهو غشاء مغلق، وبين الغشاء والجنين لتر أو لتر ونصف سائل أمنيوسي، هذا السائل يقوم بوظائف سبعة، لولا هذا السائل لما كان هذا الدرس، ولما كان إنسان على وجه الأرض:
هذا السائل يغذي الجنين أولاً، وهذا السائل يقي الصدمات، فلما تنطلق الأم الحامل مسرعة في البيت، ولا تنتبه فتصطدم بطرف الطاولة، هذا السائل يمتص هذه الصدمة التي هي خمسة سنتمترات، ويوزعها على كل الجنين نصف مليمتر، فلا يتأثر، هذا النظام طبق في المركبة الفضائية، ومطبق في الدماغ، باعتبار الدماغ أخطر عضو في الإنسان، فبينه وبين الجمجمة سائل، وأحيانا الطفل يقع على الأرض فتسمع رنين صوت جمجمته على الأرض، ولا يتأثر، لأن السائل يمتص هذه الصدمة، ويوزعها على كل مساحة الدماغ، فلا يتأثر، فهذا السائل الأمنيوسي فضلاً على أنه يغذي يمتص الصدمات.
ثالثا: يسهل حركة الجنين في الرحم، فكل شيء مع السائل حركته سهلة، إذا كانت القطعة المعدنية متحركة يوضع لها زيت فتصبح الحركة انسيابية، وبلا صوت، الوظيفة الثالثة تسهل حركة الجنين.
الوظيفة الرابعة: هذا السائل تكييف مع تدفئة، حرارة ثابتة، إنْ ماتت الأم مِن بردها فليس له علاقة الجنين، أو جاءت موجة حر بخمس وأربعين درجة فليس له علاقة، عنده سائل حرارته ثابتة صيفاً شتاءً.
أولاً: يمتص الصدمات، يغذي الجنين، يسهل حركته، تكييف مع تدفئة.

هذا السائل يسهل الولادة، طبعاً المكان ضيق جداً، فحينما يكون مع الجنين هذا السائل يعين الجنين على الانزلاق، فيخرج من رحم أمه.

وأخطر وظيفة أنه يعقم المجرى، فلا يصاب الجنين الذي ولد حديثاً بالتسمم أو بأشياء يمكن أن تؤدي إلى وفاته من المضاعفات، هذا فعْلُ الله عز وجل.

هذا الجنين انتقل من سبعمئة وخمسين سنتمترًا مكعبًا وهو جالس مرتاح، كل شيء مؤمّن له، حتى لو نقصه البوتاسيوم مثلاً، هذا النقص عنده يترجم عند أمه بشهوة تشتهي طعاماً معيناً فيه بوتاسيوم، حاجة الجنين تترجم إلى شهوة طارئة عند الأم الحامل، وهذا شيء لا يكاد يصدق، هذا الجنين لو فرضنا أن عنده إدراكًا لبلغوه أنه يجب أن تغادر، لو كان على وعي كبير لتألم ألماً لا حدود له، وعند الخروج من الرحم أكبر مصيبة، لكن بعد أن يكبر صار له بيت بمئتي متر، وصالونات، وغرف نوم، وغرف ضيوف، وذهب بسيارته إلى مكان جميل، وسافر إلى مكان بعيد، وقلت لرائد فضاء: وصعد إلى القمر، أو برحلة فضائية، كم هي المسافة بين سبعمئة وخمسين سنتمترًا مكعبًا وبين رحلة فضائية إلى القمر في مئة وستين ألف كيلو متر، فكذلك يخرج المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما يخرج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، لذلك قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

[سورة يس: الآية ٢٦]

فلا لذة الدنيا دامت إلى هؤلاء الذين بعدوا عن الله، ولا لذة الآخرة حصلت لهم لذلك الملخص من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٣٢-٣٦) : يا حبذا نوم الأكياس و فطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى و صومهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٢-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد العالم الجليل ابن القيم رحمه الله تعالى، هذه الفائدة تتصدر بقول لأبي الدرداء، لكنه من العمق بمكان.

نوم الأكياس وفطرهم وقيام الحمقى وصومهم

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: << يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم >>.

هاتان حالتان متناقضتان، حالة إنسان نائم، وإنسان قائم يصلي، إنسان مفطر، وإنسان صائم، وقد يبدو لكم هذا الكلام عجيباً، الأكياس الذين عرفوا الله، واستقاموا على أمره، وعرفوا سر وجوده، وغاية وجوده، وباعوا أنفسهم لله عز وجل، هؤلاء نومهم وفطرهم أفضل ألف مرة من قيام أحمق وصومه، هذا شيء ملاحظ.

سوء خلق الحمقى مع كثرة العبادة تنفير من الدين

قد تجد الرجل صائماً، وكلامه قاس، همّه نفسه، لا يقدم خدمة لأحد، مستعلٍ، شعوره أنه هو مهتدٍ إلى الله، وضابط لأموره، هذا الشعور يجعله فوق البشر، فصار أداة منفّرة، فلذلك ما الذي يبعث الناس على أن ينفروا من الدين ؟ عبادات الحمقى، لا أتحدث عن الفرائض أبداً، أنا أتحدث عن النوافل، فإذا كان الكيس قائماً صائماً فهو في أعلى عليين ولا شك في ذلك، لكن لو وازنا بين إنسان عرف الله ويتمتع بخلق عال جداً، يتمتع بفهم عميق للدين، باع نفسه لله، وقته كله لخدمة العباد، في أعلى درجات اللطف والأدب، والتواضع وخدمة الخلق، مفتقر إلى الله عز وجل ، هذا الإنسان لو أنه يأكل كما يأكل معظم الناس، أي ليس صائماً نفلا، وليس قائماً بالليل، قد يكون الصيف وقته قصير جداً، نام الساعة الثانية عشرة، والفجر الساعة الثالثة والنصف، فلم يستطع أن يقوم الليل، لكن فهمه للدين العميق وإخلاصه وأخلاقه العالية ومحبته للخلق وتواضعه لهم، والناس تتحلق حوله، وتلتف حوله، هذا أفضل ألف مرة من إنسان أحمق جاهل مستكبر، لكنه عابد.

هل هناك دليل نبوي ؟ نعم:

عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ...))

[الترمذي]

كأن النبيّ e فرّق، دِينه أي: يصوم ويصلي، يؤدي زكاة ماله، لكن خلقه فيه قسوة بالغة، فيه استعلاء أحياناً.

مرة أخ قرأ آية، وشرحها، فقال له الثاني: ليس هذا هو المعنى، بحالة استكبار تفوق حدّ الخيال ، قال له: بارك الله بك فما المعنى ؟ قال له: هذا المعنى فوق مستواك، شيء ينفّر.

والله هناك أمراض عند من ينتمي للدين، والله إنهم ليحتاجون إلى أطباء نفسيين للكبْر، والشعور بالاستعلاء، واحتقار الناس، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام كان مع الخلق، وكان متواضعاً.

استيعاب العاصي وسعة الصدر معه

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

((أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ))

[البخاري]

هذا فهم عميق جداً، وثمة فرق بين شخص يعصي الله، وهو مغلوب على أمره، وشخص يعصي الله مستكبرًا، هذا شارب الخمر مغلوب على أمره، لعل الله يتوب عليه.

عَن بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((... فَجَاءَتْ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَرُدُّنِي، لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَ اللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ: إِمَّا لَا فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ: اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا فَسَمِعَ، نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاهَا فَقَالَ: مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ))

[مسلم]

كلما كبرتَ عند الله تتواضع لعباده، لا تشمت بأحد، تجد الإنسان المقصر يحتاج إلى مساعدة، يحتاج إلى قلب كبير، يحتاج إلى نفَس طويل.

أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى عندما هدى جاره الذي لم يدَعه ينام الليل طوال عمره، كان مغنياً، وكان يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

فلما افتقده مرة سأل عنه، فإذا هو بالسجن، فذهب بمكانته وهيبته وعلمه إلى مدير الشرطة، وتوسط له أن يطلق سراحه، طبعاً أطلق سراحه فوراً إكراماً لهذا العالم الجليل، أركبه وراءه على الدابة، قال له: يا فتى، هل أضعناك ؟ قال له: والله لن أعود إلى الغناء.

كان تعليقي أن أبا حنيفة قلبه كبير جداً، واستوعب هذا الشاب حتى تاب.

تُروى قصص عن بعض العلماء، لكن بعضهم يستنكرها عليهم أشد الاستنكار:

مرة أرسل ليرات ذهبية إلى من تعمل في البغاء، لعل الله يتوب عليهن، لأن العاصي يريد قلباً كبيراً، يريد قلباً يستوعبه، يجب ألا تكفّره فوراً، هناك دعاة إلى الله أُفقهم ضيق جداً، إن وجدوا شاباً متلبسًا بمعصية يقيمون عليه الدنيا، هو محطَّم، هو منهار نفسياً، ليس مستعداً لمن يكفره ويوبخه، يريد قلباً يَسَعه، يأخذ بيده إلى الله، بطولتك ليست مع المؤمنين الصادقين، هؤلاء سائرون إلى الله، بطولتك مع إنسان عنده مليون مشكلة، مع إنسان معقد، مع إنسان واقع في معصية، مع إنسان واقع في انحراف، ليس له أحد، فكلما تكبرت عليه كنت أبعد عن أن تكون داعية إلى الله عز وجل.
كلمة مؤثرة جداً: << يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم >>
لذلك قال الإمام الغزالي: << لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون>>.
مرة قرأت كتاباً، في مقدمته كتب المؤلف: " يا رب، إن سيئاتي من قضائك، أنا لا دخل لي "، ألغى الدين كله، ألغى المحاسبة كلها، ألغى الحساب، ألغى الثواب، ألغى العقاب، ألغى الجنة، ألغى النار، هو لم يعمل شيئاً، كل سيئاته من قضاء الله عز وجل، هذا خطأ كبير، << فلأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون >>.

الفعل بأمر الله، لكن العبد اكتسب الخطيئة، وأرادها، واختارها، وتحرك نحوها، والله عز وجل أعطانا الخيار، وتعلقت قدرة الله باختيار العبد.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يعلق على كلام أبي الدرداء رضي الله عنه: << يا حبذا نوم الأكياس و فطرهم، كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، الذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين >>: " هذا من جواهر الكلام " .

إخواننا الكرام، الغرور مخيف، الغرور أن تتوهم أنك بحجم أكبر من حجمك الحقيقي بآلاف المرات، الله عز وجل يتولى أحياناً تحجيم الإنسان ليعود إلى حجمه الحقيقي، فأنا لا أرى مرضاً يحول بينك وبين المقربين كالكبر، والكبر مبطّن.

إخواننا الكرام، أكبر المعاصي الظاهرة يكون احتمال التوبة منها كبيرًا جداً، لكن أخطر شيء في حياتك الكبائر الباطنة، منها الكبر، والاستعلاء، والشعور أن الناس دونك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[مسلم]

مرة كنا في الحج، أحد العلماء الأجلاء دعا في عرفات، دعا وبكى، قال: والله لعل شاباً من الحاضرين قد قُبِلَ حجُّه، ولم يُقبل منا أحياناً، الله رب النيات، لا تهتم بالمظاهر والأعلام والأسماء الكبيرة والأضواء المسلطة على بعض الأشخاص، اهتم بالإخلاص، فقد يكون الشاب لا أحد يعرفه، إذا غاب لم يفتقد، وإذا حضر لم يعرف، لكنه مخلص.

عندما جاء رسول من نهاوند إلى سيدنا عمر، وأخبره أنه مات خَلق كثير، فقال سيدنا عمر لهذا الرسول: << مَن هم الذين ماتوا وقتلوا ؟ قال: إنك لا تعرفهم، فبكى عمر، وقال: ما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم >>، من أنا ؟ فالإخلاصَ الإخلاصَ.

إخواننا الكرام، هناك آية لا أشبع منها، وهي قوله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

مع أنك نبي ورسول، و يوحى إليك، و معك معجزات، و فصيح، و بليغ، وجميل الصورة، مع كل هذه الميزات:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

أيّ اتصال من نتائجه الرحمة في قلبك، والرحمة تنعكس ليناً، واللين يسبب التفاف الناس حولك، والانقطاع عن الله يسبب قسوة بالقلب، ينعكس غلظة وفظاظة، والنتيجة ينفض الناس من حولك، فبطولتك كداعية لا أن تملك معلومات دقيقة جداً، وأدلة قوية، هذه أساسية في الدعوة، ولابد منها، لكنها شرط لازم غير كافٍ، أنت بحاجة لقلب كبير يسع المذنبين، يسع من حولك، يسع المخطئين، يسع اليائسين.

الشبهات والضلالات إيقاظ لنشاط المسلم

أحياناً يستفتيك الإنسان، وهو ليس بحاجة إلى فتوى، هو بحاجة إلى من يدعمه، من يقوي همته، من يرفع من أمله بالله عز وجل، الله عز وجل من سننه في هذه المعركة بين الحق والباطل، والمؤامرات التي تهجم على الدين، ومع كل هذه المؤامرات والتهجمات ينمو الدين نمواً عجيباً، وقد سمعت الآن أنه يعقد مؤتمر في أوربة لبحث أخطر قضية تواجهها، وهي انتشار الإسلام، لا في الجاليات الإسلامية، بل في سكان أوربة الأصليين، هذا معه جنسية فرنسية له حق التصويت، هذه مشكلة، إذاً العالم كله يحارب هذا الدين، والدين ينمو، وكأن المعركة بين الحق والباطل أرادها الله عز وجل، هذه المعركة سبب نشاط المسلمين، هذه المعركة تبث النشاط في العالم الإسلامي، وكلما جاء إنسان بضلالة، ونشرها بكتاب تقوم الدنيا ولا تقعد، صار هناك نشاط بين طلاب العلم والدعاة إلى الله، والطلاب سألوا أستاذهم: ما هو رأيكم في هذه الفتوى ؟ والأستاذ راجع الكتب، وجاء بالفتوى الصحيحة، فصار هناك حركة، فيبدو أن الحق لا ينمو إلا بالتحدي.

إن أيّ إنسان يطرح فكرة غير صحيحة يحرك البلد كله، فتجد نشاطاً، وردًّا، وسؤالا، وجوابًا، وندوات، لذلك هذا هو الدور الخفي الذي يغيب عن معظم الناس، والشيطان يطرح شبهة، يلقي وسوسة، يحرك الناس، فيتمتن إيمانهم، ويقوى، هو لا يريد ذلك، ولا يتمنى، ولا يشعر. أحياناً العدو له دور مهم معك، دقق، الصديق لا يرفعك، لأنه يمدحك فتبرك، كلما مدحك ترتاح، وتتكاسل، أما العدو فيتابعك كلمة كَلمة، ينتقدك، لا مكانة لك عنده، يتهجم عليك، فإذا راقبك شخص يحصي أنفاسك، ويتابعك، قبل أن تتكلم بالكلمة تعد للألف، من الذي دعاك لتنضبط ؟ العدو، من الذي دعاك تحضر درسك جيداً ؟ العدو، من دعاك إلى أنم تعتمد على النص الصحيح ؟ العدو، من دعاك ألا تتكلم عن منام ولا شطحة ولا خرافة ؟ العدو، لأنه جالس بالمرصاد، من دعاك تتفوق ؟ العدو، قال الشاعر:

عُداتي لهم فضل علي و منة فلا أذهب الله عني الأعاديا

* * *

الأعداء لهم دور إيجابي، لكن لا أحد ينتبه لهذا الدور، لذلك أنا أقول: أيّ إنسان له عمل دعوي، وألغى المعارضة ينتهي، دع الناس ينتقدوك، اسمح للإنسان ينتقدك، تنتبه أن نقطة أنت غير منتبه لها، لا تلغ المعارضة فتلغى أنت، هل لهذا دليل ؟ طبعاً لها دليل:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَقَالُوا: صَبَأْنَا، صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، فَأَمَرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، مَرَّتَيْنِ))

[البخاري]

بعض أصحابه لم يقبل ما فعله خالد، وراجعه.

معنى: تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

لذلك إخوانا الكرام، هذا الدين لا ينمو إلا بالحرية، لا ينمو بالقمع، لا ينمو بالإرهاب الفكري، يوجد إرهاب فكري، يوجد آية قرآنية الدعاة يتلونها على استحياء، لأننا نحن متهمون بالإرهاب، تأتي الآية تصفنا بأننا نرهب عدو الله وعدونا، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: الآية ٦٠]

نحن نهرب من كلمة إرهاب، وهي في القرآن الكريم، الحقيقة أن الآية تخلق مشكلة كبيرة جداً، وجدوا كلمة (الإرهاب) فقالوا: أنتم إذاً أنتم إرهابيون.

والله أيها الإخوة الكرام، لو تعمقتم في معنى هذه الآية لوجدتم أن هذه الآية تمنع الإرهاب، قال الله لك:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: الآية ٦٠]

معك سلاح نووي فلا تفكر دولة أن تتجاوز حدودها معك، لا تفكر دولة أن تقاتلك، لا تفكر دولة أن تتآمر عليك، لا تفكر دولة أن تدنس المصحف الذي لك، لا تفكر دولة أن تتهجم على قرآنك، تخاف منك، أما البلد الضعيف فيتفننون بانتقادنا، ويتفننون بإذلالنا، فكل ما يجري أن البلاد الضعيفة ليس معها سلاح قوي، أما لو وجد سلاح قوي بربكم من مئة سنة الدولة التي عندها سلاح نووي هل استخدمته ؟ لا، لذلك أن تعد لأعدائك ما تستطيع من قوة هذا يلغي القتل، أنت حقنت الدماء بهذا

العمل، وألغيت الحروب، وألغيت العدوان، وألغيت التطاول، وألغيت الاستفزاز كله، هذا إذا كنت قوياً، وإذا كنت ضعيفاً يتفنن العدو بإذلالك واستفزازك.

امرأة تخطب في كنيسة في أمريكة، وبعض القادة العرب بمؤتمر قمة قال: هذه أيضاً حائض، أي ليست طاهرة، ويوجد خمسون مصلٍّ، وخمسون مندوب فضائية، هذا موضوع إعلامي فقط، موضوع استفزازي أن المرأة التي لا تجب عليها صلاة الجمعة إطلاقاً تخطب وتؤم الرجال، أليس هذا استفزازاً ؟ استفزاز إعلامي فقط، والمصحف دنس كما سمعتم، لو كنا أقوياء لما كان يجرؤ أحد أن يفعل هذا معنا، الآن عندما ضعفنا صار هناك تطاول، بالمقابل صار هناك سفك دماء، فلو كنت قوياً لحقنتَ الدماء، لو كنت قوياً لألغيت الإرهاب، وألغي أن يقع عليك إرهاب، وأن تدفع شبابك إلى أن يُتّهموا أنهم إرهابيون، ما هذه الآية ؟

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: الآية ٦٠]

والله زارني أخ من الهند، قال لي: في الهند تسعمئة مليون، منهم تسعون مليون مسلم، أقسم لي بالله وهو الرجل الثاني مع أكبر عالم مسلم بالهند، هذا العالم المسلم درس في دمشق فزارنا، وأنا التقيت معه على طعام، قال لي: تسعون مليون مسلم بالهند مضطهدون، قال لي: يوم طورت الباكستان سلاحاً، وأصبحت دولة نووية، والله قُلِبتْ معاملة المسؤولين للمسلمين مئة وثمانين درجة إكراماً، صار هناك دولة جارة معها سلاح نووي.

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: الآية ٦٠]

إخوانا الكرام، أقول لكم هذه الكلمة: السلاح قد لا تستخدمه أبداً، لكن لمجرد أن عندك سلاحًا خطيرًا العالم كله يهابك، والعالم كله لا يفكر أن يعتدي عليك، ولا أن يستفزك، ولا أن ينشأ من استفزازه حركة طائشة للشباب تتهم بالإرهاب، كل هذا ينتهي، هل رأيت الآية:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فنحن إن كنا أقوياء نمنع الإرهاب عنا، ولا نقبل تهديدًا أساساً، لا نقبل وعيداً، لا نقبل مقاطعة اقتصادية، لا نقبلها، لكن الضعيف يجب أن يتحمل، لذلك هذه الآية التي قالها الله عز وجل هي الحل، وكنت أقول لكم دائماً: إن الإنسان عليه جهاد النفس والهوى، وعليه جهاد دعوي، وعليه جهاد بنائي، فإذا نجح بجهاد النفس والهوى والجهاد الدعوي والبنائي يُنتظر أن ينجح في الجهاد القتالي.

إذاً نعود إلى كلام أبي الدرداء رحمه الله تعالى ورضي الله عنه: << يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم

كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، الذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين >>.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: " هذا من جواهر الكلام وأدلّه على كمال فقه الصحابة، وتقدّمهم على مَن بعدهم في كل خير، رضي الله عنهم ".

منازل السير إلى الله تُقطع بعلو الهمة والإخلاص في العمل القليل

وقال: " فاعلم أن العبد إنما قطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، الدليل:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج: الآية ٣٢]

إنها تقوى القلوب لا تقوى الجوارح.

وقال تعالى:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ)

و قال عليه الصلاة و السلام:

((التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم عن أبي هريرة]

قال: " فالكيس يقطع من المسافة ـ أي المسافة إلى الله ـ بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعَاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير، والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة، وتطيب السير، والتقدم و السبق إلى الله سبحانه و تعالى إنما هو بالهمم، وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه على صاحب العمل مع كثرة حركته ".

أنت بصراحة إذا رأيت شخصًا جالسًا في دكانه، وعقّد صفقة ربح منها مليون، وداوم ساعة من الزمن، والثاني يفتح المحل ثماني عشرة ساعة ويربح ألف ليرة، الأول في دقائق ربح مليونًا، والثاني في ثماني عشرة ساعة ربح ألف ليرة، فالعبرة ليست بالوقت، ولا بالحركة، ولا بالضجيج، العبرة بالإنجاز، فكلما ازداد إيمانك، وتعمق إيمانك، وتعرفت إلى الله عز وجل، وسلمت نيتك، وسما هدفك كان العمل البسيط يعدل عند الله العمل الكثير.

قال: " فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله ".

لو فرضنا أن الكيس أيضاً أقام عبادات و نوافل كثيرة سبق الثاني بآلاف المراحل.

مثلاً النبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق، وحبيب الحق، هو المشرّع، شرع لك الصلوات والنوافل والعبادات، هذا أعلى شيء يوصلك إلى أعلى مرتبة، فلما تخترع عبادات لا أصل لها في الدين بنية أن تزداد قرباً من الله فقد اتهمت النبي بالقصور، ومنهج رسول الله كامل يوصلك لأعلى مقام، أنت لست مضطراً أن تخترع عبادات كي تنال أكثر، النبي صلى الله عليه وسلم حريص على أمته، والنبي عليه الصلاة والسلام أعطى منهجاً متوازناً، فأنت لا تحتاج منهج آخر.

منهج النبي e في السير إلى الله كامل لا يحتاج إلى زيادة

يوجد كثير من الحلقات يخترعون فيها عبادات، تقرأ الإخلاص ثمانين مرة، وهذه سبعين، وهذه خمسًا وثمانين، كلها أشياء لم ترد في السنة، يخترعون مناهج لم ترد عند النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي صلى الله عليه وسلم منهجه كامل، ومنهجه يوصلك إلى أعلى مرتبة عند الله، لا تحتاج إلى شيء آخر.

مرة أراد شخص أن يحرم قبل الميقات، فقال له أحد الصحابة: لا تفعل، قال له: هي عبادة، قال له: تُفتن، قال له: كيف أفتن ؟ قال له: وهل من فتنة أشد من أن ترى نفسك سبقتَ رسول الله .

في بلد إسلامي جماعة لا يتزوجون، وهذا خطأ كبير، الزواج سنة، الزواج لا يتناقض مع تفوقك عند الله عز وجل، وقد ترقى إلى أعلى المراتب وأنت متزوج، هذه زوجة، لك أجر بالزواج منها، حصنت فتاة، أقمت أسرة، أنجبت أطفالاً، سيدنا عمر يقول: << واللهِ إني أقوم إلى زوجتي وما بي من شهوة إلا ابتغاء ولد صالح ينفع الناس من بعدي >>.

هناك هدف نبيل عندما تربي طفلاً تربية إسلامية، وتفرزه للمجتمع عنصراً كاملاً كريم الأخلاق، معطاء، منضبطاً، عنده حياء، عنده خجل، عنده ورع، وأنت قد خدمت الأمة.

أنا حينما أستمع إلى قول النبي الكريم:

((تناكحوا تكاثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة))

واللهِ لا أصدق ثانية واحدة أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يريد أن يتباهى بعدد أمته فقط، أحياناً تجد طفلاً يتكلم كلاماً تستحي أن تسمعه وحدك، يتكلم في العورات، وهو طالب ابتدائي، من أين استقى هذه الكلمات ؟ البيئة سيئة جداً، بيئة الأسرة سيئة، المدرسة سيئة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يتباهى بعدد فقط ؟ بأطفال منحرفين ؟ يتباهى بالنوعية، وقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الواحد منهم كألف، و الألف منا نحن كأفٍّ.

قال ابن القيم: " أكمل الهدي هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان موفياً كل واحد منهما حقه، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقوم حتى ترم قدماه، ويصوم حتى يقال: لا يفطر،

ويجاهد في سبيل الله، ويخالط أصحابه، ولا يحتجب عنهم، ولا يترك شيئاً من النوافل والأوراد لتلك الواردات التي تعجز عن حملها قوى البشر، والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم، وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يقبل واحداً منهما إلا بصاحبه وقرينه " نريد قلباً موقناً وجوارح ملتزمة، ومن أدقّ التعريفات الإيمان: " أنه ما وقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدقه العمل ".

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٣٣-٣٦) : أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر و المهانة و الدناءة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٢-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين حسنُ الخُلق

مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى يقول: << أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر و المهانة و الدناءة، و أصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع و علو الهمة >>.
إنّ الدين ـ كما قال ابن القيم نفسه ـ: " الدين هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين".
الحقيقة أن الناس لا يتعاملون معك إلا لأخلاقك، لو أنت قمت الليل فلا أحد رآك، ولو تكلمت أنك قمت الليل سقطت قيمة هذه العبادة التي هي بينك وبين الله، أما الناس فلهم منك أخلاقك، لهم تواضعك، لهم محبتك، لهم إخلاصك، فلذلك الكبر والمهانة والدناءة يصرفان الناس عنك.
مشكلة الدعوة ما أساسها ؟ الذي يدعو إلى الله ولا يطبق منفّر، والذي يتواضع للناس ويرحمهم مقرّب، فما لم تكن الأخلاق رضية، وما لم تقتدِ برسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يمكن أن تكون نموذجاً للناس.
قال سيدنا علي رضي الله عنه " << قوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره ".
أنا خطر في بالي خاطر: إلى متى تتلقى ينبغي أن تلقي ؟ إلى متى تستمع ؟ ينبغي أن تستمع، ينبغي أن تحدث الناس، ينبغي أن يكون لك عمل:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة]

الإلقاء مع التلقي، والدعوة مع التعلم

الكلام دقيق، لو أن واحدًا منا سأل نفسه مساءً قبل أن ينام، أو بعد أن يستيقظ: ما العمل الذي ألقى الله به ؟ هناك أعمال لا تعد ولا تحصى مآلها إليك، مصيرها إليك، مصالح ترفع دخلك، ترفه نفسك، تعتني ببيتك، تُسر بالحياة، هذه أعمال لا وزن لها في الآخرة إطلاقاً، وزنها في الدنيا، والدليل أن الإنسان لما يتوفاه الله عز وجل كل هذا يتركه.

واللهِ مرة لا أنسى هذا الموقف من أخ صلى عندي، وكان صوته حسنًا، فكنت أطلب منه أن يؤذن قبل الخطبة، ثم توفي رحمه الله، بعد صلاة الجنازة وكان له شيخ آخر فأبّنه بالتعبير المألوف، هكذا بالضبط، قال: أخوكم أبو فلان كان مؤذناً، ترحموا عليه، فكّرتُ كلمة لم تتحمّل خمس ثوان، هو فعلاً كان مؤذنًا، وكان صوته حسنًا، ولكن كان غنياً كبيراً، عنده معامل، وعنده سيارات، وعنده نشاط، فلا يكمن أن يتحدث عن بيته وهو في النعش، على أنه بيت فخم، والله عنده ثلاث سيارات، ماذا يقول عنه ؟ فأنا استنبطت من هذا التأبين السريع أن اعمل عملاً يتحدث عنك ستين ثانية، أو دقيقتين، والله لا أنسى هذا التأبين، وترك في نفسي أثراً عميقاً جداً، فأنا قلت في نفسي: لك مليون ميزة لا يتحدث عنها، يتكلم أنك عملت عملاً صالحاً، قدمت شيئاً للأمة، تركت أثراً علمياً، تركت إخوة مؤمنين، تركت دعوة كبيرة، هذا يتكلم به، أما أن يتكلم عن بيتك وعملك ودخلك وأولادك، هذا كله كلام لا يتكلم به عند الموت.

فلذلك أيها الإخوة الكرام، لا يمكنك أن تعيش كل عمرك تتلقى، لا يمكن أن تعيش كل عمرك تسمع، السماع له مرحلة، أنْ تبقى دائماً تسمع لا مانع، لكن لابد مع السماع من إلقاء، مع التلقي إلقاء، لك دعوة، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ))

[مسلم]

ما فكرت أبداً أن تنصح واحداً ؟ أن تعين إنسان على أن يؤمن فيستقيم، ما فكرت أن تعطي أحدًا شريطًا يسمعه ؟ ما فكرت أبداً أن تجلس مع إنسان فتحاوره في أمور الدين والآخرة ؟ هذه مشكلة، وإذا غاب عنك أن الدعوة إلى الله فرض كفاية يجب أن تعلم علم اليقين أن الدعوة إلى الله فرض عين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، فرض عين على كل مسلم في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، والدليل قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: ١٠٨]

فإن لم تدعُ إلى الله على بصيرة فأنت لست متبعاً لرسول الل، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)

[سورة آل عمران: ٣١]

أنت لست مخيراً، والدليل الآخر قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر]

اخرج من ذاتك تسعد، اخرج إلى خدمة الخلق، إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، ولكن ما دمتَ تجول حول ذاتك، وهمك فقط ذاتك، وبيتك ودخلك فقط، ولا تعبأ بأحد، فأنت في كآبة وملل، وسآمة وضجر، أما لما تخرج من ذاتك لخدمة الخلق فأنت أسعد الناس، ألا تقول وأنت تصلي على النبي : " وعلى أسعدنا محمد "، لأنه خرج من ذاته لخدمة الخلق

والله أحياناً يا أيها الإخوة الكرام، أسمع أخًا هدفه أن يعمل عملاً يقدم شيئاً إلى الأمة، والله أكبره أشد الإكبار، وأقول: إن شاء الله هذا له هدف كبير، همه الآخرين، الآن هناك تنوع، همه أن يعمل جمعية خيرية لتعليم الكبار، جمعية لتأليف قصص إسلامية للصغار، كما قالوا: سوف نواجه التحديات بروح العصر أيضاً نواجه مشكلات المسلمين بروح العصر، حل مشاكل الأمة، قدم إما أشياء مادية، أو معنوية، أو علمًا، أو دعوة إلى الله عز وجل.

أنا الآن أدعوك إلى أن تسأل نفسك هذا السؤال: أنا ماذا قدمت لله عز وجل ؟ فإذا أوقفني الله بين يديه يوم القيامة، وقال لي: ماذا فعلت من أجلي يا عبدي ؟ تفضل تكلم، والله يا رب، أنا أخذت بيتًا أربعمئة متر، هذا ليس من أجلي، هذا من أجلك، أريد شيئاً من أجلي، والله أحياناً يقدم الإنسان عملاً خالصاً لوجه الله، ولا يحب أن يذكر، هذا المخلص، هؤلاء أرجو الله أن يكونوا في أعلى عليين، ترى شخصاً حاملاً همّ الناس، حاملاً همّ المسلمين، أقول كلمة دقيقة: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، يمكن أن تصل إلى الله من ألف طريق وطريق، وقد يكون الطريق بغير أضواء شديدة، لكن فيه عمل وإخلاص.

كان السلف الصالح إذا فتح محله التجاري يقول: نويت خدمة المسلمين، أنا أقسم لكم بالله أن كل واحد منكم بإمكانه أن يكون عمله عبادة، عمله الطبيعي الذي يرتزق منه إذا كان مشروعاً في الأصل، وأتقنته، ونصحت المسلمين ينقلب عبادة.

الآن هناك شركة نقل، مع أنها تخسر ثمن الكرسي الفارغ إذا ركبت امرأة، وليس بجانبها امرأة ثانية الكرسي الثاني، لكن يبقى الكرسي فارغًا، هناك خمس ساعات سفر، فإذا جلس شاب جانب فتاة يتحرش بها، وهذا العمل الخير على حساب الشركة، ترى أعمالا تأخذ بالألباب، هناك فتح بيوت لإطعام الأرامل والأيتام، وتوزيع وجبات، ودفع أقساط لمعاهد شرعية، إنها أعمال جليلة، فإذا أوقفك الله بين يديه، وقال لك: يا عبدي، ماذا فعلت من أجلي ؟ أنا أرسلتك إلى الدنيا، وسخّرت لك ما في الكون، فماذا فعلت من أجلي ؟ يمكن أن تقدّم شيئا بالمال أو بالجاه أو بالعلم، قدّم شيئاً بأي عمل.

الشيء الثاني: بعد أن قدمت شيئاً تحب أن يلتف الناس حولك بالأخلاق العالية فقط، والله لو دخلت إلى أيّ مسجد ترى عدداً كبيراً من الإخوة الكرام الذين اصطلحوا مع الله، سبب اصطلاحهم مع الله موقف أخلاقي من مؤمن، أنا أعرف شخصًا راكب سيارة فخمة جداً، رأى شاباً راكبًا دراجة، وسلسلة الدراجة مقطوعة، صف سيارته، ويبدو أن عنده خبرة، وساعده فقط، قال له: والله خجلتني، أحب أن أزورك، أعطاه عنوانه، وبدأت العلاقة الدينية، وصار من كبار الدعاة، فالثاني الذي كان يركب دراجة طبعاً احتواه وأكرمه.

والله مرة أخ يقول لي: كنت في بلد من بلاد الحجاز كان معارًا كأستاذ، وكان المدير قاسيًا جداً، إذا قرع الجرس لا يتحمل أن يتأخر المدرس دقيقة، قال لي: صببت كأساً من الشاي، وبعد أن صببت الكأس قرع الجرس، قال للآذن: تفضل، هذا الآذن بقي سنتين في المدرسة ما سمع سلامًا من مدرس، هو من بلد في آسيا، ولا يتكلم العربية، في اليوم الثاني قال له: أنت لماذا قدمت لي هذا الكأس من الشاي ؟ طبعاً تكلم معه بالإنكليزي، هل يقول له: أنا خفت من المدير، وخرجت بسرعة ؟ قال له: نحن أسرة واحدة، قال له: هل تسمح لي أن أقابلك ؟ قال له: تفضل، التقى معه، هل تصدقون يا أيها الإخوة الكرام أن هذا الآذن معه ماجستير في العلوم، ولكن لا يوجد عمل، وبلاده فقيرة جداً عمل آذنًا في المدرسة، قال لي: لما علمت أنه يحمل ماجستير في العلوم صعقت، وما صدقته، أحضر له موسوعة باللغة الإنكليزية، وقال له: اقرأ، ابنتي سألتني هذا السؤال هنا، قال لي: قرأ بطلاقة، وشرح، هو غير مسلم، بدأ يحاوره، قال: هل يمكن أن أحضر أصدقائي الاثني عشر، بعد شهرين أو ثلاثة كلهم أسلموا، ما هو السبب ؟ كأس شاي، فكن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، أنت لا تعرف أنك قد قدمت خدمة، فهذا الشخص أحبك، سألك سؤالا.

أقسم لكم بالله أن هناك آلاف القصص من مثل هذا، شخص التزم، واستقام، وتغير مئة وثمانين درجة، وغيّر بيته بسبب موقف أخلاقي من مسلم، كان صادقًا معه، وما ابتزه أبداً ، فأنت الآن يمكن أن تكون أكبر داعية بعملك، ما عندك لسان طليق، لا مانع، استقامتك دعوة، وأمانتك دعوة، وعفتك دعوة، وورعك دعوة، ومحبتك للناس دعوة، وخدمتك للناس دعوة، وليس شرطًا أن تتكلم، نحن الآن بحاجة إلى دعوة صامتة، لا نحتاج كلامًا، لا ينمو الإسلام إلا بالعمل.

لذلك أيها الإخوة الكرام، الذي أتمناه عليكم من خلال هذه الدروس في الفضائل أن الإنسان يبحث عن عمل يلقى الله به، وما من إنسان يعلم متى سيغادر.

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

عش يوماً بيوم.

كان النبيّ إذا قَامَ عَنْ فِرَاشِهِ يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٣٤-٣٦) : اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٢-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى.

صور عن ردع النفس عن العجب والفخر

يقول: " ذكر ابن سعد في الطبقات عن عمر بن عبد العزيز أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب فقطع الخطاب.

مرة سيدنا عمر بن الخطاب كان يخطب، وهو في أدق مكان في خطبته سكت، وقال: يا ابن الخطاب، كنت ترعى إبلاً على قراريط، وتابع الخطبة، هذه ليس لها علاقة، ما الذي حصل ؟ قطع البرنامج، ظهرت دعاية، يشبه هذا، ليس لها علاقة، فلما نزل من على المنبر سأله أحد أصحابه: لمَ قلت كذا ؟ قال: جاءتني نفسي فقالت لي: ليس بينك وبين الله أحد، أنت أعلى مؤمن، و أنت خليفة المسلمين، فأردت أن أعرفها حجمها، وقال: يا ابن الخطاب، كنت ترعى إبلاً على قراريط لأهل مكة، والآن أنت أمير المؤمنين، لذلك قال مرة: " كنت عميرا فأصبحت عمر، فأصبحت أمير المؤمنين ".

سيدنا عمر بن عبد العزيز يبدو أنه اقتدى به، قال: " كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطع الخطبة، وإذا كتب كتاباً فخاف وفيه العجب مزقه، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ".

هذا الموضوع يحتاج إلى دقة بالغة، لأنه إن صح التعبير يمس الخاصة من المؤمنين، أحياناً يجري الله عز وجل على يديك عملاً صالحاً، مثلاً: ألقيت درساً رائعاً جداً، ولك أثر كبير جداً، أنت ماذا فعلت ؟ أنت شهدت عملك، ولم تشهد فضل الله عليك، هذا أكبر خطأ في التوحيد.

القول السديد والعمل الصالح من توفيق الله عزوجل

لذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: << اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله عز وجل مطالعاً فيه منة الله عليه وتوفيقه، وأنه بالله لا بنفسه، ولا بمعرفته، وفكره، وحوله، وقوته، بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب، والعين والأذن، فالذي منّ عليه بذلك هو الذي منّ عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته، ونظر قلبه لم يحضره العجب >>

من أنت ؟ الله عز وجل سمح لك أن تنطلق في خدمة الخلق، جمعك مع أهل الحق، تعرفت إلى الله من خلالهم، أعانك على الاستقامة، كلما شهدت فضل الله عليك في ما أنت فيه فأنت موحد، فإذا نسيت فضل الله عليك، وشهدت جهدك وعملك فقد وقعت في الشرك الخفي، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا، وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالًا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[ابن ماجه]

فرق كبير بين أن تشهد فضل الله عليك، وأن تشهد عملك، فمن أنت ؟

كنت لا شيء فأصبحت به خير شيء في الورى قد صنعك
كيفما شاء فكن في يده لك إن فرقك أو إن جمعك
في الورى إن شاء خفضاً ذقته وإذا شاء عليهم رفعك

***

هذه ملة طه.

سيدنا يوسف ماذا قال لما دعته امرأة العزيز، وهي ذات منصب وجمال، وفي أكثر من خمسة عشر مرغِّبًا أن يفعل ما دعي إليه، شاب في مقتبل حياته، غريب، عبد لسيدة تدعوه، ليس من صالحها أن ينشر الخبر، فقال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: الآية ٢٣]

ماذا قال ؟

(رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف: الآية ٣٣]

لا تنسب التوفيق والفضل إلى نفسك

لم ير قوة إرادته، ولم ير انضباطه، ولم ير ورعه، ولم ير طاعته، لكنه رأى فضل الله عليه أنه حفظه من أن يقترف هذا الإثم، فكلما شهدت فضل الله عليك فأنت موحد، وكلما شهدت قدرتك وقوتك واستقامتك، وإرادتك القوية، وعزمك فأنت في شرك خفي، نعوذ بالله منه.

الموضوع دقيق جداً، مرة التحق شاب بمسجد، وتفوق باستقامته، وفي إقباله على الله، له أب، ولهذا الأب فضل على ابنه كبير، زوجه، وقدم له أشياء كثيرة، الأب ليس منضبطاً انضباط الابن، فكان

الابن يستعلي على أبيه، ويراه ليس مستقيماً، يراه كذا، فإذا بهذا الابن تنهار مقاومته، ويطلق بصره في الحرام، أتاني مرة ما كنت أفهم كيف أعالج هذه الحالة، إلى أن عرفت الحقيقة، هو استعلى على أبيه، ولم ينسب استقامته إلى فضل الله عليه، ولا إلى معونة الله له، نسبها إلى إرادته القوية، وإلى انضباطه، والله عز وجل عاقبه بأن ضعف مقاومته، فانهارت إرادته، لذلكم إذا اعتدّ الإنسان باستقامته كبراً يعالجه الله معالجة صعبة جداً، ويضعف مقاومته.

لذلك قال بعض العارفين بالله: " رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ".

إذا كنت مستقيماً فهذا فضل من الله كبير، يا رب أنا أحقر عبيدك، شرفتني بمعرفتك والدعوة إليك، من أنا ؟ لقد كرمتني يا رب، وحفظتني، وألهمتني الرشد والصواب، وجمعتني مع أهل الحق، وأعنتني على طاعتك، أعنتني على محبتك، أعنتني على حب الخيرات.

الفكرة الدقيقة في هذا الدرس، إما أن تشهد فضل الله عليك، وإما أن تشهد عملك، إما أن تشهد فضل الله عليك فأنت موحد، وإما أن تشهد عملك فقد وقعت في الشرك الخفي.

قال: << فإذا غاب عن تلك الملاحظة فوقع العجب، ففسد قوله وعمله.

نتائج العجب والشرك الخفي

الآن دققوا في نتائج هذا العجب والشرك الخفي.

قال: << فتارة يحال بينه وبين تمام عمله، ويقطع عليه، ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفيق ـ لا يوفق بعلمه ـ وتارة يتم له، ولكن لا يكون له ثمرة، وإن أثمر أثمَر ثمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود، وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه، ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة المنة والفضل والتوفيق >>.

ثمة أشياء دقيقة في علاقتك مع الله عز وجل، إن أكرمك الله بمعرفة، باستقامة، بانتماء إلى مجلس علم تثق به، إذا أكرمك الله بطاعة لله بمال حلال، بمهنة راقية شريفة، إذا أكرمك الله بعمل ينفع العباد، وقلت: أنا خططت، وأنا درست، وأنا تراكمت خبراتي فقد وقعت في الشرك، وقد قيل: رقصت الفضيلة تيهاً بفضلها فانكشفت عورتها، أما إذا قلت: هذا من فضل الله علي، هذا من توفيق الله، هذا من معونة الله، هذا من إكرام الله نجحت، لكن أن تقوله كلامًا حقيقيًّا، وليس كلامَ تواضع، قال إبليس: أنا خير منه فأهلكه الله، قال قوم بلقيس:

(نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

[سورة النمل: الآية ٣٣]

فأهلكهم الله.

قال فرعون:

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾

[سورة الزخرف: الآية ٥١]

فأهلكه الله.

قال قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾

[سورة القصص: الآية ٧٨]

الموضوع ألاّ ترى عملك، أن ترى عملك توفيقاً من الله، وفضلاً منه ومنة عليك، لذلك إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، لا تقل: أنا، قل: هذا من تمام فضل الله علي، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما التقى الأنصار قال:

((ألم تكونوا ضلالاً))

ـ ما قال: فهديتكم ـ قال: فهداكم الله بي ؟ دقق:

((ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

وقوله:

((يَا أُخَيَّ أَشْرِكْنَا فِي شَيْءٍ مِنْ دُعَائِكَ، وَلَا تَنْسَنَا))

[ابن ماجه]

يا رب، هذا جهد مقلّ، هذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام، كلما ازددت تواضعاً مع الله عز وجل رفع شأنك، وكلما استعليت، ونظرت إلى عملك وإلى إنتاجك حجبك عنه، أنت كمؤمن أنا أقول لك كلاماً دقيقاً: الله أكرم وأجل وأعظم من أن يشمت بك عدواً، لكن يؤدبك تأديباً لطيفاً بينك وبينه، فيحجبك عنه، تصلي فلا تشعر بشيء، تقرأ القرآن فلا تشعر بشيء، تذكر فلا تشعر بشيء، لأنك محجوب، فكل إنسان شهد عمله يحجب عن الله عز وجل ، لذلك يمكن أن أقول هذا الكلام الدقيق الدقيق: إن في تجربة المسلمين الصحابة الكرام تجربتين، تجربة بدر وحنين، الصحابة الكرام نخبة الخلق، إن الله اختارني واختار لي أصحابي، في بدر قالوا: الله، فانتصروا، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٢٣]

في حنين قالوا: لن نغلب من قلة، نحن كثر، قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة: الآية ٢٥]

هذان الدرسان تحتاجهما كل ساعة، قل: الله يتولك، قل: أنا، يتخلّ عنك، أنت بين التولي والتخلي، إن وحدت تولك، إن أشركت تخل عنك، طبعاً هذا عقاب لطيف، يحجبك عنه، وعملك لا ينتج، كأن تعمل مع رجل سنة ثم يقول لك: هذا الطريق، ما أعجبني عملك، ما استفدت شيئاً، لا توفيق، ولا إنجاز، ولا ثمرة، هناك إحباط، لأنك ترى عملك، لأنك تقول: أنا، إذاً الله عز وجل إما أن يصلح أقوال العبد وأعماله، ويعظم له ثمرتها، أو أن يفسدها عليه، ويمنعه من ثمرتها، فلا شيء أفسد للأعمال من العجب، ورؤية النفس، لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر، ما هو الذي هو أكبر من الذنب ؟ قال: العجب، ما الذي أهلك إبليس ؟ العجب، قال: أنا خير منه

<< فإذا أراد الله بعبده خيراً أشهده منته وتوفيقه، وإعانته له في كل ما يقوله ويفعله، فلا يعجب به، ثم أشهده تقصيره فيه، وأنه لا يرضى لربه به، فيتوب إليه، ويستغفره، وإن لم يشهد فضل الله ومنته، ولم يشهد تقصيره، بل شهد عمله، فكان عمله هذا، ولو كان صالحاً حجاباً بينه وبين الله، ولم يحقق الهدف منه >>.

أيها الإخوة الكرام، هذه كلمات لطيفة ودقيقة وعميقة ومؤثرة في علاقتك بالله، هذا الكلام ينتفع به من يسير إلى الله، من هو على طريق معرفة الله، وطريق القرب منه، والإقبال عليه، وحد ولا تر عملك، بل انظر إلى فضل الله عليك، لذلك المؤمن الصادق قبل أن يقدم على أي عمل يقول: اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٣٥-٣٦) : إن الله جميل يحب الجمال -١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠١-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الله جميل يحب الجمال

مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى، لكن هذه الفائدة متعلقة بموضوع قلما يطرقه الدعاة إلى الله، مع أنه موضوع أساسي جداً، ألا وهو موضوع الجمال، ففي كل إنسان منا حاجة إلى الجمال، شئت أم أبيت، أدركت أم لم تدرك، عرفت أم لم تعرف، هناك حاجة أساسية للجمال، وما لم تلبَّ هذه الحاجة وفق منهج الله ففي الأعم الأغلب تلبى بخلاف منهج الله، والطرف الآخر أدركوا هذه الحاجة فجعلوا بلادهم جنة، دعك من فسقهم وفجورهم وإباحيتهم، وعدوانهم المظهر الجمالي جداً، كل شيء جميل، كل شيء أنيق، كل شيء نظيف، فهذه الحاجة أدركها أعداء المسلمين فجذبوا إليهم شباب المسلمين فإذا أهمل المسلم هذه الناحية الجمالية يخالف منهج الله عز وجل، لكن حينما نجعل محور هذا الدرس:

((إن الله جميل يحب الجمال))

نقف وقفة متأنية عند

((إن الله جميل))

كيف يكون الله جميلاً ؟

كسف يكون الجمال ؟

أيها الإخوة الكرام، قال بعض العلماء: هذا فصل من أعز أنواع المعرفة، معرفة الرب سبحانه وتعالى بالجمال، هو يعرف بالجلال، ويعرف بالكمال، لكنه يعرف بالجمال، هذه معرفة خواص الخلق، وقلة قليلة من خواص الخلق تعرف الله بالجمال، لأن معظم الناس عرفوه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله، حاجتك إلى الجمال حاجة أساسية، والجمال أنواع، لكن أي إنسان من أي صنف، من أي طبقة، من أي ثقافة، من أي طائفة عنده حاجة إلى الجمال، وهذه الحاجة تلبى في أعلى مستوياتها، وأنت في أعلى درجات القرب من الله.

كنت أقول قديماً: إن كلمة مؤمن تعني أنها مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، لمجرد أن تقول: مؤمن، بالمعنى الدقيق الصحيح على حد جيد جداً من المعرفة، لأنك إذا عرفت أصل

الكون، وأصل الوجود، فهذه أعلى درجات المعرفة، فالذي عرف الله عز وجل هو في أعلى درجات المعرفة.

كنت مرة في بلد بعيد ودعيت إلى زيارة معبد من المعابد الوثنية، المعبد كلفته تزيد على ستة ملايين دولار، والآلهة في المعبد من البرونز، وأصدر الإله على زعمهم من الماس البرلنت، وهذا أغلى أنواع الألماس، التمثال بالملايين وهناك كسّارة حبة جوز في مدخل المعبد، سألتهم: لمّ هذه الكسارة ؟ فقال: الآلهة يحبون جوز الهند، فنكسرها لهم، وقد يأتي العباد إلى هذا المعبد، وهم يحملون الدكتوراه .

فأنت حينما تعرف الله فأنت في أعلى درجات العلم، فكلمة (مؤمن) مرتبة علمية، وكلمة (مؤمن) مرتبة أخلاقية، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن يكون المؤمن كاذباً، أو مخادعاً، أو لئيماً، أو سارقاً، أو منحط الأخلاق، أو إباحياً، أو متعجرفاً، كلمة (مؤمن) تعني أنه اتصل بأصل الكمال، فاشتق منه الكمال، مكارم الأخلاق مخزونة عند الله عز وجل، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، وكلمة مؤمن مرتبة جمالية له أذواق خاصة.

أحياناً هؤلاء الشاردون يذهبون إلى المقاهي العامة حيث السخط والضجيج والنساء الكاسيات العاريات، والأغاني تصدح، وتصم الآذان، وكل إنسان عينه على زوجة الآخر، ويعودون إلى البيت، وقد نشب الخلاف بين الزوج وزوجته، لماذا ابتسمتِ لفلان ؟ ولماذا نظرت إلى فلانة ؟ تكون نزهتهم قطعة من الجحيم، دعك من الحلال والحرام، إن مستوى الذوق متدنٍ جداً، فأنا أرى أن المؤمن له حد جيد من العلم، ومن الخلق، ومن الذوق، إذاً الله عز وجل يعرف بكماله، وجلاله، وجماله.

قال بعض العلماء: لو كان كل الخلق من دون استثناء ذكوراً وإناثاً في أعلى درجات الجمال، فإذا كان للجمال وحدات تقييم أحياناً فإنسان يفوق المئة درجة مئة وخمسين درجة، يقول لك: جمال أخاذ، لو أن الناس جميعاً من آدم إلى يوم القيامة ذكوراً وإناثاً كانوا على أعلى مستويات الجمال الصارخ الأخاذ لا يساوون شمعة أمام أشعة الشمس، أمام جمال الله عز وجل، لكن هناك جمال الظاهر، و هناك جمال الباطن في الدنيا والآخرة.

جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء

أيها الإخوة الكرام، بعضهم قال: الله جل جلاله يعرف بجمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، والنبي عليه الصلاة والسلام في الطائف قال:

((أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، و صلح عليه أمر الدنيا و الآخرة))

[الجامع الصغير عن عبد الله بن جعفر]

وقال بعض الصحابة، وهو عبد الله بن مسعود: << ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات و الأرض من نور وجهه >>، فهو سبحانه نور السماوات والأرض:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور: الآية ٣٥]

ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنور ربها، وأسماؤه كلها حسنى.

أحياناً تمشي في طريق فتجد النوادي، والمقاهي، والمطاعم، وإعلانات كثيرة لراقصة ومغنية، وطعام وخمور، التحليل الدقيق: هذا الذي جاء إلى هذا المكان لماذا جاء ؟ الصراحة جاء ليستمتع بطعام طيب، ويتوهم أن الخمر ينسيه المشاكل، ويستمع إلى مغنٍّ، وينظر إلى جمال راقصة.

إذاً هو يبحث عن المتعة، أليس كذلك ؟ لكن هؤلاء الذين يملؤون المقاهي والملاهي الليلية، والأماكن التي لا ترضي الله هم يبحثون عن متعة بحسب تصورهم، ولكنهم لو عرفوا أنهم إذا اتصلوا بالله عز وجل وصلوا إلى الجمال المطلق، لذلك يروى في بعض الأحاديث الشريفة أن المؤمن يوم القيامة و هو في الجنة إذا نظر إلى وجه الله الكريم يغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة]

القصة كلها أن الإنسان حينما يعلم أن القوة لله جميعاً ـ كلمة دقيقة جداً و شمولية ـ القوة المادية من الله، وقوة الكمال من الله، وقوة الجمال من الله، هو انصرف إلى سواه، انصرف إلى امرأة، أو إلى بيت فخم، أو إلى مركبة، أو إلى إطلالة في مكان جميل، لكن لو يعلم أن القوة لله جميعاً إذاً يُعرف الله جل جلاله بجمال الذات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، أسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها فضلى، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة، أما جمال الذات فهذه منطقة محاطة بخطوط حمراء، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

لا يمكن لمخلوق كائنًا من كان أن يطلع على جمال الذات، الله عز وجل علّم النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول:

((سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك))

[أبو داود عن أبي هريرة]

فجمال الذات لا نستطيع أن نحصيه إطلاقاً، لأن هذا يفوق قدرات الإنسان، فلا يعرف جمال الذات إلا الله، لا يدركه سواه، ولا يعلمها غيره، وليس عند المخلوقين إلا تعريفات يعرفون بها جمال الذات بطريقة منطقية أو استنباطية، وهذا الجمال، جمال الذات مصون عن الأغيار، محجوب بستر الرداء والإزار.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[أبو داود عن أبي هريرة]

جمال الذات محجوب عن الخلق.

فما قولك بجمال حجب بجمال الصفات ؟ وما قولك بجمال الصفات الذي حجب بجمال الأفعال ؟ وستر في النهاية بنعوت العظمة والجلال ؟ فمن معرفة الأفعال، إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات، إلى معرفة الذات، فإذا شاهد الإنسان شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات.

أيها الإخوة الكرام، الإله العظيم يحمد لذاته، هذه فكرة دقيقة، فأنت أحياناً لك ابن عم، وليس بينك وبينه أية صلة، لكن تستمع إلى قصة عنه تعجب به، مع أن العلاقة بينك وبينه مقطوعة، فإذا قدرته، وأكبرته، ووقرته مع أن العلاقة بينك وبينه مقطوعة نقول: إنك قدرته لذاته، لأنه عمل عملاً بطولياً.

جاءتني رسالة من صاحب مطعم بتركيا، مطعم متوسط، نسي عنده سائح ألماني مئتي ألف يورو، وهذا صاحب المطعم التركي قدم هذا المبلغ للشرطة، وهذا السائح بقي يومين في كآبة ما بعدها كآبة، لأنه نسي أين نسي المبلغ، فجاء ليتسلم المبلغ، أعطى صاحب المطعم خمسمئة يورو، فرفض أن يأخذها، قال له: أنا أعمل عشر ساعات عملاً شاقاً من أجل أن أطعم أولادي رزقاً حلالاً، لا نعرفه، ولا نعرف اسمه، ولم نره، لكننا تأثرنا إلى بهذه القصة.

إذاً أنت أحياناً تقدر الجمال لذاته، هذا جمال الأفعال، نحن بالمناسبة نقول: (جمال) فلا يقفز إلى ذهنك إلا جمال الصورة، فلان طويل القامة، لونه مشرق، مثلاً، جسمه متناسق، فقط، مع أنه بعد قليل ترون أن هناك للأفعال جمالا يفوق حد الخيال.

بعض التابعين كان قصير القامة، أحنف الرجل، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، أسمر اللون ليس شيء من قبح المنظر إلا هو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضبَ غضب لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيما غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه، وكان مرة في مجلس معاوية، وكان المجلس من أجل أخذ البيعة ليزيد، وكل من حضر المجلس أثنى ثناءً على

يزيد، وبقي الأحنف صامتاً، فأحرج معاوية، قال له: يا أحنف، قل، لمْ تقل شيئاً، فقال كلمة، قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فكان تلميحاً أبلغ من تصريح.

هذا الإنسان بطل، لكن جماله جمال أفعال، وجمال صفات، فإذا كنت خاطبًا، ولم تعثر على بيت، وبقيت سنة وزيادة، وكادت الخطبة أن تنفسخ لعدم العثور على بيت، وجاء إنسان فقدم لك بيتًا هدية، جيد جداً، بحي جيد، من دون مقابل، لكن هو ليس جميلاً من حيث الشكل، أنا أعتقد لا تغيب صورته الرائعة عن ذهنك ولا دقيقة، لأنها قضية جمال الأفعال.

إن الإله الحق يجب أن يُحَب لذاته، وأن يُحمد لذاته، فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه وإنعامه، وحلمه وتجاوزه وعفوه، وبره ورحمته، الإله يحب لذاته، يحمد لذاته، فكيف إذا أضيف لهذه المحبة الذاتية إحسانه لك، وإنعامه عليك، وحلمه وتجاوزه، وعفوه وبره، و رحمته، فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله، فيحبه، ويحمد لذاته وكماله، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة إلا الله، أحسن إلينا بأصناف النعم الظاهرة والباطنة، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، و أحبوني بحب الله، و أحبوا آل بيتي بحبي))

[الترمذي عن ابن عباس]

غاية الحب ينبغي أن تكون لله، وغاية الذل ينبغي أن تكون لله.

أصول محبة الله: الإخبار عنه بالمحامد، والمحبة له

الآن محبة الله عز وجل تنطوي على أصلين كبيرين:

الأصل الأول: الإخبار بمحامده و صفاته و كماله

أي إنسان يحب لا يبقى ساكتاً، إن كنت تحبه حقاً يجب أن تتكلم عن محبتك له، أن تتكلم عن كماله، أن تتكلم عن جماله، أن تتكلم عن جلاله، فمن أركان المحبة أن يكثر ذكر الله على لسانك، وقد برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله.

إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، يا موسى أتحب أن أكون جليسك ؟ قال: كيف ذلك يا رب، وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني.

فالأصل الأول: الإخبار بمحامده وصفاته وكماله، والمحبة له، تخبر وتحب، فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً، أخبر بكمال الله وبجلاله وبجماله، لكنه لا يحب، ما معنى لا يحب ؟

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران: الآية ٣١]

يوجد تعريف للمحبة دقيق جداً وقطعي:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران: الآية ٣١]

فمحبته تقتضي أصلين، الأصل الأول: الإخبار بمحامده و صفاته و كماله.

الأصل الثاني: المحبة له

فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً، ومن أحبه من غير إخبار بمحاسنه لم يكن حامداً.

نحن في حياتنا يوجد أشخاص لا ينطق بكلمة، ولو قدمت له روحك، تقدم له كل شيء يبقى ساكتاً، ويوجد إنسان يثني عليك بما ليس فيك أي منافق، علامة محبتك لله أن تذكره بجلاله وكماله وجماله، وأن تحبه.

أيها الإخوة الكرام، هذا عن كلمة واحدة: إن الله جميل.

وفي فائدة أخرى إن شاء الله تعالى نتحدث عن قوله:

((يحب الجمال))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٦هـ - الفوائد - الدرس (٣٦-٣٦) : إن الله جميل يحب الجمال-٢

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠١-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مع فائدة جديدة من فوائد ابن القيم رحمه الله تعالى التي أدرجها في كتاب الفوائد ، وهذه الفائدة مشتقة من حديث نبوي شريف :

((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

أنواع الجمال

الجمال الظاهر

أي جمال يحبه الله ؟ الجمال يتناول جمال الثياب .

أنا إذا ذكرت جمال الثياب ، ولا أقصد ثمنها إطلاقاً ، بل نظافتها ، بل تناسبها ، المؤمن جميل ، أن تكون له أذواق ، يتناول جمال الثياب ، ويدخل في هذا الحديث جمال كل شيء ، إن الله جميل ، لأن سياق الحديث صحابي جليل سأل النبي عليه الصلاة والسلام ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم ، الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

فسياق الحديث متعلق بالثياب ، لكن هذا لا يعني إطلاقاً صفات الجمال ، كما أن الله حينما قال :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

[سورة الأعراف : الآية ٣١]

طبعاً سياق الآية في الطعام و الشراب ، لكن هذا لا يمنع إطلاقاً عدم الإسراف في كل شيء ، أي : وكلوا واشربوا ولا تسرفوا في الطعام والشراب ، و في كل شيء ، إذاً هنا المقصود :

((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ))

المقصود الجمال من كل شيء ، كما في الحديث الشريف ، إن الله نظيف يحب النظافة ، نظافة البدن ونظافة الثياب ، ونظافة المكان ، ونظافة البيت ، ونظافة الطريق ، وأن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة ، هذه نظافة الطريق ، ونظافة العمل ، إن الله نظيف يحب النظافة ، وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ......))

[مسلم ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

قال أَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ : خَرَجَ عَلَيْنَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ مِنْ خَزٍّ لَمْ نَرَهُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَلَا بَعْدَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ نِعْمَةً ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[أحمد]

ما دمت بوضع مادي مقبول فلك أن ترتدي ثياباً نظيفة متناسقة ، وأن يكون مدخل البيت نظيفًا ، فيه نظافة ، وفيه ترتيب ، أنا لا أتكلم أبداً عن مستوى البيت ، ولا عن مساحته ، ولا عن أثاث البيت ، ولا عن موقعه ، ولا عن نوع الثياب .

والله أيها الإخوة الكرام ، دخلت إلى بيت في الغوطة ما وقعت عيني على بيت أكثر منه نظافة وأناقة ، والبيت متواضع جداً ، بيت من اللبن ، لكنه مطلي طلاء أبيض ، فيه من النباتات ، والجدران مدهونة بلون موحد أخضر ، والأثاث وسائد بسيطة جداً ، عليه أقمشة بيضاء ناصعة ، فيمكن أن يكون البيت بأدنى مستوى ، وأن يكون الأثاث بأدنى مستوى ، لكن النظافة والأناقة بأعلى مستوى ، أنا لا أتحدث أبداً عن مستوى البيت ، و لا عن مستوى الأثاث ، أنا يؤلمني ضعف الذوق في المسلم .

إذاً :

((فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ))

عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ الْجُشَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيَّ أَطْمَارٌ ـ ثياب مبتذلة ـ فَقَالَ :

((هَلْ لَكَ مَالٌ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : مِنْ أَيِّ الْمَالِ ؟ قُلْتُ : مِنْ كُلِّ الْمَالِ ، قَدْ آتَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الشَّاءِ وَالْإِبِلِ ، قَالَ : فَلْتُرَ نِعَمُ اللَّهِ وَكَرَامَتُهُ عَلَيْكَ ....))

[الترمذي ، النسائي أبو داود ، أحمد]

إن الله سبحانه و تعالى يحب ظهور أثر نعمته على عبده ، هذا من الجمال الذي يحبه الله عز وجل.

عندنا جمال الباطن ، وعندنا جمال الظاهر ، وهو أن يُرى أثر النعمة على العبد في ملبسه ، في بيته ، في محله ، في مظهره العام ، و جمال الباطن الآن دخلنا في صلب الموضوع الجمال الباطن بالشكر على النعمة ، الجمال الظاهر الله عز وجل فيما أنزل على عباده لباساً و زينة تجمل ظواهرهم ، و أمرنا بالتقوى كي تجمل بواطننا ، قال تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

[سورة الأعراف : الآية ٢٦]

هذه الآية أشارت إلى جمال الظاهر وجمال الباطن ، وقال في أهل الجنة :

(وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً)

[سورة الإنسان]

فجمل وجوههم بالنظر و بواطنهم بالسرور .

شاهد آخر على جمال الباطن وجمال الظاهر، وجمال أبدانهم بالحرير :

(وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً)

[سورة الإنسان]

المكان جميل والثياب جميلة والوجه جميل والقلب مسرور .

الله عز وجل يحب الجمال في الأقوال والأفعال ، واللباس والهيئة ، ويبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة .

شخص تكلم بكلام بذيء ، ويرتدي ثياباً أنيقة جداً ، فقال له أحدهم : إما أن ترتدي ثياباً من مثل كلامك ، أو تكلم من مثل ثيابك ، لذلك قالوا :

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوسي

* * *

الله عز وجل يبغض القبح وأهله ، ويحب الجمال وأهله ، التواضع جمال ، والصدق جمال ، والخدمة جمال ، والرحمة جمال .

مرة توفي ملك رحمه الله عُرف بالصلاح ، دعا شيوخ القبائل إلى طعام ، أحد شيوخ القبائل لم يعرف التقاليد التي تليق بأن تأكل أمام ملك ، فيوجد عنب ، ويوجد وعاء من الماء وُضع من أجل أن تغسل العنب فيه ، هو ظن أن هذا الماء للشرب هو يصلح للشرب ، لكن الشرب له آنية خاصة ، فأمسك أمام شيوخ القبائل بهذا الوعاء المبسط ، وشرب الماء ، فكل شيوخ القبائل ابتسموا استهزاء،

فما كان من الملك إلا أن أخذ وعاء آخر ، وشرب منه ، فجمدوا كلهم ، فأنقذ له الموقف ، أحياناً هناك موقف في منتهى الجمال .

امرأة لها وزن يفوق الحد المعتدل ، جاءت لتدلي بشهادة أمام القاضي ، فيبدو أنها في درج ، لما صعدت صدر منها صوت كادت تذوب من الألم والخجل ، فلما وصلت إلى القاضي قال لها : ما اسمك يا أختي ؟ فذكرت اسمها ، قال لها : ما سمعت ، فأعادت ، قال لها : ما سمعت ، أنا سمعي ضعيف ، فقالت لأختها : معنى ذلك أنه لم يسمعنا ، هو سمعها ، لكن أراد ألا يحرجها .

أمر قاضٍ بحبس متهم ، فقدم المحامي خمسة طلبات إطلاق سراح فما استجاب له ، فلما لم ينجح المحامي في إطلاق سراح هذا المتهم عزل المحامي ، وجيء بمحامٍ جديد ، القاضي بعد أن جيء بالمحامي الجديد بدا له أن يطلق سراحه لأسباب موضوعية لا علاقة لها بالمحامي ، فاستدعى الموكل ، وقال له : أنا لا أطلق سراح هذا المتهم إلا بطلب من المحامي السابق لئلا يتاجر الثاني بسمعة الأول .

والله أيها الإخوة الكرام كل موقف تقرأ عن الصحابة والتابعين والمؤمنين الصادقين تطرب له طرباً لا حدود له ، لذلك قالوا : بذكر الصالحين تتعطر المجالس ، فالصدق ، والأمانة ، والرحمة ، والإنصاف ، والعدل شيء يطرب له الإنسان ، وهذا هو الجمال .

مرة ثانية ، ما كل ما ذكر كلمة جمال يتوهم جمال الشكل ، لا ، ولكن هو لكل إنسان يعتني بصحته، وله مظهر يأخذ بالألباب ، له حمام يومي ، أناقة ما بعدها أناقة ، والله لو نظر إلى البحر لنجسه ، لو نظر له البحر ينجسه كله من كثرة اللؤم والخبث والجريمة والقسوة والأنانية وحب للذات ، تستمعون كل يوم كل موقف لا يحتمل .

إذاً الجمال الحقيقي جمال الأفعال ، لكن الله عز وجل قال عن المنافقين :

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)

[سورة المنافقون : الآية ٤]

يوجد أناس طلقاء اللسان ، فصحاء البيان ، أنيق جداً ، شكله جميل ، متناسق ، يعتني بصحته عناية بالغة ، عطورات من كل الأنواع ، لكنه لئيم ، يقول سيدنا علي : << والله ، والله ، مرتين ، لحفر بئرين بإبرتين ـ مستحيل ـ وكنس أرض الحجاز في يوم عاصف بريشتين ـ أيضاً مستحيل ـ ونقل بحرين زاخرين بمنخلين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين أهون عليّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين >> .

الآن الكلام الدقيق : هناك إنسان لا يعرف الله جميل جداً ، وأنيق جداً ونظيف جداً ، وبيته فخم جداً، ومركبته فارهة جداً ، وحركاته وسكناته جميلة جداً ، فقال تعالى :

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)

[سورة المنافقون : الآية ٤]

فالكلام الفصل في هذا الموضوع هو ما يلي : الجمال ـ دققوا ـ إذا أعان على طاعة الله ، وتنفيذ أوامره ، والاستجابة له كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجمل للوفود ، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ، فإن ذلك محمود عند الله .

أنت مسلم ، ودخل إنسان بيتك فلم يجد ترفًا ، ولا بذخًا ، لكن يوجد أناقة ، يوجد جمال ، مثلاً : مدفأة ركبت في الشتاء ، ثم أزيحت ، وثمة شريط وبسمار تدقه طوال العام أزله ، يوجد أشياء تصليحها سهل جداً ، كلها أغراض ليس له حاجة بها ، تجد بيتاً فخماً جداً على الشرفة ، يوجد طقم كنبات واضعه ، وعنده سلم مكسور ، هذا منظر سيئ للناس ، لا يوجد عنده جمال أبداً .

اسمحوا لي بهذه الطرفة ، ركب شخص سيارة فخمة جداً ، وهو يأكل ، ويرمي الوشاخ في الطريق، فقلت : والله هذا كان يجب أن يكون طنبرجيًّا ، مستواه مستوى طنبرجي ، هل من المعقول أن ترمي على الطريق ؟ والله نحن ببلاد شهد الله بشرق آسيا النظافة هناك شيء لا يصدق، الأناقة ، لا تجد سنتمترًا خطأ بالبلاد كلها ، كله عشب أخضر ، وورود ، حدائق ، فإذا كنت كما كان عليه الصلاة والسلام فأنت مسلم ، دعيت إلى عقد قران ، يكون عندك ثياب جميلة ، لا أقول : غالية أبداً، لكن يجب أن يكون لك ثياب خاصة بالحفلات تمثل الدين ، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك .

قال : " و ما كان للدنيا ، أي إذا ما سأل ، أي إذا لم تقل له : هذا الطقم من أين أحضرته ، هو يقول لك : إن شاء الله هذا الطقم يليق بي ؟ لأنه أجنبي ، لأنه يجب أن يتكلم هكذا ، إذا النية ليفتخر ، ويستعلي ، و ما كان للدنيا والرئاسة والفخر والخيلاء ، والتوصل إلى الشهوات ، أو من أجل أن يصطاد الفتيات مثلاً ، هذا كله أناقة ، وجمال من أجل الشيطان ، من أجل المعصية والإثم ، وأن يكون هو غاية العبد ، وأقصى مطلبه ، فإن كثيراً من النفوس ليس لها همّ سوى ذلك .

الآن مع الأسف الشديد كل أنواع التجمل والرشاقة والأناقة والاعتناء بالبيوت من أجل أن ننتزع إعجاب الناس ، وأن يسبحوا بحمدك ، أما حينما تستخدم الأناقة والجمال والترتيب من أجل أن يرى هذا الإنسان أن المسلم فدين الإسلام دين متكامل ، دين الحياة ، دين الفطرة ، دين الأناقة ، دين الجمال ، إن كنت تهدف أن تكف عنك ألسنة الشاردين ، وأن تكون كبيراً عند الطرف الآخر فلا مانع ، أما أن تتمنى أن تنتزع إعجاب الناس :

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

[سورة القصص : الآية ٧٩]

الجمال الذي لا يُمدَح ولا يُذم

الآن عندنا حالة من الجمال لا تمدح ولا تذم ، لا علاقة لها لا بأن يكون هذا الجمال أداة لإقناع الناس بأحقية هذا الدين ، ولا أن يكون سبباً للمعاصي و الآثام ، إنسان اشترى حاجة هي أنيقة لم يخطر بباله ، الآن كل شيء جميل للتجمل ، والدليل :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

[سورة يونس : الآية ٢٤]

أي الأناقة والجمال والتزيينات ، الآن شيء ثابت بالعالم كله بأي مكان ، فيوجد نوع من التجمل في سبيل الله ، ويوجد نوع في سبيل الشيطان ، ويوجد نوع لا علاقة له لا بهذا ، ولا بهذا .

إذاً الأصل في الجمال يقوم على أصلين عظيمين أوله معرفة و آخره سلوك ، فالمؤمن يعرف الله سبحانه وتعالى بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء ، ويعبد الله بالجمال الذي يحبه :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف : الآية ١٨٠]

من جمال الأقوال ، وجمال الأعمال ، وجمال الأخلاق ، وجمال الصفات .

إخوانا الكرام ، إنسان خطب فتاة ، فأراد ألا يغشها ، قال لها : إن في خلقي سوءاً ، قالت له : إن أسوأ خلقاً منك من حاجك لسوء الخلق ، يوجد كلمات رائعة ، يوجد مواقف رائعة ، يوجد ستر رائع.

والله أيها الإخوة الكرام ، مرة ثانية ، لا يشد الناس إلى الدين إلا بالأخلاق العالية ، و يوم كان الصحابة في أعلى درجات الأخلاق ، كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، أما حينما رأوا في آخر الزمان مظاهر دينية ، وسلوكًا غير إسلامي نفر الناس من أن ينضموا لهذا الحق .

أسأل الله لي ولكم أن نكون في مستوى هذا الدين العظيم ، وأن نكون ممن أحبهم الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس